خليل حنا تادرس

الإنسان وقواه الخفية

القدرة على اكتشاف الأشياء الخفية في أعماق النفس البشرية

كولن ويلسون

طبعة ثانية مزيدة

القسم الأول

ويحتوى على :

الفصل الأول : عالم السحر – علم المستقبل

الفصل الثانى : الجانب المظلم من القمر

الفصل الثالث : الشاعر عالما بالغيب

الفصل الأول

عالم السحر ـ علم المستقبل

فى عام ١٩٠٧ .. فى مقدمة كتاب (نموذج جديد للكون) لاد. بلسكي : عبارة تقول :

« كنت مكلفاً بكتابة أخر المقالات عن المؤتمر القادم المزمع تنفيذ عقده فى مدينة « لاهاى الهولندية .. وقد وردت لى عدة صحف أمريكية وألمانية وإنجليزية وإيطالية وفرنسية .. جمل وعبارات وكلمات وراء كلمات .. سخرية .. كذب وادعاءات وافتراءات نفس الكلمات .. ونفس العبارات .. تلك العبارات التى استخدمت آلاف المرات .. والتى سوف تستخدم فى مختلف المناسبات ، وربما فى كل المناسبات .. حتى ولو كان التناقض يجمعها .. المرح والحزن والضحكات والدموع .. ولكن !!

على أن أجمع حصراً شاملا لكل تلك الكلمات والآراء .. حتى لو تظاهرت بأننى آخذها على محمل الجد .. ثم يجب على أن أكتب من عندى .. يجب تجهيز مقالا عن هذا المؤتمر .. ولكن ماذا يمكننى أن أقول ؟ أمر يثير الملل .. خلاصة الموضوع .. مجموعة من الدبلوماسيين سوف يجتمعون .. سياسيون .. ورجال حكم .. وحكام وملوك .. كل هذا الحشد يتكلم .. ويتحدث .. سوف يتجادلون .. سوف يتنافرون ، ثم سوف يبقى كل شىء على ماكان عليه .. أو ربما أسوأ .

ونظرت إلى ساعتى .. مازال الوقت مبكرا .. هكذا كنت أقول لنفسى .. فربما طرأ شىء ما على تفكيرى يساعد على كتابة هذا المقال .. ما أأمن واجبات ومقتضيات الوظيفة بالنسبة للكاتب .

وأزحت الأوراق والصحف جانبا . . وفتحت أحد أدراج مكتبي . . ذلك المكتب المزدحم بالأوراق . . أكوام من الكتب ذات الأسماء الغريبة . . مثل « عالم الغامض والغموض » ، « الحياة بعد الموت » ، « معبد الشيطان » ، « تلانتيس ولوميزيا » ، « قواعد الساحر الأكبر وطقوسه » ، « الحكايات الصادقة لأحد الحجاج » ، وغيرها . .

تلك المجموعة من الكتب وأنا لم أنفعل لمدة تزيد على الشهر ، ولذلك أصبح عالم مؤتمر مدينة (لاهاى) والمقالات الافتتاحية فى الصحف أكثر وأكثر غموضا ولا واقعية بالنسبة لى .

وأخذنى الحنين إلى فتح أحد الكتب . ففعلت ، وعندئذ أدركت أننى لن أكتب فى هذا اليوم المقال عن هذا المؤتمر . . حسنا . . إلى الجحيم يامقال مؤتمر (لاهاى) . . إن الإنسانية لن تقف لمجرد أن قلمى لم يخط مقالا عن هذا الموضوع .

حينما أخذت فى قراءة الفقرة الأولى . . وتذكرت ظروف قراءتى لهذه الفقرة للمرة الأولى فى حياتى . . وكانت وقتها كل الظروف مختلفة عن الآن كنت فى العشرين من عمرى وكنت متزوجا منذ عام ، وكنت أقطن فى لندن فى حى (أيرس كورت) الراقى وكان هذا المنزل هو الحى الرابع والمنزل الرابع الذى أقطن فيه خلال هذا العام وكانت صاحبة المنزل نصف مجنونة من أسوأ من قابلت أضف إلى ذلك أننى كنت متعطلا عن العمل ، وكنت أحصل على إعانة تلك التى تدفعها الحكومة الإنجليزية للعاطلين . وقد وجدت هذا الوضع مثيرا للأعصاب بنفس الدرجة التى تتمتع بها الوظائف التى كنت أحصل عليها فى المصانع منذ أن تزوجت . . وشعرت أن مدينة لندن ليست مدينة غريبة فقط ولكن ! ! بدت لى أنها غير واضحة المعالم والرؤيا بشكل ما .

وهنا فقط أدركت حقيقة إحساس هذا المؤلف (أوزبنسكي) حينما شعر بالغثيان نتيجة مقال عن مؤتمر مدينة (لاهاى) . . وأدركت أيضا ذلك السحر والغموض والاشتياق إلى عالم آخر . . أكثر عمقا ، ويحمل معانى أكثر إيجابية ، وأكثر عمقا مثل الكتب التي تتحدث عن السحر والغموض .

وهناك فى كتاب لويس — فرديناند تصنف ذلك العالم بأنه عالم التعفن والأكاذيب . . حتى وصل إلى درجة الانهيار والتحليل ، لاعليك إلى أن تنظر إلى الإعلانات فى أنفاق مترو المدن . . أو إلى عناوين الصحف الرئيسية اليومية . . لكي تكتشف أنه وصف واضح وصريح وصادق . . أكاذيب تلفها حضارة دون مثل عليا . . لاشك فى ذلك .

كان ذلك هو ماجعلنى أقرأ أوزبنسكي ، وكل تلك الكتب الأخرى عن السحر والنزعة الصوفية الغيبية التى استطعت أن أعثر عليها فى المكتبات ، وبين سطور الكتب الغريبة .

ولكنى لو سئلت الآن هل كنت أؤمن حرفيا بالسحر فيكون ردى هو : لا . . ولكن شعورى هو نوع من الخلق الخيالى الشعرى أنه رمزاً لذلك العالم الذى أتخيله أن يوجد، ولكن لن يوجد قط .

وبعبارة أخرى . . . إنه نوع من الأمانى التى حلت محل التفكير بالواقع .

ولكن الأمر يبدو لى الآن متلخصا فى عبارة واحدة هى :

لم يكن السحر هو (علم) الماضى . إنما السحر هو علم المستقبل إننى أؤمن بأن العقل الإنسانى قد بلغ نقطة فى ارتقائه وصعوده ، وتطوره أصبح فيها على وشك تنحينه قدرات جديدة . . قدرات كانت على الدوام قدرات أعظم بكثير مما نعتقد الآن .

قدرات مثل الإحساس بقدوم الخطر مقدما — أو ما اسميه بترقب

الأحداث والحاسة السادسة ، أو علم البصيرة وصنع المعجزات ولكن تلك القدرات كانت جزءاً من ميراث تكوينه الأبدى والغريزى ولكن الجنس البشرى انشغل بتطوير نوع آخر من القدرات الجمعية غير المرتبطة بالذهن ، والنتيجة هى تلك الحضارة الغربية المادية ، ولكن تلك القدرات لم تصمد ، وإنما اختفت لفترة تحت الأرض ، وقد أكملت العجلة الآن تلك الدورة الكاملة ، فبلغ الذهن حدوداً معينة لا يمكن التقدم إلى ماوراءها حتى يسترد بعضاً من القدرات المفقودة .

• • •

يصل بنا المجال الآن إلى السؤال التالى :

— ماهو مصدر أى معرفة ؟

والإجابة : إنه بشكل أساسى هو الاحتياج إلى القوة . ولكي نبرهن على صحة هذا الكلام ماعليك إلا أن تراقب وجه طفلك الصغير الذى تعلم مبكراً أن يفتح باباً . . بأن يدير أكرته لكي تدرك ماهو الغرض من المعرفة .

وفى القرن العشرين أصبحت القوة كلمة تثير الشكوك لأنها أصبحت ترتبط بفكرة القوة التى تفرض نفسها على ضعف الآخرين وهذا المعنى هو أقل تطبيقات كلمة القوة من حيث أهميتها . إن واحدة من الأساطير الأساسية عن السحر هى تلك التى تدور حول الساحر الباحث عن القوة السياسية . إنه يتلقى عدداً من التحذيرات فإذا أصر على هدفه ناله الدمار .

• • •

وعودة إلى كتابنا لاوزيينسكي ، وهو يصف بداية (البحث الخارق المعجز) وهو يقول :

(إننى تلميذ فى الصف الثانى وبدلا أن أقرأ كتابا عن قواعد وأصول اللغة اللاتينية . . وجدتنى اطالع كتاب عن التضبيقات لقد استعرته من أحد الطلبة الذين يكبروننى سناً ، ومن العجيب إنى أقرأ بشغف وحماس أكبر من صاحب الكتاب الذى هو مقررا عليه أصلا . . يتمالكنى الشعور بالنشوة أحيانا . . والرعب أحيانا أخرى أمام تلك الأسرار التى تتضح لى وتتكشف نتيجة إطلاعاتى فى سطوره وأرى كل ماحولى جدرانا وهى تتهاوى . . وآفاق لانهاية لها تتفتح أمامى فى جمال لايصدق . . ولأول مرة فى حياتى أرى فجراً جديداً مكونا (كلا) منتظما منسجما متناغما) .

وسوف أضرب بعض الأمثلة على تلك الآفاق التى لانهاية لبعدها منها على سبيل المثال قدرة الاهتداء إلى البيت فلقد اكتشف عالم يدعى (جرهان شميدت) الحقيقة التى تقول : أن كل سمكة من نوع الجريت والتى تعيش فى العالم الغربى فى فصل الخريف تشق تلك الأسماك الموجودة فى أوربا وشرق أمريكا طريقها هائمة كل الأنهر حتى تنتهى إلى بحر سارجسو فيما بين جزر الهند الغربية ، وجزر الأنهار الأزور ، وفى الربيع التالى تشق تلك السمكات الصغيرة التى ولدت فى البحر طريقها عائدة إلى المياه العذبة ، وبعد سنتين ، وحينما يصبح طولها بوصتين تعود تلك السمكات التى أكملت دورة نموها إلى البيت وحدها أما الأسماك من ذوات السلسلة الفقرية الكبيرة فتعود إلى أوربا ، أما الآباء والأمهات فيبقون فى البحر لكى يلقوا حتفهم .

* * *

وهناك مثال آخر . . . فى كتابى (معرفة الأدغال) . يصف كوربيت كيف كان يهم بأن يأخذ حمامه اليومى الذى تعود عليه حينما لاحظ أن قدميه يغطيهما ذلك اللون من التراب الأحمر . . ولم يدر السبب الذى جعله يسلك

ذلك الطريق المؤدى إلى منزله ، والذى يملأه التراب الأحمر دون أن يسلك الطريق السهل والنظيف . . ولكنه لم يستطع أن يتذكر أى سبب دفعه إلى أن يسير عبر هذا المكان . . غير أنه عاد فتذكر الظروف فى وقت لاحق . . كان قد سار حتى وصل إلى منطقة أدغال قريبة من بيته تغطيها الحشائش العالية ، التى يبلغ طولها أكثر من خمسة أمتار ، وحينما اقترب من هذه الحشائش فوجىء بنفسه يغير الطريق الآخر فسار عبر التراب الأحمر على الجانب الآخر من الطريق . . كان قد عبر الطريق إلى الجانب الأيمن ، ثم عاد فعبره إلى الجانب الأيسر مرة أخرى وهو مستمر فى سيره عائداً إلى منزله .

وأخذت كوربيت الحيرة . . . إنه لم يستطع أن يجد تفسيراً لهذا الحدث الذى جعله يعبر الطريق وهو غائب عن الوعى بهذا الشكل . . وفى اليوم التالى عاد فاكتشف السر الذى غاب عنه ، وأدركه عقله وحاسته . . لقد اكتشف على الجانب الأيسر من الطريق آثار نمر — ببطنه ومخالبه — كان راقداً وسط الحشائش .

وحدث كوربيت نفسه :

(لم تكن لدى النمر نية قتلى ، ولكن لو أننى فى لحظة عبررى به قد توقفت لكي أصغى لأى صوت من أصوات الأدغال ، أو لو أننى سعلت أو عطست ، أو قمت بأى حركة حتى لو ترددت فى السير لكان ذلك مدعاة لاستثارة أعصاب النمر ، وغضبه ولكان قد هاجمنى — إن حاسة اللاوعى عندى بالإضافة إلى حساسية الأدغال قد هبا لمساعدتى فأرشدانى إلى أن أسلك الطريق الآخر الذى يحمل الأمان وإنقاذ حياتى) .

* * *

والآن عزيزى القارىء . .

كيف تفسر تلك الحساسية ؟ ها هى الحاسة السادسة ؟ أم أن تفسيرها يحمل معنى أو شكلا من أشكال الملاحظة غير المنظورة ؟ فى حقيقة الامر أنه لا يوجد بينهما أي فرق حقيقى .

وحينما يستنتج المخبر السرى الإنجليزى المعروف شرلوك هولمز أن واطسون قد أرسل برقية ، وذلك لأنه لاحظ أن حذاءه قد علق به الطين . . معنى ذلك أنه قد خرج ، وعاد لتوه وأن أصبعه ملوثة ببقعة من الحبر ، وهذا يعنى أنه قد كتب شيئا ما ، فإن ذلك يصور ما نعنيه بالتفكير العلمى المنطقى الذى يرتكز على الاستدلال من المقدمات للوصول إلى النتيجة النهائية .

ولذلك فإنه من المحتمل أن نفس الأسباب التى دفعت كوربيت إلى عبور الطريق كانت منطقية بنفس القدر رغم كونها كامنة فى اللاوعى فربما كان قبل ساعة شروعه فى العودة إلى منزله قد سمع سعلة النمر فسجل ذهنه دون وعى اتجاه مسار صوتها . فإذا أضيفت إلى ذلك بعض العلامات الأخرى مثل غياب الطيور بالقرب من مكان اختفاءه ، وغصن شجرة مكسور يكون عقله اللاوعى قد وصل بالفعل إلى استنتاجاته بأفضل شكل من الأشكال مثل طريقة شرلوك هولمز .

ولكن إذا كان كوربيت قد ظل غير مدرك فى وعى لكل هذا ، إذن كلنا نتعامل مع « ملكة » ربما يكون اسمها الحاسة السادسة ، وهى ملكة غير واعية ستكون قدرتنا على الملاحظة الواعية بالمقارنة بها قدرات ضئيلة خالية من الدقة . إننا قد نجد صعوبة فى تفسير وفهم ذلك لأننا نستخدم عقلنا باعتباره أداة التعلم .

فمثلا إن قيادة سيارتى عملا طبيعيا بالنسبة لى حتى أصبح من الممكن تقريبا أن يسمى عملا غريزيا ، ولكن كان على أن أتعلم القيام (بشكل واع)

أولا . . . ولكن من السخف أن نظن أن الحمائم مثلا قد تعلمت الطير بالطريقة نفسها . . لم تكن هناك في هذه الحالة عملية تعلم واعية وإنما تمت تلك العملية على المستوى الفطري والغريزي لهذه الحمائم .

إننا قد نكون قادرين على تفسير غريزة ذهاب هذه الحمائم إلى بيوتها بمصطلحات يستطيع شرلوك هولمز أن يفهمها إلا أنه من المهم أن نتبين أن العقل اللاواعي يعمل بسرعة ودقة لا يستطيع وعينا أن يدرك منها شيئاً ، وأن ذلك العقل اللاواعي قد يكون مستخدماً نوعاً من المعلومات أكثر دقة ورهافة من أن تدركه حواسنا الغليظة .

وإلا فكيف على سبيل المثال نفسر دقة وقدرة الكاشف عن مكامن الماء بالعصا ؟ لقد رأيت رجلا يمسك في يده غصناً جافا وهو يسير حول الحقل الذي شيد منزلنا في وسطه ، وهو يقتفي مسار نبع خفي تحت الأرض فيميزه بوضوح ، ويميز بينه وبين أنبوب الماء الممتد المدفون .

(وقد عدنا بعد ذلك للاسترشاد بخرائط المنزل فوجدنا أنه كان دقيقاً دقة متناهية فيما يتعلق بأنبوب الماء) .

وقد أنكر الرجل اقتراحاً أن ذلك مرجعه إلى أن ملكته كانت ملكة (فوق طبيعية) ، وأصر على أنه يستطيع أن يعلم أي شخص كيف يكشف عن مكامن الماء بالعصا في أقل من ساعة .

وقال (إن كل إنسان يملك هذه الملكة ، وهي ليست إلا مسألة تمرين)

ومن هنا نستطيع أن نستنتج أنه ليست هناك حاجة إلى نضع خطاً مميزاً حاداً بين (الإحساس العادي) العلمي ، وبين القدرات التي يمكن أن تكون قد صنفت ذات مرة فوضعت بين القدرات (السحرية) ففي المملكة الحيوانية ليست القدرات (السحرية) سوى قدرات عادية شائعة أما الإنسان المتحضر

فقد نسى كل شىء من هــذه القدرات لأنها لم تعــد ضرورية لبقائه أو لمواجهته للحياة .

* * *

وانظر هذا المثال فى كتاب (النفسانيات) من تأليف بيتر هيركوس :

ففى خلال عام ١٩٤٣ كان هيركوس هــذا يعمل نقاشاً فى طلاء المنازل حينما سقط من فوق السلم المرتفع فانكسرت بعض عظــام جمجمته وحينما استيقظ وأفاق اكتشف أنه أصبح يمتلك نوعاً من البصيرة أو القــدرة الخفية والــكشف عنها .

لقد عرف مثلا من زملائه المرضى دون أن يقول له أحد شيئاً عن تاريخ إصابتهم بتلك الأمراض بل الأدهى من ذلك أن تلك البصيرة أو تلك القدرة كادت تــكلفه حياته فبينما هو يصافح مريضاً زميلا له على وشك الخروج من المستشفى عرف فجأة أن الرجــل عميل بريطانى وأن الجستابو سوف يغتاله فى خــلال يومين . ونتيجة لتنفيذه كاد رجال المقاومة الهولنديون أن يعدموه بتهمة الخيانة ، ولــكنه كان قادراً لحسن الحظ أن يقنعهم بأن لديه قــدرة على الاكتشاف للأشياء الخفية .

ولــكن نقطة القصور الأساسية فى هذه القدرة غير العادية كانت هى أنه لم يستطع العودة إلى ممارسة عمله القديم فى طلاء المنازل لأنه فقــد القدرة على التركيز وهاهو ذلك بقوله :

(لم يكن بوسعى أن أركز على أى شىء تلك الأيام ، فنى ظل لحظة كنت أبدأ فيها أي حديث طويل مع أى شخص كانت تلوح لى رؤيته مختلفة لــكل جوانب الحياة السابقة الخاصة به) .

إن عقله أصبح كالمذياع يلتقط الإشارات من محطات متنوعة فى لحظة

واحدة ، ومن وجهة النظر الاجتماعية أصبح لانفع منه حتى أدرك فكرة استخدام قدراته الغريبة فى عروض مسرحية .

وبالطريقة نفسها فإن ذلك ماجعل أوبنسكي يفضل أن يقرأ كتاباً عن السحر بدلا من كتابة مقال عن مؤتمر لاهاي يشير بذلك إلى شيء أكثر إيجابية من امتعاض الشاعر من السياسة .

فنى سن الرابعة عشر غرق أوبنسكي فى حالة الاستثارة للشوء من خلال كتاب فى الطبيعيات لأنه كان اتصالا مع عالم الأشياء غير الشخصية . ولكن العلم يمثل طريقا مسدوداً بالنسبة لشاب خيالى فهو لايريد أن ينتهى إلى ذلك العالم المنحصر بل كان ميالا إلى إن لم يكن هذا الاشتياق والحقيقة إلى الآفاق البعيدة نزعا من الأوهام الغريبة شيئا أشبه برقصة الفراشة حول الضوء .

بل إن تلك الرغبة هى التى دفعته فيما بعد إلى البحث بإصرار فى كتب تتحدث عن السحر وفى علوم الغيب بل وإلى التجول فى الشرق باحثا فى الأديرة عن المعرفة السرية ومن المصادفات أنه لم يقدر له أن يكتشف ماكان يبحث عنه إلا بعد أن عاد مرة أخرى إلى موسكو .

• • •

إن هذا الإحساس بالمعانى والذى لايبدو واضحا بالنسبة للنوع العادى من الوعى ، إنما يمارسه كل إنسان فى كل وقت أو آخر وقد يتجاهل المرء مثل هذه الإشارات الباقية العارضية حتى يدفعهـا حادث ما إلى بؤرة الانتباه والتركيز . إن جارك بريدن وهو عازف موسيقى يحكى لى تلك القصة وكيف أنه قد خرج ذات مساء بعـد أن اشترك فى إحدى الحفلات كعازف فاستقل سيارة أجرة إلى منزله وقد أخذ منه التعب كل مأخذ ولم يكن هناك سيارات كثيرة تعبر ذلك الطريق وفجأة خطر له أن العربة سوف تصطدم بعربة أخرى

قادمة من الطريق المقابل كان واثقا من هـذا الشعور حتى خيل إليه أن يحفز السائق من هذا الشعور ثم قرر أن نصيحته هذه ستبدو نوعا من البلاهة .

وماهى إلا لحظات حتى انطلقت السيارة التى كان يتوقعها وصدمت سيارته تماما مثلما توقع أن يحـدث وأرجع هو ذلك إلى تلك الومضة من الحاسة السادسة إلى الإجهاد البالغ حينما كان عقله قـد استرخى تماما لعملية الراحة وأصبح بوسع عقله اللاواعى أن يسمعه صوته .

إننا قد نرفض هذه القصة كنوع من المبالغة . . وقد نفسرها على أنهـا نوع من المصادفة . . ولـكن كلمة المصادفة لاتحل المشـكلة ، ذلك أن كل منا ـ وأكرر ـ قد لاحظ كيف يتـكرر وقوع المصادفات الخـالية من المعنى ، وقـد حـدث منـذ بضعة سنوات أن حاولت المداومة على تسجيل مذاكرتى عن المصادفات غير المتوقعة وأننى لأجد الآن مثالا نموذجيا متطابقا مع المثال السابق .

(كنت اقرأ كتاب هوكيته : حل شفرة النصب الحجرية) وكان الفصل الأخير يتحـدث عن الأحجار الضخمة المتصلة فى كاللانيش . وكان المؤلف يصفها بأن تلك الأحجار كانت بمثابة الآلة الحاسبة فى العصر الحجرى) .

أنهيت الـكتاب والتقت على الفور كتاب (الرياضيات ملـكة العلوم) وانفتح الـكتاب بين يدى عنـد الفصل السادس فوجدت نفسى أنظر إلى هامش فى أسفل الصفحة يتحـدث عن رياضيات العصر الحجرى . كانت مصادفة هـذا الهامش بعد فراغى انتوى من قراءة الفصل المـكتوب عن كالانيش لاتعدو نسبتها واحد فى المليون : ولـكنه حدث .

وفى ليلة أخرى حينما كنت اقرأ تقريراً عن جريمة قتل إحدى الفتيات فى بلدة موهير بمقاطعة جالاوار . . ولا حظت أن الضحية كانت تدرس فى

كلية ماري واشنطون في أمريكا بولاية فرجينيا حيث ألقيت محاضرة منذ فترة وجيزة وبعد عشر دقائق فتحت كتاب الملخصات التي وضعها واندا لأعمال هيجل فرأيت أن المقدمة كانت بقلم كيرت ليدبكر من كلية ماري واشنطون)

ليس هناك ما يسبب الإزعاج الشديد في هذه المصادفات باستثناء كثرة احتمالات عدم حدوثها أو حدوث ما يناقضها .

إن القول بأن مثل تلك الأمور ليست مصادفات بصورة كاملة ليس هو القول بأن (القوى الخفية) كانت تحاول أن تجتذب انتباهي إلى رياضيات العصر الحجري أو كلية ماري واشنطون ربما كان كل في التطبيق نوعاً من الحاسة السادسة الحيوية تنتمي إلى نفس النوع الذي تنتمي إليه غريزة الاهتداء إلى البيت عند أسماك الجريث .

وكلما زاد فيما يبدو حدوث تلك المصادفات النافعة كلما زاد انغماس العقل واهتمامه بموضوع ما كما لو كان للعقل الصحيح نوع من أجهزة الرادار . . . وكما أن التشويش أو الانقباض سيمنعان جهاز الرادار من أداء عمله سيمنعان المرء من تركيز انتباهه إلى بعد فوات الوقت .

وفيما يلي سطور لذلك الكلام من تقرير كتبه والد ضحيته عن جريمة قتل حدثت لإبنته يقول :

(كان يوماً بارداً عاصفاً ، تهب فيه الرياح ، وتغير الطقس فيه أكثر من مرة وهطل المطر فيه بغزارة وكنت أقف أنا وزوجتي أمام مدخل المنزل الخارجي لنا نراقب عاملي ميناء وهما يحاولان إنجاز عملهما في وسط هذا الجو العاصف .

وفجأة قالت زوجتي :

— أين ابنتي فيونا ؟

ودن سبب ما معقول وواضح . . دون حسبان . . أحس كلانا بإحساس جارف وعارم أن ابنتنا قد وقع لها مكروه . . حتى جاءت تلك اللحظة التي ذكرت فيها اسم الطفلة ، وكان الوالدان مشغولين بأشياء أخرى تماماً . ولم يلاحظ كل منهما إشارات اللاوعي المنذرة بالخطر وحينما سألت الزوجة : أين فيونا ؟ سمعت بالتأكيد تلك الإشـارات بوضوح مثل صوت التليفون الذي لا يمكن أن يسمع إلا إذا أطفىء التليفزيون وبالفعل كانت الطفلة ضحية لقاتل

* * *

وقد مررت بتجربتين من الاستجابة التلقائية مع شخص آخر سأحاول أن أسردهما هنا :

فقد حـدث أن انفصلت عن زوجتي الأولى لبضعة أشهر رغم ما يجمعنا من عاطفة وحب قويين ، وذات مساء بينما أنا جالس في إحـدى مقاهي مدينة لندن إذا شعرت بالقيء والغثيان فحملت إلى المستشفى وشخص الطبيب المعالج الحالة في ذلك الوقت بأنها نوع من التسمم الغذائي رغم أنني قد تناولت الطعام نفسه الذي تناوله معي بعض العاملين وكانوا جميعاً في حالة جيدة تماماً .

ومع ذلك فقد علمت فيما بعد ذلك بأيام أن زوجتي كانت تعاني من حالة تسمم غذائي بعد أن تناولت طعام فاسد من علبة لحوم محفوظة في ذات الوقت الذي كنت أتقيأ فيه أنا . . وكانت هي قـد بدأت عليها نفس الأعراض في الوقت نفسه الذي ظهرت على أعراض التسمم !!

والحادثة الثانية :

في أحـد الأعوام كنت قد ألقيت محاضرة في جامعة سانت أندروز في

اسكتلندا وكنت أقود سيارتى عائداً إلى بلدة سكاى التى أقطن فيها وكان الفرح والابتهاج يغمرانى حينما بدأت رحلتى . . حتى الطقس شاركنى تلك الحالة من الفرح فأضحى جميلا صحواً . . ولكن بعد مضى نصف الساعة شعرت بنوع من الكآبة التدريجية وانقبـاض غير متوقع لم أعرف له سبباً واضحاً . . حتى وصلت إلى منزلى فسألت زوجتى عما بها فأجابتنى بأنها تعانى من ألم فى أسنانها منذ غادرت سانت اندروز .

ولسوء الحظ كان اليوم سبت والوقت متأخراً فلم نعثر على طبيب أسنان يعالجها وفى صباح الأحد أصبحت لثة زوجتى متورمة بعض الشىء واستمر انقباضى طول اليوم وأصبح الإثنين فأخذت ابنتى لنتجول قليلا فى المدينة .. وفجأة ارتفع عنى إحساس الكآبة المقبضة وعاودنى فرحى الذى كنت عليه منذ يومين فقلت لابنتى :

— يبدو أن والدتك قد خلعت ضرسها المؤلم لتوها ؟

وعدنا إلى المنزل لنجد زوجتى بالفعل قد خلعت ذلك الضرس المؤلم .

فى تلك الأمثلة التى ذكرتها آنفاً عن ذلك الشعور والاستجابة التلقائية وهى تسمى حالات الاستجابة التلقائية أى انتقال الأفكار والمشاعر دون اتصال مباشر . فإن عملية الانتقال كانت غير واعية وآلية مثل تحويل خطوط التليفون .

ويبعث هذا التأمل فى احتمال أن تكون الكراهية قابلة للانتقال بنفس الطريقة غير الواعية . .

وأن تجربتى الخاصة فى هذا الشأن تجربة مشكوكا فى أمرها ، وأنا لا أذكرها إلا بهدف استكمال تلك التجارب الشخصية .

فقبل أن أنتقل إلى كينسنجتون كنت وزوجتى نقيم فى مدينة ويمبلدون فى منزل رجل عجوز كان يعانى مرضا من الربو وكانت زوجتى تقوم بتمريضه وخلال الستة أشهر التى عشناها فى هـذا المنزل كان الرجل أكثر ميلا للشجار والعراك وتزايدت صعوبة التعامل معه حتى أصبح يظللنا ذلك الجو من التوتر . وانتقل هذا الإحساس منى إلى أمنية أن يموت هذا الرجل وحدث بالفعل أن عدت إلى منزلى أثر عطلة أسبوعية لـكي نجد أن الرجل قـد لقى حتفه أثر نوبة قلبية .

وقد كتب بوير فى مذكراته الخاصة به :

(إن البراهين على هذا كثيرة . . وأنه يمتلك نوعاً من العين الشريرة التى تنزل الأذى بمن يأذوه) .

إن حالة هذا المؤلف بريز تثير الاهتمام بسبب طبيعته المتميزة لعبقريته ، وهو صاحب المؤلفات الرائعة منها شلالات نياجرا وتلك العظمة المتدفقة التى تميزت بها هذه الرواية .

وربما كانت قصـة (العظيمة جلاستو نبرى) رواية فريدة فى نوعها ، ويكفى أن اذكر لك الفقرة الأولى منها والتى يقول فيها :

(فى ذات ظهيرة من ذات يوم خامس من احد شهور حدث أن تحركت على بعد نصف ذراع من محطة السكة رغم ان ذلك حدث وراء ابعد بحيرات ذلك الفراغ الهائل . . وسط اقصى المجموعات النجمية . . حدث ان تحركت إحدى تلك الموجات اللانهائية وسط الصمت المطبق . . . تحركت عبر تلك اللحظة اهتزازه قوية . . . حركة . . اكثر دقة من أن توصف بالمغناطيسية واكثرها ضآلة من ان توصف بالروحانية) .

ارايت تلك اللوحة التجريدية التي يصفها بويز .. إن تلك الفئة تمنح

انطباعاً زائفاً عن كتاب يمكن أن يكون أى شىء ألا يكون تجريدياً ، ولكن هذا الوصف يكشف أيضاً عن رغبة بويز فى النظر إلى شخصياته من وجهة نظر كونية تبدو فيها الطحالب النامية فى بركة آسنة والبرقات الدودية فى شجرة عفنة فى مثل أهمية الشخصيات الإنسانية .

ولا يخفى ظن القارىء مايريد بويز أن يصل إليه بأن هنـاك ثمة نوعاً من الأثير النفسى يحمل الاهتزازات الوجدانية كلها مثلما يفترض أن الأثير الضوئى يحمل مويجات الضوء .

ولكن الأمر الذى يبدو بالغ الأهمية فى بويز أنه يتعمد أن يأخـذ على عاتقه مسئولية غرس (التعدد العقلى) أن القـدرة على الخروج من شخصيته الخاصة به ، لـكي يدخل فى شخصية غيره من الناس . بل الأشياء ، وكانت هـذه محاولة لدفع عقله بنعومة ويسر إلى حالة من السكون المتطابق مع ذلك الأثير النفسى ، أى مع العالم الموضوعى الذى يحيط بنا .

ولقد مر الناس جميعهم بتجربة الإحساس بالغثيان . ثم التفـكير فى شىء آخر : . ثم الإحساس باختفاء ذلك الغثيان .

* * *

ونصل إلى (الشاعر وورد زورث) مثله مثل بويز قـد حقق العبور إلى ما وراء شخصيته الخاصة ، وحقق اتصالا مع ذلك الأثير النفسى ، وفى مقطع مشهور من قصيدة استهلال يقول :

عقلى ...

راح يعمل بإحساس خال من التصميم ،

إحساس بالأشكال المجهولة للوجود ، وفوق أفـكارى

انبسطت ظلمة .. لا . إنى أدعوها الوحدة ..

أو هجران .. هجران المألوف كله ...

لا صور الأشجار البهيجة ظلت ...

ولا صورة السماء الزرقاء .. ولا أمواج البحر ...

ولا حتى ألوان الحقول الخضراء ..

لم يبق إلا البشر .. الأحياء .. يتحركون ببطء ..

فى وضح النهار .. فكانت هم أحلامى ..

* * *

إنه يصف رحلة فى قارب البحر فى منتصف الليل .. وترك قمة منتصبة هائلة فى عقله إنطباعا عميقا .. وهو يصف شعوره بعد ذلك وهناك نبع فى داخله كما تلت ذلك الإحساس فقال :

(ذلك الروح الحارس الغلاب : الذى يمكن مثلما أشرت لكم من قبل أن يلمس فى مكان ما من طبيعتى ، هو الروح الذى يملك حينما يلمس قوة خفية ... تدرك بعدها الشعور بالابتهاج والجذل) .

وهناك أسباب تبرر ذلك الاعتقاد بأن بويز لم يفهم دوافع تلك القوة ، وطريقة عملها .. إذ هناك قصة غريبة نسبت إلى بويز وصديقه درايزر :

قال درايزر :

ـ (كنت أعيش فى نيويورك فى الشارع السابع والعشرين من الحى الغربى ، وكان بويز يأتى ليتناول طعام غذائه معى من وقت لآخر ، وكان يقطن فى بلدة صغيرة تبعد أكثر من ثلاثين ميلا من نيويورك ، وكان من عادته أن أن يستقل القطار لكي يعود إلى منزله مبكراً ، وذات يوم وبعد محادثة طويلة دارت عقب تناول طعام الغذاء نظر بويز فى ساعته ، وقال فى عجلة إنه قد

تأخر وعليه أن يرحل فوراً قبل أن يفوته القطار وقبل أن يرحل نظر إلى درايزر وقال :

— (سوف أحضر إليك هنا فى المساء ... وسوف ترانى) .

وقال درايزر وهو يضحك :

— هل ستتحول إلى شبح .. أم أنك تملك مفتاحـا لمنزلى وأنا لا أدرى ذلك ؟ .

وضحك وهو يطارح سؤاله لأنه لم يكن يظن أو يصدق أن بويز يعنى ما يقول ولكن بويز قال :

— لا أعرف أنى قد أعود فى شكل من الأشكال .. ربما روح ربما شبح من نور .. سأحضر وكفى .

ويتم درايزر باقى القصة إنه لم تكن هناك فى تلك المقابلة أى حديث حول الأشباح ، أو الرؤيا ، وإنما دار الحديث أساسا حول دور النشر الأمريكية ، وعن أساليبهم فى العمل ، وقال إنه لم يفكر أبدا فى عودة بويز ، وإنما نسى ذلك الأمر وجلس يقرأ لمدة ساعتين وحيداً ثم رفع عينيه فوجد شبح بويز فجأة .. نفس الملامح .. نفس الملابس الفضفاضة التى يرتديها . : وكان ذلك الشبح نوع من الوميض الأبيض الشاحب .

ونهض درايزر مسرعا وخطا خطوات نحو ذلك الشبح .. وهو يقول :

— حسنا ياجون لقد برزت بوعدك .. إنك هنا فاظهر واحكي لى كيف وكيف فعلت ذلك ؟

ولكن الشبح لم يجبه وانصرف درايزر على بعد ثلاثة أقدام منه وحالما عاد درايزر إلى طبيعته بعد تلك المفاجأة من الدهشة أسرع إلى سماعة التليفون

وطلب رقم جون بويز فى منزله بالريف ولهول المفاجأة كان المتكلم هو نفسه بويز وتعرف درايزر على صوته .

وبعد أن استمع بويز إلى قصة الشبح من درايزر علق على ذلك بقوله :

— لقد قلت لك سأكون عندك فلا تندهش .

وقال درايزر إنه لم يستطع أن يحصل على أى تفسير من بويز الذى رفض أن نناقش الموضوع مع درايزر من وجهة النظر .

ولكن قد يثور تساؤل ..

لماذا كان ينبغى على بويز أن يرفض مناقشة تلك المسألة من أى وجهة النظر ؟ هل لأنه لم تكن لديه الفكرة عن كيفية قيامه بهذا العمل أم ماذا ؟

لقد اعتمدت المسألة على طبيعة العلاقة النفسية بين درايزر وبينه وهو يقول :

(كان من عادتى أن أشعر بوعى إنطلاق النفسية العلاقة من دفقات من الجاذبية المغناطيسية بينى وبين درايزر ... الأمر الذى يبدو نوعاً بعيداً عن مجال الكيمياء العضوية ، وراجعا إلى تدخل قوة غيبية غامضة من نوع ما) .

ومن المحتمل أن يكون ظهور الشبح مقصوراً على عقل درايزر فقط ، فلو كان هناك أحداً معه داخل الحجرة ، فمن المحتمل أنه كان لن يراه .

إننى قد أكون متناقضا مع نفسى بالقول بأن بويز لم تكن لديه فكرة عن كيفية إظهار شبحه ، ولكننى فى الحق لا أناقض نفسى ، ذلك أننا نناقش باهتمام المسألة الأساسية وهى مسألة السيطرة الواعية على العقل اللاواعى .

* * *

(يمكن للانعكاسات العاطفية الحادة أيضاً أن تستثير الملكات النفسية)

وتقدم لنا حالة ستريدبرج ذلك الكاتب المسرحى مثيراً الاهتمام فقد تسبب فشل زواجه الثانى فى تفجير أزمة عاطفية اقترب فى أثنائها من الجنون . . لقد عانى من تلك الأوهام ، والتصورات . . والاضطهاد وصفها فى كتابه : « الجحيم » ، وكانت النتيجة تطوراً لم يسعى هو إليه ، ولم يحسب حسابه القدرات النفسية التى تتطابق مع حالة بيتر هيركوز . . يصف واقعة عارضة من الظهور الشبحى فيقول :

فى خريف عام ١٨٩٥ كنت أمر بفترة مرض خطير فى باريس حينما تغلب على الحنين إلى أن أموت وسط عائلتى وأهلى ، وفجأة رأيت منزلى من الداخل وللحظة نسيت ما كان يحيط بى بالفعل ... لأننى كنت قد فقدت الوعى بالمكان الذى كنت فيه .. كنت حقاً وراء البيانو مثلما ظهرت .. ولم يكن لخيال السيدة العجوز دخل فى المسألة على الإطلاق .. ولكن لأنها كانت تدرك هذا النوع من حالات الظهور الشبحى . وكانت تعرف مغزاها فإنها رأت فى ظهورى هناك إنذاراً بالموت .. فكتبت خطاً بالتساؤل إن كنت مريضا ؟ .

* * *

إن الذى يهمنا فى سرد هذا المثال هو أن قدرة ستريدبرج على الظهور الشبحى كانت مرتبطة بالخيال .. لقد تخيل بوضوح الحجرة التى كانت أم زوجته تجلس عليها لتعزف البيانو .. وتمكنت كثافة رؤياه الخيالية بشكل ما من مرضه فى داخل الحجرة الحقيقية ... إذن فهو استخدام ذلك الأثير النفسى كما لو كان قد استخدم التليفون أو دائرة تليفزيونية مغلقة .

وتحليلنا إنه يمكننا بالطبع أن نتجاهل الأمر كله ... باعتباره من صنع خياله الذى كان مستثاراً تحت وطأة الضغط العاطفى ومن جانب آخر إن هذا

الحدث متطابق مع نظرية (الملكات النفسية) التى حاولت أن ألخصها ، والتى تحمل طابع الحقيقة .

مرة ثانية ... علينا أن نقول أنه كان مجتهداً — جسدياً وعاطفياً — كان يدفع نفسه فيصل إلى أقصى حدود طاقته حينما كان يستخدم قدراته على الإقناع ، وإن الأمر يبدو على هذا النحو الذى يقرره فى كتابه بقوله :

(فى الأزمات العظمى من الحياة حينما يصبح الوجود ذاته مهدداً تكتسب الروح قدرات علوية منزلة) .

* * *

منذ بضع سنوات أجرى بعض العلماء الأمريكان تجربة كلاسيكية على قطة صغيرة .. ربط سلك بالعصب الممتد بين أذن القطة ورأسها وربط الطرف الآخر من السلك بمولد كهربائى صغير ينتج نبضات كهربائية منتظمة .

وحينما كان ينطلق صوت مرتفع بالقرب من أذن القطة كانت إبرة المسجل تقفز بعنف . ثم وضع قفص ملىء بالفئران أمام القطة وراحت هى ترقب الفئران بيقظة واهتمام . ثم أطلق نفس الصوت المرتفع بالقرب من أذنها .. ولكن الإبرة لم تتحرك .

كانت القطة شديدة الاهتمام والتركيز بالفئران حتى أنها تجاهلت الصوت وبشكل آخر فإن التفسير العلمى لهذه الظاهرة هو أنها أطفأت أو أوقفت تشغيل الرابطة الجسدية المادية بين الأذن ورأسها .. لقد اختارت أن تركز على شىء آخر :

تمتلك كل المخلوقات الحية تلك القدرة على التركيز على شىء يثير اهتمامها ثم تطفىء كل شىء آخر ونحن كلنا نعرف هذا .. ولكن الشىء الذى لم ندركه بعد هو القدرة غير العادية التى تمتلكها صورة مقدراتنا على التركيز على جوانب

بعينها من الحقيقة لهـذه القدرة هى (الملـكة س) وهى ببساطة تلك القدرة الخفية التى تمتلكها الـكائنات الإنسانية فتصل بهـا إلى ماوراء الحـاضر .. ولـكننا فى هذه اللحظة لا نـكاد نستفيد منها بشىء غير واعين بإمكانياتها الـكبيرة .

١ — الأمر يحتاج لطرح هذا السؤال :

ما هى وظيفة الوعى ؟

حينما تكون غارقا فى النـــوم لا تكون مالـكا لأى وعى .. وحينما تـكون متعصبا جداً فإن وعيك يكون مثل ضوء خافت لا يكاد يضئ شيئا .. وحينما تـكون كامل يقظتك فإن الوعى يبـدو كما لو كانت قوة إضاءته تزداد مدته ووظيفته هو أن يصل إلى الحقيقة وأن يمتـد إلى داخلها .. وهكذا يعيننا على أن نتصرف فيها وأن نغيرها ، أو أن نبدلها .

ومن الواضح أن هدفنا الرئيسى ينبغى أن يكون زيادة قوة إضاءة هـذا الوعى فحينما تكون إضاءة منخفضة تصبح الحقيقة (غير حقيقية) وحينما تزداد قوة تصبح الحقيقة أكثر حقيقية وهذه هى (الملكة س) التى تحدثنا عنها .

إن واحدا من أوضح أمثلة أعمال (الملـكة س) يصفه أرنولد توينبى فى المجلد العاشر من كتابه (دراسـة للتاريخ) حيث يصف كيف قرر أن يكتب هذا العمل أنه يتحدث عن إحساس بالحقيقة الذى ينتاب المؤرخين فجأة .

(إن كانت هذه الدراسة قد عاش تجربة صغيرة حقيقية من هـذا النوع فى اليوم الثالث والعشرين من مايو ١٩١٣ بينما كان جالسا يروح عن نفسه على قمة قلعة ميسترا بينما الجدار الأصم لجبل تايجيتوس أمامه إلى حيث كان يحلق ببصره .. وكان سهل أسبرطة المفتوح يمتد مترامياً فى الجـانب المقابل من حيث كان هدفه قد جاء فى ذلك الصباح ..

لم تكن التجربة الحسية التى أثارت خياله التاريخى صوت ترانيم لأغنيات شعائر دينية إنما كان للنظر مشكلا الأطلال شق وسطها طريقه صعداً إلى القمة وقد كان هذا المشهد مرعباً مروعاً ، ذلك أنه فى مدينة الجنيات المدمرة تلك ، كان الزمن قد وقف ساكنا منذ ذلك الربيع عن عام ١٨٢١ بعد ميلاد المسيح ففى صباح يوم من أيام شهر إبريل ومن قلب زرقة السماء أنهم سيل أبناء الجبال المتوحشين من فوق جبل مانى فامتلكوها ، وأجبر أهلها على الفرار طلبا للنجاة بحياتهم ، وسلبها وذبحوا فى قراهم ، ودمرت منازلها المهجورة ، وتركت منازلها مقفرة منذ ذلك اليوم إلى هذا اليوم ..)

هذه الصفحة التى كتبها توينبي من بين صفحات كتبها توضح عمـــل (الملـكة س) وهى تبرز النقطة التى كنت أحاول صياغتها

فحين أكون نصف نائم فإن إحساس بالواقع يكون متصـدراً على نفسى مقيداً بها وبما يحيط بى بشكل مباشر .. وكلما زودت يقظة كلما طال امتداده ولكن ماندعوه (الوعى المستيقظ) لايكون فى المادة أفضل بكثير من النوم . إننا نظل غارقين فى حلم يقظة بليد وسلبى .. ولكن هـــذا يرجع إلى ثمة حدوداً طبيعية للوعى .. وإنما هو يرجع فقط إلى أننا نظل غير مدركين لأن الوعى يمكن أن يمتد .

(أن الملـكة س) ليست هى (الحاسة السادسة) وإنما هى قدرة عادية من قدرات الوعى ولابد أن يكون واضحا ممـا سبق أنها هى المفتاح : ليس فقط لما يدعى بالتجربة الغيبية . وإنما لمجموع مستقبل ارتقاء الجنس البشرى :

الفصل الثانى

الجانب المظلم من القمر

صادف أن قابلت الشاعر روبرت جريفز فى بيته بمدينة ماجوركا وتناقشنا فى مسائل علوم الغيب .. وكان من ضمن ماقاله الشاعر الأديب :

— إن القـدرات الغيبية ليست بالقدرة التى نتخيلها ، فهناك نسبة ٥ ./. يمتلكها بشكل أو بآخر .

وكانت تلك الملاحظـة من الشاعر غير متوقعة وظهر رد فعلها على إن كل ما أثار اهتمامى إلى درجة كبيرة هو الرقم الدقيق ٥ بالمائة .. إن هذا هو رقم (الأقلية المهيمنة) بين كائنات البشر جميعاً ..

فى السنوات الأولى من أوائل هـــذا القرن سأل الأديب برنارد شو المستـكشف العبقرى ستانلى عن عـدد الأشخاص بين رجاله الذين استطاعوا أن يقودوا جماعات الاستكشاف حينما كان ستانلى مريضاً وملازم الفراش قال ستانلى :

— وكانت نسبتهم واحد بين كل عشرين .

وقال شو :

— هل هذه نسبة تحديدية أم بالتقريب .

ورد ستانلى :

— لا بل .. بالتحديد .

وقد أعاد الصينيون اكتشاف مسألة نسبة الأقلية المهيمنة فى خلال حربهم الكورية .. فرغبة منهم فى الاقتصاد فى القوة البشرية قرروا أن يقسموا أسراهم من الأمريكيين إلى مجموعتين . القادرين على التفكير فى مشروعات وتنفيذها ، والسلبيين الذين لا يستطيعون اتخاذ القرارت وتنفيذها .

وسرعان ما اكتشفوا أن الجنود القادرين على التفكير والتنفيذ كانوا بالتحديد واحداً من بين كل عشرين ٥ بالمائة وحينما أبعد الخمسة بالمائة عن بقية المجموعة فكان من الممكن ترك الآخرين دون حراسة على الإطلاق تقريبا .

ويثور التساؤل الهام :

إلى أى مدى يمكن أن يكون أفراد الأقلية المهيمنة أو نسبة الخمسة بالمائة هم المهيمنين من الناحية البيولوجية هم الشىء نفسه الذى تعنية النسبة من أصحاب القدرات الغيبية ، الذين أشار إليهم جريفز ؟ من المؤكد أن هناك أسبابا عديدة تدفع إلى الزعم بتطابق المجموعتين نفس المجتمعات البدائية يكون الزعماء والقادة أيضا الكهنة والسحرة والرجال الذين قادوا جماعات الصيد لا بد أنهم كانوا — مرة أخرى — هم الذين امتلكوا درجة عالية من (حساسية الأدغال) .

ما هى القدرة التى تميز القائد الزعيم ؟ .

والإجابة أنها القدرة على التركيز ، تركيز الإرادة فى لحظات الطوارىء والخطر وهذا معناه القول بأنها شكل من أشكال (الملكة س) .

باختصار : يبدو من المحتمل أن ظل الناس يملكون أثراً باقيا من (القوى الغيبية) ، القوى التى تنبع من المستويات الأكثر عمقا لحيويتهم تلك التى أطلق عليها جرانفيل باركر الكاتب المسرحي إسم (الحياة السرية) .

إن أفراد نسبة الخمسة بالمائة الهيمنين ماهرون فى توجية تلك القوى وترويضها أكثر من معظم الناس ، إن السحرة والأطباء الذين يستخدمون السحر والعرافين والوسطاء كانوا من أعضاء نسبة الخمسة بالمائة للهيمنين الذين طوروا قدراتهم الطبيعية .

ويتدفق ضوء جانبى هام آخر على هـذا الموضوع عن طريق البحث الحديث حول التنويم المغناطيسى الذى يبعث على النعاس العميق ، وقد وصف جانب منه فى كتابه : العقل والجسد الذى وضعه الدكتور ستيفن بلاك .

ويشير الدكتور بلاك إلى أن معظم الناس يمكن تنويمهم مغناطيسيا إذ هم تعاونوا فى هـذا الاتجاه — إن الشخص الذى لا يقبل التنويم المغناطيسى قد يكون مريضا عقليا — ولكن عدداً ضئيلا فقط من الناس هم القابلون للنعاس العميق، ومن الغريب تماما أن عددهم الدقيق يبلغ نسبة خمسة بالمائة من البشر .

أما جريفز فإنه أقل اهتماما بالسحرة وأصحاب الأسرار الباطنة من الشعراء ويقول فى مقالة كتبها :

(لست الآن من أصحاب الأسرار الباطنة التى انجذب بإصرار عمليات السحر والروحانية واليوجا ، وقراءة المستقبل والكتابة الآرلية وما إلى ذلك) .

إن ما توصل إليه جريفز بعد عناء البحث وسلسلة من المصادفات هو أن ربة القمر الثلاثية للتكوين فى كتابه (الربة البيضاء) هى رمزاً عالميا فى الشعر والديانات الأسطورية فى العصر الإغريقى والرومانى بل والإفريقى .

كانت ربة القمر هى ربة السحر ، ربة اللاوعى ، ربة الإلهام الشعرى وقد تم صبغ الديانة الأسطورية الإنسانية بالصيغة (الشمسية) ثم حدث فى الغرب أن تم تنفيذها

ويظهر أثر ذلك في وصفه كيف أخذته الأفكار واسلطت عليه الهواجس المتعلقة بالربة البيضاء وشجرتها المقدسة ، شجرة الألدر في عام ١٩٤٤ حينما كتب رواية (جاسون آلهـــة الحرب) إذ كان على كتفية في ذلك الوقت صندوق نحاس صغير نقش على غطائه رسم غريب وفوق هـذا الصندوق كان يضع تمثالا نحاسيا صغير لرجل أحدب يعزفا على آلة الفلوت .

وبعد عشر سنوات اكتشف أن الرسم الموجود على غطاء الصندوق كان يمثل ربة القمر الثلاثية لتكوين الإفريقية المسماه (نجام) وأن الرجل الأحدب مكان رسول الملكة أم في دولة إفريقية كانت تزعم إنهـــا من عـل (نجام) مباشرة .

وإذ عاد إلى ماجوركا في عام ١٩٤٦ اكتشف أن جاراً له من هواة جمع التحف قد مات وأوصى له بمجموعة من الأشياء الصغيرة التي كان يقتنيها كان من ضمنها تمثالا لكاهن من كهنة (أركامو) وهـذا بديل القربان البشري الذي كان يقدم للربة البيضاء .

واستمرت المصادفات العجيبة في الحدوث له حتى بعد أن انتهى الكتاب استمرت أيضا فقد مات أول من رفض من الناشرين بسبب هبوط مفاجيء في القلب إصابة بعـد الرفض بقليل رغم ما كان يتمتع به من صحة وحيوية شديدة أثارت إعجاب الجميع من قبل .

ورفض ناشر آخر بخطاب وقح اللهجة يقول فيه أنه لا يستطيع أن يعرف له رأسا من ذنب وتشكك في قدرة أي شخص على أن يستخلص منه شيئا معقولا .. ولكن هـذا الناشر ارتدى بعـد قليل ملابس نسائية داخلية وشنق نفسه على شجرة في حديقته .

ويعلل جريفز على ذلك بأن الناشر الذي قبل طبع هـذا الكتاب وهو

(الشاعر ت . س . اليوت) لم يسترد نقوده فحسب تكلفة الطبع بل منح وسام الاستحقاق على ضوء مانشر فى هذا الكتاب .

ويقول جريفز ...

(إن سلسلة الأحداث التى تزيد طبيعتها عن طبيعة المصادفات تحدث كثيراً فى حياتى حتى إننى أحرم على نفسى ... دعوه، ظواهر شبحية جارفة للطبيعة ، بل لابد لى أن أصفها بأنها من ذلك النوع من العادة) بل إننى أرجعها إلى المصادفة .. أننى أنكر أن هناك صلة ما بين تمثال الأحدب الموجود عندى وبين نفسى حتى إنى لا أذكر أن هذا التمثال قد لفت نظرى فى أى وقت من الأوقات . حقا لقد خضعت فكرة الربة البيضاء لشىء كبير من تفكير وإحساس وأنى أكتب عن تواطئها القبلية فى سياق (رواية جيسون) ولكنى لم أعرف أن الصندوق كان لتكريم الربة (نجام) أو أن الإغريق أو الاثينيون الأوائل كانوا عنصريا لمرتبطين بشعب نجام ولم أكن أعرف أن نجام نفسها كانت ربة القمر واشتركت فى ظل صفاتها مع الربة البيضاء عند الإغريق وفى أوربا الغربية .

لم أكن أعرف إلا ماقاله هيرودتس الحكيم من أن الربة الإغريقية أثينا كانت نفسها هى الربة الليبية (نايث) والتى كان أحد أسمائها هو اسم (لاميا) .

ونصل هنا إلى تقييمنا إلى كتاب (الربة البيضاء) .

إنه كتاب بالغ التعقيد أو (الصعوبة) ومرهق للقارىء العادى وغير العادى أيضا .. ولكننا لانستطيع أن نخفى إعجابنا بتلك الخيوط المتشابكة وسرعان مايكتشف القارىء أن جريفز لايبالغ حينما يقول أن أسراراً قديمة أصبحت (تلقى عليه) أو تملى عليه .

أنه كان قد وقع على ذلك النسق العرض الكامل الذى يماثل فى تعقيده

علم الطبيعة الحديث الذى تنتمى إليه افتراضاته الأساسية إلى القوى القمرية بأكثر مما تنتمى إليه إلى القوى الشمسية .

وقد تم إنجاز كثير من طريق استخدام الحدس الشعري لاقتفاء أثر مفاتيح عبر ديانات أسطورية لا صلة واضحة تربط بينها .

ولقد علق الشاعر واندال باربل على كتابه الربة البيضاء بقوله :

(إن هذا الكتاب ليس سوى تجسيد عقلى لعبادة جريفز وللإسراف الذى فى ميله لتقدير النساء على حساب الرجال وهو يعترف بهذا فى إحدى قصائده .

ومن الحق أنه لاينبغى أن يكون هناك صراع بين شطرى المعرفة (القمرى) و (الشمسى) لأن كل ما نعرفه لاينبغى أن يكون صادقة أو زائفة وقد يقول المرء أن الصراع ينشأ بين النزعة القطعية الجامدة الضيقة لطرق التفكير العلمى

ويعبر أوزينسكي عن هذه الفكرة بوضوح فى قوله :

ولكن توجد هنا فى هذه الكتب نكهة ورائحة غريبة بما يحتله من حقائق وإننى لأشعر بها بوجه خاص بقوة لأننى حبست نفسها فى نفسى لمدة طويلة أصبحت أشعر بهـا فى ذاتى . وسجنت نفسى داخل قيود مادية مصطنعة وأنكرت على نفسى كل الاحترام عن الأشياء التى لا يمكن أن تقوم بداخل تلك القيود لقد كنت أعيش داخل عالم مجفف ترابى صلب مع عدد لانهائى من تعدد الموجات المفروضة على تفكيره .

وفجأة حطمت تلك الكتب الغريبة كل الجدران من حولى وأجعلتنى أنكر وأحلم بأشياء ظلت لمدة طويلة أخشى أن أفكر بها أو أن أحلم بها .. فجأة . . بدت لى المبانى الحقيقية لحكايات الجنيات القديمات ، وأصبحت الغابات والجبال والأنهار كائنات حية وهى الصور والكتب .. وامتلأ

ليلى بالحياة الغامضة وباهتمام جديد وتوقعات جديدة بدأت أحلم ثانية بالسفر البعيد وتذكرت الكثير من الأشياء الغريبة كنت قد سمعت عنها فى الأديرة القديمة .. والأفكار والأحاسيس التى كان قد مر عليها وقت طويل منذ كنت عن إثارة اهتمامى ، فجأة بدأت تكتسب عند المغزى وتثير الاهتمام .. وظهر من عميق المعانى ودقيق المجازات الماهرة ما كان يبدو لى بالأمس خيالا شعبياً ساذجاً أو خرافة خالية من العبرة أو من المهارة .

من الواضح أننا قد بلغنا بهذا الرأى نقطة حاسمة فى هـذه المناقشة العلمية البحتة .. وأصبح القراء راغبين فى القبول بفكرة أن الإنسان يمتلك قدرات غير واعية مختفية عن الذهن الواعى فلا يدركها .

ولكننا نفترض الآن وجود قوى خارجيـة أو ربات بيضاوات ومن المؤكد أن هذه هى النقطة التى ينبغى فيها أن تقرر بحسم أنه لم يكن موت مباشر جريفز الذين رفضوا كتابه مجرد حادث عارض ببساطة .

ألا يمكن أن يكون قد جاء بسبب التأثير غير الواعى (العين الشريرة) التى كان جريفز يمتلكها باعترافه ؟ أو ألا يحتمل ألا تكون هذه المسألة الغريبة من الأشياء النحاسية التى كانت على مكتب الشاعر نوعاً من (التواصل عن بعد) أو التلبية من جانب جريفز وإنها كانت هادلة من جانب تلك الأشياء لاجتذاب إنتباهه إليها ، أليست تلك الحروب هى الخطوط الفاصلة بين العلم والخرافة .

لقد ظن الإنسان القديم أن البرق هو الرب وكشف بنيامين فرانكلين أن البرق كان شحنة كهربائية استاتيكية . وهذه هى حقيقتها بالتحديد .

ولكن هناك شيئاً آخر .

من السهل تماما أن ترى قدرات الإنسان المنطقية والطبيعية قد عزلته

فن قوى عقله غير الواعية .. إنك إذا ماشرعت فى حل مسألة رياضية فى منتصف الليل فستجد أنه من الصعب أن تعود فتغرق فى النوم . ذلك أن عملية الحساب الرياضى تحتاج إلى نوعا فريدا من التركيز لمستويات عقلك العليا وحينما تبدأ فى الحساب فإنك توقظ هـذه المستويات العليا من الشعور مثلما أيقظ علاء الدين عفريت مصباحه وأطلقه من سجنه . ولـكن النوم يعتمد على عودة العفريت إلى سجنه فى المصبـاح والسماح لمستويات العقل السفلى بأن تنطلق ساعته فى حرية .

لقد كان الارتقاء الإنسانى طوال المليونين الماضيين من السنين هو ارتقاء السائق الواعى لسيارة التقدم والرقى والحضارة لـكيان بالغ التعقيدو يحتاج الإنسان إلى تعظيم عقلى بالغ التعقيد أيضا لـكي يتعامل معها . فإذا ماقورن فى الإنسان الحديث بسلفه القديم منذ مليونين من الأعوام ، فإنه سينهض بشركة عملاقة تقارن منتجاتها بمنتجات دكان قزم تديره أسرة بسيطة العدد .

والنتيجة هى أن الإنسان المتحضر يميل إلى أن يعانى من التوتر الفائق غير البدائى . والأمر المثير للاهتمام حقا هو اللحظات التى يستوفى فيها التوتر بسبب نزع من الإيماء الذاتى أو الإتمام الـكامل فى بعض المهام الصغيرة :

ويصف الشاعر يتس مثل هذه اللحظات بقوله فى إحدى قصائده :

أنظر وأحدق فى المشرق والشارع
يلتهب جسـدى ويتوهج ويسارع
فترة من الزمن .. لا أدرى بلا مانع
شعرت بالسعادة .. الـكبرى ...
حتى أصبح من حقى .. أن أمنح بركاتى

ربما كانت هذه حالة من حالات الإيحاء الذاتي التي يستطيع أن يتخيل الشاعر إذ يزداد توتره ، إجهاده بينما يشهد خريطة وسط الزحام في وسط لندن ثم يجلس ليحتسي قدحاً من الشاي وينظر من نافذة المحل إلى الشارع وفجأة تتوقف كل محركاته عن العمل وتصمت في سكون مطلق ويمضي في التحديق إلى الحشود المتزاحمة العابرة باهتمام عميق .

وفي الحقيقة أن ذلك هو ما يقول الشعراء . . أنه شخص يتمتع بشكل طبيعي بصحة جيدة ومرونة فائقة وكثيراً ما تمر به لحظات تختفي فيها حالة الحساسية المفرطة المعتادة ، وفجأة تقفز الدهشة والبهجة إلى نفسي إذ يتبين مقدار ما يثيره كل شيء من اهتمام وقيمة .

إنه ما يحدث في مثل تلك اللحظات هو أنه يبدأ في سماع (أصوات للصمت) أنه يدرك بأن العالم مليء بالمعاني التي كان جديراً بألا يلتفت إليها لو كان في حالته العادية . . وأنا أركز على كلمة المعاني لأنها جوهر الموضوع .

من التفقه لنا أن نفهم أن تلك المعاني التي بدأ الأديب أوزبينسكي يراها في الغابات والأنهار والجبال لم تكن مسألة خيالا أو استـلاما لنزعة عاطفية وكان ما حصل إليه جريفز من (معرفة خرية) حقيقية فعلية . . حقيقية يدركها الشعراء في لحظات الصمت والسكون .

وفي تلك الأسطورة المسماة بقصة (جويون) والتي يرويها جريفو يستجد الصبي جويون في تمريض (مرجل) يحتوي على قيمة معرفة سحرية وتتطاير منه الرجل ثلاثة شرارات فتحرق أصابعه وحينما يدس أصبعه المحروقة في فمه ليطفيء لهيب الاشتعال والألم . فإنه يرى فجأة معنى كل شيء واضح في الماضي والمستقبل والحاضر . .

وفي أسطورة سيفجريه التي رواها الموسيقار فاجنر بموسيقاه الرائعة البديعة

تسقط قطرات من دم التنين على يد البطل فقلعها ويدس سيجفريد يده في فمه ينصح قادرا على فهم أغانى الطيور وتلك الهمسات الصادرة من الغابات وفى الحالتين تمنع التمية السحرية بنفس التأثير غرس نوع من الصمت الداخلى العميق الذى يسمح بخلق نوع جديد من إدراك المعنى .

فإذا اتفقنا على أن (عروس الشعر) أو (الساحر) هو شخص يستطيع عقله أن يسترخى فيدرك تلك المستويات الأكثر عمقا من المعانى فلا بد لنا من الاعتراف بأن هـذا متضمن مسألة ذات طريقين أن المعنى موحد وهناك حقـاً خارجى بالنسبة لعقله ، وقدرته على (التسلل كالنغم) نحوه ليست سوى البداية .

لقد اعتدنا على التفكير فى النوم باعتباره ما لا سيطرة لنا عليه ولا يمكن لنا أن نسيطر عليها . تنفذ منهـا كل قوى الفعل والتفكير التى نمتلكها بشـكل طبيعى وكأن معظم أحلامنا تنسى عند اليقظة .

إن (ج . و . دان) أبرز فى كتابه الشهـير (تجربة مع الزمن) عام ١٩٢٧ أننا نستطيع بقدر معين من الجهد أن نتعلم كيف نتذكر الأحلام وقد أخذ بتدريب نفسه على أن يفعل هذا عن طريق الاحتفاظ بقلم وورقة إلى جانب الفراش لـكى يسجل أحلام فى كل مرة يستيقظ فيها من النوم أثناء الليل .

وكانت النتيجة هى اكتشافه أن الأحـلام كثيرا ما تحتوى على لمحات من المعرفة المسبقة لأحداث سوف تقع فيما بعد .

وهذا ما يفسر الأهميـة التى كانت القبائل البدائية تعزوها إلى الأحلام وهو ما يفسره أيضا السبب الذى جعل ربات القمر حاميات للديانات السحرية .

ويكون هذا أيضا هو السبب الذى جعل عباد الربة البيضاء ينظرون إليها باعتبارها ربة مدمرة باضافة إلى أنها ربة ملهمة .. إن العقاقير ذات التأثير النفسى التى تؤدى إلى إخماد نشاط (العقل المنطقى) ووضع القدرات غير الواعية السفلية فى مقعد قيادة الشخصية ، وهذه العقاقير تستطيع أن تولد أنواعا من الرؤى للجمال أو للرعب .. إن العقل الذى يفتح نفسه للمعانى السفلية غير الواعية يكون قد هدم تحصيناته ، وطوح بعيدا بعزلته ونزع كل ما يشبه أجهزة (امتصاص الصدمات) التى تحميه .. أن الوعى اليقظ بالنهار يستطيع اللجوء إلى الآراء وأحكامه الشائعة السائدة والمتعارف عليها يستطيع اللجوء إلى الحقيقة الموضوعية ولكن فى حالات انطلاق القوى السفلية غير الواعية يغيم الخط الفاصل بين الحقيقة وبين خيالات المرء الشخصية ودون قدر معين من المعرفة ومن أى انضباط أو انتظام يصبح العقل تحت رحمة ميله الخاص إلى الهلاك .

ويعلق جريفز على هذا تعليقا بقوله أن الكابوس أو الحلم المرعب هو واحد من أكثر جوانب الربة البيضاء قوة ولابد لنا أن نحدد هذا الجانب رغم أن جريفز قد لا يتفق معنا بالقول أن الخطر هنا إنما ينبع معه جهل عبادها المخلصين وليس من أى ميل إلى التدمير عند الربة نفسها .

أن الرمز — أو شكل الكلمات — الذى يؤدى إلى الاستجابة شىء تمكن إلى درجة معينة وقد قرأت ناقدا أكد أن سطورا من شعر الشاعر كيتس التى تقول (المياه المتحركة فى مهمتها الشبيهة بمهمة الراهب مهمة الوضوء النقى حول شواطىء أرض الإنسان .

تفقد سحرها حينما توضع كلمة البارود محل كلمة النقى فى السطر الثانى أما أنا شخصيا فلا أجد اختلافا فى تأثير البيت بين الحالتين ، واستنتج أن

استجابة الناقد — أوا فتقاره إلى الاستجابة — إنما كانت مسألة استجابة تقوم على مبدأ التعود .

ويؤدى الاستدلال هنا إلى القول بأن النطق الصحيح الدقيق للدعوة كان أكثر أهمية بالنسبة للساحر الذى يستدعى الدلافين من بحارها ليقوم بذبحها على الشاطىء .

إن كتاب التغيرات الصينى ، أو (آى تشينج) . . واحد من أكثر الكتب لعلم المعرفة (القمرية) إثارة للاهتمام .. ومن المذكور أيضاً أنه واحد من أكثرها سهولة .. وهو أيضا ينفرد بكونه متخلصا من الجوانب الضارة فالدراسة المتعلقة فيه لن تؤدى إلا الخير الخير .

يبدأ كتاب (آى تشينج) فى صورة سلسلة من النبوءات الإلهية يبلغ عددها أربعا وستين نبوءة كتبها الملك وين مؤسس أسرة تشاو الملكية الحاكمة قبل ما يزيد على ألف عام من ميلاد المسيح .

فإذا نظرنا إلى ذلك الكتاب بنظرة بسيطة لأمكننا أن نستخلص من ذلك إنه كتابا فى قراءة الطالع مثل (تقويم دور القديم) . . ولا شك أن هذا الجانب هو ما يفسر تلك الشعبية الضخمة التى حققها ظهور ذلك الكتاب فى السنوات الأخيرة .

ولكن قراءة الطالع هذا إنما يقوم على نسق معين وإن دراسة هذا النسق لأكثر فائدة ، وتكشف عن أشياء أكثر بكثير من تلك التى يزيح عنها الوحى أستار الغيب .

* * *

ويبرر عالم النفس (ك . ج . يونج) كل هذا بالمبدأ الذى يدعوه

النزعة التزامنية . أي افتراض أن (الحوادث) والمعاناة ترتبط معها بشكل ما بالعقل اللاواعي — وهو افتراض وضعناه في اعتبارنا فالعقل الباطن يعرف الإجابة عن السؤال — وهذا هو الإفتراض الذي يستخدم لتيسير كل أعمال التنبؤ والعرافه . وتستطيع المصادفة التي تحكم سقوط قطع العملة ، أو تقسيم سيقان النبات أن تسجل هذه المعرفة ، وأن تبرزها واضحة للعقل الواعي . وإنه لمن الأمور ذات المغزى الهام أن واحداً من مؤسسي حركة علم النفس التحليلي والذي كانت حياته المهنية انشغالا دائما بالعقل ، ورموزه يصل إلى القبول بمثل تلك الفكرة في السبعينيات من حياته ثم يعرب عن أسفه ذات مرة لأنه لا يملك خمسين عاما من حياته مرة أخرى لكي يكرسها لدراسة هذه المسألة .

ذلك أن السؤال الحقيقي المطروح حول كتاب (آي تشينج) ليس هو التساؤل عما إذا كان الكتاب ناجحا باعتباره مساعدا بسيطا على التنبؤ أو قراءة الطالع .

وإنما التساؤل عما إذا كان هذا الكتاب يجسد نوعا من المعرفة القمرية الحقيقية مثل أساطير الربة البيضاء ..

ولكن قبل مناقشة هذا الجانب من كتاب (آى تشينج) باعتباره ذلك الكتاب في الحكمة - ينبغي أن تقرر أن نبوءاته الكثيرة كثيراً ما تتمتع بنوع غريب من الدقة التي تسبب قلقا .

فهناك تلك القصة التي تروى عن الحاكم (لي) في القرن السابع قبل الميلاد الذي كان قد اغتصب السلطة ثم استشار الوحي لكي يعرف إن كان ابنه تشينج تشانج سوف يخلفه على العرش أم لا . . وكانت النتيجة هي ظهور

السداسى العشرين الذى يعنى التأمل أو التطلع بالنظر إلى الأفق البعيد ويبرر الحكم فى البداية متسائلا فى حين يقول :

فلنرفق .. لقد تم الوضوء والطهارة
ولكن القرابين لم تقدم بعد
إنهم ينظرون بأبصارهم نلأهم الثقة

ولكن هذا إلى جانب الصورة التى تتبعه يؤكدان طريق (القانون والشعيرة) فالحكم يتحدث فى تلك اللحظات عن الاحتفال الدينى حينما تكون خمر القربان قد أريقت ، ولكن قبل أن تكون التضحية بالقربان نفسه قد تمت بعد . فى هذه اللحظة التى يكون كل شخص فيها غارقا فى التأمل ممتلئا بالوقار والهيبة .

تتحدث الصورة عن ملك قديم عجوز زار الشعب وعلمهم مرة أخرى متى تظهر هذه الفكرة الصينية عن العلاقة الصحيحة بين الحاكم والمحكوم . ولا بد أن المنتصب (لى) كان قد بدأ بالفعل يشعر بوخزات الضمير بينما هو يقرأ تلك السطور .

وإنه إذا تم الحصول على أحد الخطين (يين) أو (يانج) عن طريق ثلاثة نقوش لرؤوس أو ذيول بدلا من الحصول على أحد الخطين بواسطة اثنين فقط فإن الخط يرد فى هذه الحالة (خطا متغيراً) منهم يجعل إلى أن يتغير إلى ضده وفى هذه الحالة فإن خط بين فى المحل الرابع يكون هو الخط المتغير وهذا هو ما حول السداسى إلى حالة السكون التى يقول حكمها :

الأشرار لا يقدرون على زيادة
المحافظة على حياة الإنسان العظيمة
يبتعد العظيم ، ويقترب الضئيل

ومن الواضح أن المعنى الكلى للحكم هنا لا يكون فى صالح صاحب السؤال وقد أثبت الكاهن الذى قام بتفسير هذه النبوءة للملك لى ان عنوان السداسى يعنى أيضاً (النظر إلى الأفق البعيد) فالسداسى يرتبط أيضا ببرج المراقبة أقيم فوق التلال — وأن المعنى الأخير كان يعنى انه إذا استمر الأمير فى الحكم فلن يكون ذلك هذا البلد (تشيين) وإنما فى مكان آخر .

وتستمر القصة فتقول أن الكاهن أشار إلى دولة (تشى) لأن حكامها كانوا من سلالة كهنة الجبل المقدس الذى يتضمنه أيضاً سداسى النظر إلى الأفق البعيد . وتختتم القصة بالقول أن (لى) نفسه قد عزل الواقع عن العرش فأيدى جبر انه فى الدولة المجاورة له ولكن أحفاده أصبحوا فيما بعد حكاماً لدولة (تشى) مثلما قالت النبوءة .

ويستحق الأمر أن ندرس الشكلين السداسيين — حاملى رقم إثنى عشر وعشرين على ضوء هذه القصة أنهما أطول بكثير من أن نناقشهما هنا بالتفصيل ففى كتاب (الإنسان ورموزه) الذى قام يونج بتحريره هناك تقرير مطول عن تحليل شخص أنطوائى كثيب عالى الثقافة يدعى هنرى . فقد حدث أن أقنع هنرى — ضد إرادته إلى درجة كبيرة — بأن يحاول إلقاء قطع العملة واستشارة النبوءة (كان لما وجده فى الكتاب تأثير هائل عليه) أما ماحدث باختصار فهو أن النبوءة التى توصل إليها كانت تحمل عددا من الاشارات المزعجة إلى حلمه وإلى حالته النفسية بشكل عام .

كان السداسى هو السداسى الرابع المسمى (بلاهة الشباب) وكان يحتوى على تحذير من أن يوقع المرء نفسه فى حبائل الخيالات غير الحقيقية والأوهام الفارغة وأضاف الحكم الختامى تحذيراً بالعودة إلى استشارة النبوءة مرة أخرى ولكن حدث بعد ليلتين وبعد أن رأى حلماً يتكون من صورة السيف

وخوذة يسبحان فى الهواء أن قام نفتح الكتاب بطريقة عشوائية فوقع بعده على السداسى الثلاثين المسمى (لى) الذى يتكون رمزه من مجموعة الأسلحة والسيوف .

أنها نوع من المصادفات يبحث عنها دارسوا كتاب (أى اشينج) وسوف يقرون صحتها وعادة ما يكون التأثير كبيرا مذهلا من الناحية النفسية وكانت الحالة بالنسبة لهنرى هى التوافق التدريجى مع قواه غير الواعية التى أصبح كتاب (آى اشينج) هو رمزها وهو الأمر الذى أكمل العلاج .

أما تجربتى الشخصية مع كتاب (آى تشينج) فإنها بالتأكيد قد دفعتنى إلى التعامل معه — ربما — باعتباره أكثر الأعمال عمقاً وأبلغها أثرا . لقد صادفت ذلك الكتاب لأول مرة فى تلك الفترة التى تحدث عنها من قبل حينما كنت أسكن (ويمبلدون) ومن الواضح أن أول ما قد يفعله الكاتب المبتدىء هو أن يستشير الوحى بشأن مستقبله بوصفه كاتباً . إنه يطلب تلك النبوءة طويلة المدى أخذت من ثلاث بنسات ألقيتها إلى الأرض ستة مرات وفى كل مرة كانت هناك غالبية من الرؤوس مكونة شكلا سداسياً صنع من ستة خطوط ينتج رمز السداسى الأول فى الكتاب والذى يصحبه حكم يقول :

النجاح السامى بصنعه المبدع .

وحفظه مصانا .. عبر البقاء .

وفى مئات المرات التى استشرت فيها الوحى منذ ذلك الحين لم تخرج لى قطعة العملة الثلاث أبدا بستة سطور مكملة ومن الواضح أننى كنت مدفوعا إلى الاقتناع والمدة الوحيدة التى رأيت فيها قطع العملة الصغيرة وهى تسقط بهذه الطريقة كانت حينما قام الكاتب بيل هوبكينز لأول مرة باستشارة الوحى .

وقد قال هوبكينز :

— إذا خرج الوحي بحكم جيد قبلته وآمنت به وإذا لم تفعل فلن أقبل وقام الوحي بإيجاز ما توقعه منه وآمن به .

وهناك مثالا آخر حدث لرجل كنا نعيش معه تحدثت عنه أيضاً من قبل في ويمبلدون وهو أنه تحول الى خشونة بالغـة في معاملته لنا .. وكان السداسي الذي حصلت عليه هو : « تصانج » أي الصراع مع حكم يقول :

الصراع .. هو الإخلاص ..

تعترض الطريق العقبات ..

قف بحذر .. لا بد من ذلك ..

سيكون الحظ بجانبك إذا استطعت ..

عبور الميـــاه العظيم ..

وقد دلني هـذا على ما كنت أبغي معرفته بالتحديد .. وهو أنه كان ينبغي على أن أرحل من هذا المـكان بأسرع ما يمكن أم أبقى فيه .. (وقفة حذرة في منتصف الطريق .. لا بد من ذلك) .

أما بالنسبة لنبوءة عبور المياه العظيم عائدين إلى شمال لندن فقد انتقلنا بعد إلى (ايرلس كورت) بل ان مات الرجل العجوز .

ولـكن السطر الأخير كان هو اكثر ما اثر في هـذه المناسبة بالذات كنت قد حصلت على ثلاث رؤوس من قطع العملة الثلاثة وعلى ذلك فقد كان معنى التعليق المطابق في هذه الحالة .. تسع مرات عند القمة هو :

حتى إذا ما وهب المرء — بالصدفة — حزاماً من الجلد ،

فإنه عندما يقترب الصباح من نهايته ،

سوف يكون قد انتزع منه ثلاث مرات .

وكانت واحـدة من أكثر عادات الرجل العجوز إثارة لحنقي انه يمنح زوجتي بعض الهدايا حينما يكون صافي البال ثم يستعيدها منها مرة اخرى بل

وقد يمنحها إلى شخص آخر إذا تعكر صفو مزاجه .

إن أول مايلاحظه كل من يقوم باستشارة (أى اشينج) هو إشارته الكثيرة إلى (الرجل السامى) ودائما تتضمن أقواله ونصائحه سواء أكانت فى صف المستشير أم ضده . وإنما تتضمن نصيحة الرجل السامى حول كيفية معالجته للموقف المعين . وكل من استشار كتاب أي تشينج فى لحظة الأزمة أو الشدة سوف يذكره بالثناء من أجل تأثير هـذا الجانب المنعش للعقل والمنشط للذهن : فيقول اليوت (الحياة أيام كثيرة) ولكن البشر عادة مايقيمون فى شرك الحاضر فيستجيبون للمشاكل بتوتر وقلق يعالجان كل مشكلة كما لو كانت مسألة حياة أو موت وقد قال جونسون ذات مرة لبلزويل صديقه الذى كان يشكو ضائقة مالية .

— ياسيدى فكر فى ضآلة ماسوف تبدو عليه هذه المشكلة فى نظرك بعد مرور عشر سنوات) :

ويشير هـذا إلى مغزى عنوان كتاب التغيرات . فبينما أعيش خلال الحاضر ، تبدو ظواهر الحياة حقيقية صلبة وذات أهمية فائقة . أما الحقيقة فإنها تجرى مثل سطح نهر منساب أن (الأنا) التى تنظر من خلال عينى لم يطرأ عليها تغيير فى عشر سنوات من الزمن ولكن كثيراً من تلك الأشياء (الدائمة) من حولى ستكون قد اختفت .

لقد كان لكتاب التغيرات تأثير عظيم على كل من الديانة الطاوية « وهى واحدة من الديانة الصينية » والديانة الكونفوشيسية ويستطيع المرء أن يقول أن الركن الأساسى فى كتاب (أى تشنج) إنما يتكون من نهرين أساسيين أولهما لها وجه والآخر كونفشيوسى .

زاهداً يعنى أن القول بأن من يتقن طقوس (طاو) إنما يضع نفسه فى

الحالة التي تهـدد العقل الواعي بأنواع توتره فيهدأ ويتطامن وينتقل مركز جاذبية الإنسان إلى الحياة السرية .

وهناك فصـل مشهور من كتاب (اشونج يو) يصف فيه عملية الغرق في السكينة بأنها (تشبه الإنصات لموسيقى السموات والأرض) والإنصات لصوت الرياح أو الأصوات الطبيعية الأخرى كما لو كانت هذه الأصوات تخلق الموسيقى الهائلة فتستغرق تلك الأصوات كلية في التفكير في مغزاها العميق . ويشرع العقل في الاستجابة لصوت الرياح كما لو كانت موسيقى هائلة .

وقد اكتشف علم النفس الحديث هـذا المبدأ من مبادىء (طاو) أن فيكتور فرانـكل مؤسس علم (العلاج النفسى عن طريق اللغة) على سبيل المثال يحكي قصة إخراج مسرحية إحدى المدارس حيث احتاج الأمر إلى من يمثل دور شخص (يفأفىء) ويتأتى في كلامه ونطقه . وتم اختيار أحد التلاميذ لهذا الدور الذي راح يمثل الفأفأة بطريقة رديئة . ولـكنه حينما صعد إلى منصة المسرح وجد نفسه عاجزاً عن الفأفأة . ويصف فرانـكل هـذه الحالة بأنها (قانون الجهد المعكوس) أن الفأفأة نتيجة الإفراط في الحساسية نوع من هيبة المنصة — أي أنه نوع من إرجاع قـدر كبير من الأهمية لفعل يتقدم عقلك الواعي إلى إتيانه فيفسد كل شيء .

• • •

يكمن تحت كل هذا أو يزيد الاعتراف بأن الإنسان يملك قوى داخلية هائلة سمح هو لها بأن تـكون عصية عليه غير طيعة وبعيدة عن تناوله من خلال الإفراط العام في الحساسية وإساءة استخدامه لعقله .

أما تجاوز تشونج ترو فقد اختار ببساطة أن يتواصل مع الجزء العظيم من نفسه من أجل أن يصنع الأدلة الموسيقية كان بوسعه أن يختار . . أن ينتقي

خطوات الجزء الأصغر من نفسه خاصة إذا ما كان حرفا وكان من المحتمل ألا يتمكن إنسان من معرفة الفارق بين النتيجتين وهذا أيضا مايعنيه جريفز بالفرق بين شعر عرائس الفن وبين الشعر الكلاسيكي ليس هذا الشعر الأخير سوى صنعة حرفية بصورة أساسية خلقية أو صنعته للمستويات العليا من الشخصية جيد الصنعة ولكنه دون الهام .

والبشر هم الكائنات الحية الوحيدة الذين يملكون هذا الاختيار بين اقتناء آثار الجزء الأعظم أو الجزء الأكثر تفاهة . ويتوقف الفارق ويعتمد على قدرة الانسان التي لايتميز بها غيره على التخيل فحينما يواجه أى حيوان موقفا معتما غامضا فإنه يصبح غبيا بليد الإحساس . إن الصقر وهو أكثر الطيور قسوة وحدة يصبح ساكنا متلبداً إذا ما وضعت على رأسه عمامة سوداء تغطى عينيه . أما الوعى السامى الذي يتميز به الإنسان فيعنى أنه يستطيع أن يرى إلى بعد أكبر . . إن إحساسه بالهدف يمتد ليخترق المسافات البعيدة ، ولكننا مانزال حيوانات بنسبة ٧٧ ٪ وقليلون منا هم الذين يهتمون بتطوير هذه القدرة الفريدة المتميزة ، إننا ننساق مع التيار يوما أثر يوم ، يملأنا الضجر حينما تصبح أشياء معتمدة غير واضحة ويتملكنا الانقباض حينما تبدو الاحتمالات القريبة محدودة والآفاق الميسورة مظلمة لا نور فيها ، فلا نستخدم قدراتنا على التبصر والتخيل إلا حينما يواجهنا نوع يثير الاهتمام من التحفز :

ثم نترك هذه القدرات لكي تتضح فى إهمال واهن بين كل الخطئين من لحظات هذا التحدي ، ولابد لنا من الاعتراف بأن هذا الموقف ينطبق علينا جميعا أغلب الأحوال بما فى ذلك من كانوا أشباها ليتهوفن الانغماس فى الأشياء والهموم هو نصيبنا المشترك وقدرنا ، أما مايجعلنا بشراً بصورة فريدة فهى لحظات عدم الانغماس الغريبة ، وعند ذلك يختفى الضغط ، وإذا بنا فجأة

نرى الحياة من بعد ، فى تلك اللحظات من التفاؤل والتثبت يبدو من السخف أن ينبغى لنا أبداً أن نغرق أو نستسلم لحالة الانقباض أو الإحساس بالهزيمة .

أن المرء إذ يفكر فى موقف هـذا النوع فإنه يدرك افتقار الإنسان إلى القـدرة على النظر من بعيد ويدرك افتقارنا إلى التجربة وعزم نضجنا فى المشاكل المعقدة للظروف الإنسانية ، ولكن لاينبغى أن يكون أمر على هذا النحو ، أننا نستطيع أن نمتلك (مسافات التقاط أنفاس) حينما نتمكن من اتخاذ وجهة نظر بعيدة منفصلة عن الأشياء .

لقد كان البشر جديرين بأن يصبحوا كائنات أكثر قربا من الآلهة لو نظرنا إلى ماتعلمناه من لحظات البصيرة النافذة تلك باعتباره شيئا تتعلق به الحياة والموت ، ولكن أكثرنا يستطيعون الانسياق مع تيار الحياة دون اتخاذ أية إجراءات أو قرارات أخلاقية عظيمة ، وهكذا فإن الجنس البشرى لم يظهر أى تقدم فى مجال الحكمة غير ثلاثة آلاف عام .

وهذه هى النظرة المتبصرة العميقة التى تسكن فى قلب كتاب (أى إتشنج) أنه بوسع الإنسان أن يختار إلا يتبع الجزء الصغير من نفسه أن طريقة طاو ومنهجه — ومنهج التواصل مع قدراته اللاواعية عن طريق التركيز الدقيق على أشياء متميزة بعينها — يفتح الطريق إلى مستويات تطورية أكثر سموا .

وكل من يقوم ببساطة بقراءة ودراسة كتاب (أى تشنج) بينما هو يفكر فى رموزه وأفكاره متجاهلا فى الوقت نفسه قدراته باعتباره وسيلة للتنبؤ والعرافة فإنه سيدرك أن هذا هو أكثر مستويات معانيه عمقا وأكثرها كثافة أنه مثل الموسيقى التى تولد من حالة البهجة الكثيفة الغامرة المفاجئة ، من الإبقاء والانفصال الداخلى من الحصول على (مسافة التقاط الأنفاس) .

إن القارىء الذى ينغمس فى كتاب (أى تشينج) يشرع فى رؤيته

باعتباره كلا متكاملا ، وربما أصبح أكثر مهارة فى استخدامه كوسيلة للرأفة فإن هذه القدرة على التنبؤ مثلها مثل الغطس فى الماء من الأمور التى يمكن أن تتطور ببساطة عن طريق بذل المجهود من أجلها . وسوف يدرك هذا القارىء أيضا أن قدرة الكتاب على التنبؤ بالأحداث ليست سوى نتيجة ثانوية جانبية لا أهمية لها لغرضه الأساسى الحقيقى

هناك ملحوظة اخيرة يجب انى اذكرها ان ريتشارد ويلهم يشير إلى ان المعنى الأولى لـ (ين) هو (الغائم) المحجب بينما المعنى الأولى (ليانج) هو (رايات تخفق فى الشمس) فهل يستطيع المرء ان يبتكر رمزين اكثر نفاذا إلى المشكلة المركزية الرئيسية للوجود الإنسانى (لحظات الرؤيا) .

الفصل الثالث

الشاعر عالما بالغيب

هل يمتلك الشعراء فى حقيقة الأمر درجة أعلى من القدرات على معرفة الغيب مما يمتلكه عامة الناس ؟

سؤال نحاول أن نجد الإجابة عليه فى هذا الفصل الثالث فإن الشاعر إنسان تطورت لديه الملكة (س) بصورة طبيعية إلى درجة تزيد عن تطورها لدى سائر الناس . فبينما يجتث أكثرنا دون رحمة مناطق برمتها من الإدراك فتتسبب بهذا فى افتقار حياتنا العقلية فإن الشاعر يستبقى القدرة على أن يبتهج لجاة لمجرد (حقيقة) أن ذلك العالم ما زال متواجداً هناك .

فى الوقت الذى كنت أتساءل فيه مع روبرت جريفز فى مارجوركا حول مسألة (ملكات معرفة الغيب) قابلت أيضاً الشاعر لويس سينجر وهو معاصر لجريفز .. وقد كان موقف سينجر من مثل هذه الأمور مملوءا بالشك إلى حد كبير برغم أنه أخبرنى بأنه قام ذات مرة باستقصاءات مختلفة فى موضوع النزعة والأعمال الروحانيـة . سرد لى منها ما سوف يكون موضوع هذا البحث .. والخلاصة أن سينجر كان مثل جريفز محظوظا بامتلاكه قدرة الشاعر على الوصول إلى الاسترخاء الكامل أنه يتحدث عن (التركيز على لاشىء) والسماح للعقل بأن يغرق فى حالة من السلبية المطلقة .

فلم تستطع جلسات تحضير الأرواح أن تقنع سينجر بأن الظاهرة الروحانية حقيقة واقعية . ولكنه احتفظ بعقله مفتوحا وبذل الجهد لكي يجعل نفسه

فى حالة مزاجية متفتحة تسمح له بالتلقى الإيجابى حينما يكون وحيداً وأخوته امرأة وسيطة بأن له أن يتوقع زيارة من سيدها وهو روح طفل فى غرفته فيروى حالته النفسية ويقول :

(وانتظرت فى غرفتى تلك الزيارة بعقل مستريح ولم يحدث أن تمت الزيارة . . وفى الليلة التالية قررت أن أجرب استخدام شمعة .. فأشعلت الشمعة ووضعتها تحت نظرى مباشرة وتوهج اللهب دون أن يزعجه شىء ورحت أراقبه وأنا فى ذات الحالة من استراحة العقل . أملا أن يلفحنى أحد من تلك الأنفاس الروحية الغامضة . ولكن لم يحدث شىء من ذلك وفجأة لقد شممت رائحة عطر جميل لم أكن قد شممته قبلا . شممته فى حالة السلبية المتكاملة التى كنت فيها دون بادرة من شك أيا كانت .. نهضت ومضيت أتشمم تلك الرائحة وأتتبع مصدرها لم تكن الرائحة مبعثها غرفتى بلا شك . وأخيراً تركت تلك الحاسة تقودنى حتى وصلت إلى الحمام وهو فى الطابق السفلى . وهناك وجدت المصدر وهو قطعة من الصابون المعطر .

وكان ذلك هو أول درس تعلمته فى حالة السلبية وحينما تكون قوى الإدراك الذهنى مهجورة تماما تصبح الحواس مفرطة فى حساسيتها فى حالته الطبيعية ما كان بوسعى أن أشم رائحة الصابون . . ولكن ذلك كان بإمكانى وأنا فى حالة غير طبيعية .

هاهو ذا مثال آخر على زيادة حدة ملكة معينة تجاوزت قدراتها الطبيعية عن طريق نوع من الجهد المبذول فى هدوء .. إنه المقابل الحضارى لتلك الحساسية التى وصفتها من قبل بحساسية الأدغال التى تتمتع بها كورنيت : لقد بدأ الأمر كما لو أن ملكاته أدركت أن المطلوب منها أن تبذل قدراً أكبر من الجهد .. ولكنها لم تكن واثقة من نوع هذا الجهد ، لقد اكتشفت

حاة حاسة الشم رائحة ما كان بوسعها أن تهتم بتسجيلها فى الحالة الطبيعية العادية فإن جهازنا العصبى يحتوى على بعض الثغرات الصغيرة تسمى النقاط المفصلية وظيفتها هى حجز واستبعاد المؤثرات الحسية غير الضرورية .. وإلا لكنا نشعر بكل تغير بسيط لدرجة الحرارة وبكل نفحة هواء ضئيلة تهب على وجوهنا ولتضاءلت قدراتنا على التركيز إلى حد كبير .

ولكن ربما كان أكثر ما يبرز من نقاط إثارة الاهتمام فى تلك القصة هى ماذكره سينجر من تلك الاستقصاءات فى عالم التجارب الروحانية هى الطريقة التى تؤدى بها هذه التجارب إلى نتائج محددة الهدف ، رغم أنه ظل على اتجاهه النقدي وتصلبه العقلى .

ففى أول جلسة يحضرها لتحضير الأرواح أقنع نفسه بأن النتائج تحققت من خلال رغبة كل واحد من الحاضرين فى أن ينخدع

أعلنت واحدة من الجالسات أنها استطاعت أن ترى بعض الأضرار وقد أعلنت أنا موافقتى لأنى كنت أكثر أدباً من أن أعترض وقالت سيدة أخرى إنها تستطيع أن تشعر بلفحة هواء ومرة أخرى أبديت موافقتى التى اشترك فيها مع الجميع ، ثم لم يحدث شيء لبرهة ثانية ، ومرة اخرى أبديت موافقتى التى اشترك فيها الجميع ، وأخيراً شعرت إن دورى قد حان لأبدى ملاحظة ما على الجلسة فأعلنت أن النور يزداد توهجا فقوبلت هذه الملاحظة بالموافقة الإجماعية من الحاضرين ومن المؤكد أننى غاليت فى القول بعد ذلك وقلت أن اضواء جميلة تتراقص من حولى، ثم قلت إننى أشعر بلفحة هواء .. وهكذا فإن الحاضرين قد قالوا ذلك القول رغم أنى ادعيت ذلك ولم يحدث وحدث أن سحبت الطولة فى الهواء الرقيق الشفاف ثم سمع صوت تعرفت عليه شقيقتى بأنه صوت شقيقتها تتحدث . . وكان الجميع واثقين من أنه

ليس صوت الوسيط . . فيا عداى أنا بالنسبة لى لم يكن ثمة أدنى شك فى أنه صوت الوسيط بل أن الصوت لم يكن متخفياً ولم يكن مقلداً بمهارة .

وكل ما اكتشفته فى ظل جلسات تحضير الأرواح أن الناس يهتمون بالخضوع ومقدار ما يصبحون سذجاً يسهل خداعهم بأية طريقة وأسلوب ، ولكن اكتشفت أيضا مقدار إجهاد (الإجتهاد الممتع) الذى يولده التركيز على حالة السلبية الكاملة .

. . .

أننى أسرد هذا القول لكي أوضح أن سينجر لم يكن مهيأ لأن يكون بحكم مزاجـــه (مؤمنا حقيقياً) فحينما استطاعت وسيطة ما فى النهاية أن تقدم نتائج أقنعته بالفعل فإنها كانت تكذب بل أنه لم يتردد فى أن يرجع اقتناعه إلى التواصل عن بعد أو التليباثى فيقول :

(لم يكن أحد من الحاضرين قد زار منزلى بل ولم يكن أحد فيهم من يعرف أين أقيم ومع هذا فقد قام الوسيط وهى إمرأة بوصف حجرتى ومنزلى بالتفصيل بل وجهت إلى عدة نصائح فقد كانت يدى تلقى ظلا على ما أكتب بسبب إجهاداً لى ولعينى فوصفت لى بأنه ينبغى أن أقلع عن الكتابة فى الفراش . وقالت أننى يجب أن ألبس خفاً جديداً لا يسبب لى خطراً من الإنزلاق من السلم بسبب تآكل الخف القديم أما بالنسبة للمنزل نفسه فقد وصفت المرأة كم عدد درجات سلالمه وقالت إن منزلا فى مقابل منزلى تقريباً كان قد أعيدت زخرفته منذ مدة وجيزة وباستثناء تلك الملاحظة الأخيرة فإننى لم أكن أعرف إن كانت ملاحظاتها الأخرى عن المنزل صائبة أو مخطئة . . كنت فعلا معترفاً بكل ما قالته . . ولكننى أعتقد أن أحد الناس قد نقل كل ذلك إليها .

وقد اشترك لويس سنجر فى (حلقة تطوير) حيث كان الغرض بالنسبة

للأعضاء كل على حدة هو تنمية قدراتهم كوسطاء ولكن سينجز لم ينجح : فهو يقول :

(لقد أغمضت عيني وأفرغت عقلي من كل شيء ، بل أن رأسي أثقله النعاس فى بعض المرات ... أما النعاس الحقيقى فلم يأت أبداً) وعلى الرغم من هذا فإن الوسيط أخبره بأنه قد توصل إلى الحصول على مرشدين من الأرواح ، وكان أحدهما روحا هندوكية ، وحدث ذات مرة حينما كان منفردا بصديقه من أعضاء الحلقة انه قرر ان يحاول النوم والغرق فى النعاس . فقال لها :

— هل تسمحين بمراقبتى ؟

وأومأت هى برأسها موافقة .

فأغمضت عينى وسرعان ما غلبنى النعاس أو غرقت فى حالة شبه النعاس وفجأة شعرت بأمعائى تنقبض وتغوص حتى بدا لى أن روحى سوف تظلم ، وبعد لحظة قصيرة فتحت عينى لكي أجد صديقتى تحدق فى عينيها بعد أن كانت تنظر ناحية الجدار .

فسألتها فى ضيق ؟

— ألم أطلب منك أن تراقبينى ؟

فقالت :

— كنت أراقبك بالفعل ولكنك خرجت من جسدك وكنت تجلس على ذلك المقعد فى نهاية الحجرة .

وهناك حادث وحيد لم يكن بوسعه أن يعيده عن طريق فكرة التليباثى أو التواصل الروحى عن بعد وتلك الحادثة سجلها (ديدن) فى كتابه (تجربة مع الزمن) حين استطاع أن يستحضر صورة مرئيـة لساعته بينما كان يغط فى النوم ، ويقول سينجر :

(كانت ساعتى هناك على رف صغير فى حجرة نومى وهى تحيطها ميناء أبيض ، وكان لدي موعداً فى الصباح فاستيقظت وكانت الظلمة ما زالت تحيط بالغرفة وحاولت أن أكرر تجربة (ديدن) فرأيت ساعة للنبه أمام عينى فقررت أن استمر فى النوم ساعة أخرى لأننى خيل إلى إننى رأيت الميعاد فى الساعة ومازال الوقت مبكراً وبالفعل أخذنى النعاس مرة ثانية . واستيقظت ونظرت لى الساعة التى كنت أراها ببصيرتى ثم نهضت وأزحت ستائر النافذة فتأكدت من دقة الرؤيا التى أبصرتها ، ولكن الغريب هو أن محيط وجه الساعة فى الرؤيا كان ذهبي اللون .

* * *

وتحليل تلك القصة هو أن للطيور وسائر المخلوقات نظاماً آلياً دقيقاً داخليا فى تركيبها تعرف به الوقت أنها تتحرك فى نفس الدقيقة التى يكون طعامها فى انتظارها ، فمن المؤكد أن نفسى أستطيع أن اذهب إلى النوم سعيداً بعد أن انوى فى نفسى موعدا لاستيقاظى فى ساعة معينة بالتحديد وبالفعل استيقظت فى ذلك الموعد .

إن كل ما حدث هو أن معرفتي اللاواعية بالوقت قد اكتشفت عن نفسها طريق صورة الساعة التى استعرضتها فى بصيرتى .. أما بالنسبة للون الذهبي الذي بدأ عليه محيط الساعة فإنه من الممكن أن يكون رمزاً للتفاؤل نتيجة لنجاحى فى التجربة .

ولكن لا بد لى من الاعتراف بأن هذا التفسير بعيدا عن الدقة حينما اكتشفت أن الساعة كانت متقدمة عن الوقت الصحيح بمدة تزيد على العشر دقائق .

ذلك هو تحليل رؤياي مثلما يحلل المرء حلما من الأحلام .

أما تفسيرنا نحن لتلك الظاهرة فهو بالتأكيد عنوانه أياً كانت القدرات التي استطاع أن يطورها فإنها لم تكن معتمدة بشكل كلى على التواصل التليباثى مع العقول الأخرى ولكن يمكن القول بأنها كانت قادرة على أن تتعامل مباشرة مع المادة .

أن ما يمكن ملاحظته هنا على الفور هو أن الانغماس الوثيق فى محاولة معرفة الغيب يبدو كما لو كان يؤدى إلى جعل الأشياء تحدث مغيرة بذلك من مجموع إطار حياة القائم بالتجربة الذى قد يكون حتى ذلك الوقت غير روحانى بصورة كاملة ، ويسجل سينجر ملاحظاته قائلا :

إن المرء الحالم ينغمس فى الأمور الروحانية فإنه سيجد نقصاً معيناً فى التواصل مع أولئك الذين لم تكن لهم تجربة مشابهة .

يبدو أن الشعراء قادرين على تقديم ميدان خصب بصورة خاصة للبحث فى موضوع (البحث عن الغيب) وقد حاولت أن أقيم الحجة للتدليل على ذلك القول بأن السبب فى هذا يرجع إلى أن (المكهس) هى ملكة الخلق والإبداع وهى ملكة البحث عن الغيب فى نفس الوقت .

بل إن روبرت جريفز يمضى إلى أبعد من هـــذا حينما يعترف أن كل القصائد الحقيقية إنما كتبت فى إطار البعد الخامس أي انه كتبها خارج إطار الأبعاد الثلاثة المكان والبعد الرابع (الزمن) أي إنه كتبها فى بعد ذاتى كامل قد يكون الحلم أو الخيال .

ولكن المرء لا يحتاج إلى المغالاة فى القول إلى هذا الحد لكي يصبح قادراً على رؤية أن الشعر إنما ينبع من قلب نوع خاص من الوحدة والسكون الداخلية .

ولقد زودنى الشاعر (م ل. راوز) ببعض المذكرات الخاصة التى كتبها

حول تجاربه فى ميدان مافوق الطبيعة .. وفى كتاب (طفولة على الرصيف) يلاحظ إن قصائده تملؤها للوحدة والسكون مثل :

البحر الصامت .. طافح .

صيحة الكروان .. أو صرير محراث .

وأيضا .

القمر ، والصقيع ، وضوء أيام الشتاء .

كما لو كان المرء يرى الحياة تعبر .

من تحت البحر .

بل إنه يكتب فى مذكرات بعنوان (تواصل روحى وما إليه) قوله : (حدثت هذه التجربة لى وهى تحت العنوان التشاؤم أو توقع قدوم الشر أو التواصل الروحى .. فقد كان لحجرة الجلوس قبل تخرجى نوافذ من الطراز الفيكتورى ذات مصاريع خشبية يزن كل منها ما لا يقل عن ٢٥ أو ٣٠ رطلا وفى مساء من أمسيات الصيف الرائعة كنت أطل من النافذة منحنيا برأسى إلى الخارج وقد رفعت للمصراع الخشبى الثقيل الذى كان مرتفعا فوق عنقى للممدودة تماما مثل المقصلة حينما طرأت تلك الفكرة للبنية على رأس فكرة .

لو وقع هذا الشىء الملعون فوق رأسى وسقط على عنقى .

لم أكن فى تلك اللحظة فى حالة طيبة بل كنت متعكر المزاج وكنت واقعا تحت تأثير المزاج القاتم وقلت :

« فليسقط هذا الشىء الملعون ! »

وبعد فترة قليلة جداً من الزمن ثوانى هى ، نسيت الأمر كله ثم تراجعت من وقفتى وسحبت رأسى إلى الداخل بشكل عرضى تماما . ومثل ومضة

البرق فى نفس اللحظة سقط المصراع وهو يحمل النافذة الثقيلة :

لم يكن ما أفزعنى هو إن النافذة سقطت .. وإنمـا ما أخافنى هو أننى تحديته أن يسقط .. جربت العناية الإلهية واختبرتها .

ولكن هل هو افتراض يؤدى حقا إلى تبسيط أى شىء ؟ كيف يستطيع التليباثى الجمعى أن يفسر القدرات التنبؤية التى يتمتع بها كتاب (آى تشينج) أو تنبؤ مارك بريدين أن سيارة الأجرة التى يستقلها سوف تصطدم مع سيارة أخرى ؟ أو أى حالة من عشرات الحالات التى يحتويها كتاب المستقبل الذى ألفه أوربورن والقصة التالية مثل منه :

. . .

(هذا التقرير قدمته الآنسة دولا من مسرح الـكوميدى فرانسيه وهو يتعلق بالنهاية الدرامية التى انتهت إليهـا الممثلة الآنسة ايرين موزا فـكانت الآنسة موزا فى حالة تنويم مغناطيسى حينما سئلت إن كانت تستطيع أن ترى ما ينتظرها شخصيا فى المستقبل فـكتبت ما يلى : (ستـكون حياتى العملية قصيرة إننى لا أجرؤ على قول ما ستكون نهايتى .. ولـكنها سوف تـكون نهاية مرعبة) .

ومن الطبيعى أن القائمين بأمر هذه التجربة الذين أثرت عليهم هذه النبوءة تأثيرا عظيما قد محوا كل أثر لما كتبته الآنسة موزا قبل أن يوقظوها من نومها المغناطيسى .. ولذلك فإنها لم تـكن تعرف معرفة واعية ، ما كانت قد تنبأت به لنفسها .. ولكن حتى لو أنها كانت قد عرفت لمـا لسبب ذلك فى تحديد نوع الميتة التى لقيتها .

لقد تحققت نبوءة (إن حياتى العملية ستكون قصيرة) . بعد بضعة أشهر .. ومن المؤكد أنهـا كانت مرعبة بالفعل . . فقد انسكبت من ممشطة شعرها

قطرات من محلول مطهر صنع من بعض المواد المعدنية سريعة الاشتعال على موقد مشتعل ، وعلى الفور لمت النيران الآنسة موبا .. وأمسكت بشعرها وملابسها فأصيبت بحروق قاسية ماتت على أثرها فى المستشفى بعد بضع ساعات .

فإذا كان من الممكن تفسير مثل تلك الحالات عن طريق التليبائى والعقل الجمعى فعلى المرء أن يضمنها فكرة أن الماضى والمستقبل يقعان أيضا فى متناول ذلك العقل . وهذا هو ما يفترض يونج فى كتاب (آى تشينج) .

• • •

كانت مارى باتل تمتلك حاسة سادسة . . وكان باستطاعة بوليكسفين أن يقول لكم كم من مرة وصل إلى منزله مصطحبا معه ضيفا على غير انتظار فوجد المائدة معدة لثلاثة أشخاص .

• • •

وذات صباح كانت على وشك أن تأتيه بقميص نظيف ، ولكنها توقفت قائلة : أن هناك أثر دم على صدر القميص ، وأنها يجب أن تأتيه بقميص آخر وفى الطريق إلى مكتبه سقط إذ كان يعبر جداراً عاليا ، وجرح نفسه فسال الدم حتى وصل إلى قماش القميص فى البقعة التى قالت إنها رأت فيها الرماد ، وفى المساء قالت له :

— إن القميص الذى ظننتيه ملوثا بالدم كان نظيفا تماما .

إن كل ذلك مدون فى كتاب ييتس « أحلام اليقظة » .

• • •

وفى لندن فيما بعد .. حضر ييتس جلســات لتحضير الأرواح ، والاحتفالات السحرية .. وانضم إلى جماعة الفجر الذهبى التى كان يتزعمها أحد الاسكتلنديين من غريبى الأطوار .. كان ييتس قد قابله فى المتحف البريطانى .

وقـــد قال يبتس : إن الذى أقنعنى بضرورة الحضور هو أن المبـدأ الذى يسود بأن الصور تتصـاعد فتبرز أمام عين العقل من مصدر أكثر عمقا من الذاكرة الواعية أو غير الواعية) .

وقد روت إحدى الممثلات كيف انها خرجت مع هذا الاسكتلندى للتمشية فلما وصل إلى مرعى للأغنام قال :

(انظرى إلى الأغنام .. إننى أتخيل نفسى كبشا يجرى) .

وكانت النتيجة المفاجئة هى أن الأغنام أخذت فى الجرى خلفه .

ويكتب يبتس :

— كان قد أعطاها قطعة من الورق المقوى رسم عليها رمز هندسى ملون فقال لها أن ترمقها أمام جبهتها فوجدت نفسها تسـير على حافة هضبة مرتفعة تطل على البحر .. والنوارس .. وطيور المـاء تتصايح فوق رأسها .

وقد أعطانى رمزاً مصنوعا من الورق المقوى وأمرنى بأن أغمض عينى وجاءت الرؤيا ببطء لم تـكن ثمة تلك المعجزة السريعة .. المفاجئة كما لو كانت ومضة سكين لامعة اخترقت حجب الظلام ذلك أن مثل تلك المعجز غالبا ما تكون امتيازاً للمرأة .. وإنما راحت تبرز أمام صور عقلى ، لم يكن بوسعى أن أسيطر عليها ، صحراء وعملاق اسود هائل يرتفع بجسده فينهض معتمداً على يديه من وسط كومة من الخرائب القديمة .

وقد شرح لى الاسكتلندى ما رأيته فقـال : إننى أبصرت واحدا من جماعة السمندل وهو نوع خرافى من السحالى لأنه قد كان أطلعنى على هذا الرمز فقد يكفينى تماما لو انه اكتفى بأن رسمه لى .

ويعلق يينس على ذلك بقوله :

(لقد مضى وقت طويل قبل أن أعترف شخصيا بأن للرموز قـدرات موروثة . . ذلك إنه قد بدا لى لوقت طويل إن بوسع المرء أن يستوعب كل شئ عن طريق القدرة على تركيب الخيال فوق الخيال ، أو عن طريق التليباثى).

لقد كان على استعداد تماما أن يقبل فكرة التليباثى بل وأن يقتنع بقدرة الإنسان على أن يعرض صورة جسم فى مكان آخر . .

إنه يحكي حادث بينما كان فى باريس وخرج ذات صباح ليشترى جريدته .

وفى طريق خروجه مر بالخادمة التى كانت قد وصلت حديثا من الريف . وكان يفكر لحظة مروره بها . . فى أنه لو أن كذا وكذا قد حدث لـكان قد جرح ذراعه . . وفى أقل من لمح البصر خيل له أن قد ضمد ذراعه ووضعها فى حمالة حول رقبته وفى طريق عودته فوجيء بجيرانه يقولون له :

(حمدا لله على سلامتك . . . ولكن لمـــاذا قالت لنا خادمتك منذ قليل أنك مصاب بكسر فى ، ذراعك وأنها معلقة حول عنقك ؟) .

* * *

كما يكتب مثالا آخر :

ذات أصيل فى نفس الوقت تقريبا كنت أفكر باهتمام شديد فى أحـد الطلاب كنت لا أريد أن أبعث إليه رسالته . ولـكننى كنت مترددا فى شأنه . . وبعـد يومين وصلنى خطاب من مكان يبعد عن محل إقامتى مئات الأميال . . حيث كان يعيش هذا الطالب . وقال فى رسالته : إنه حـدث فى ذلك الأصيل (حينما كنت أفكر فيه بهـذا الاهتمام) أن ظهرت أمامه فجأة وسط حشد من الناس فى أحد الفنادق وأننى بدوت له صلبا متماسكا كما لو كنت

قد ظهرت له بجنسى . . ورآنى الطالب زميلى . . ولكن أحداً غيره لم يرنى ، فطلب منى أن آتى مرة ثانية حينما يكون الآخرون قد انصرفوا . . فاختفيت ولكن عدت مرة ثانية فأعطيته الرسالة . . أما أنا فلم أكن أعرف قصة ظهورى مرتين .

* * *

وهذه القصة تشبه الحالات التى أشرنا إليها فيما سبق . . وهى تفسر الدهشة الواضحة التى أصابت بوير حينما اتصل به دراويزز تليفونياً لكي ينبئه بأنه قد ظهر له شبحه ، ويتماشى تفسير بينس لمثل تلك الظاهرة مع ما قد قيل هنا بالفعل .

إنه يقول :

(إن طاقات العقل الأكبر والأعظم نادراً ما تنطلق فتقوم بدورها إلا حينما تتحرر الأعماق من قيودها)

وهذا يعنى أنه يرجعها إلى تحرير من نوع غريب للاوعى . . . وهو يوافق على أن رؤيا فلورنس لحافة الهضبة المرتفعة يمكن بسهولة أن تكون نوعا من التليباثى إن لم تكن خيالا خالصا . . ومع ذلك يبدو هنا أن ثمة قدراً معقولا من الأدلة التى تثبت أن الرموز قد أنتجت صوراً عقلية محددة فى استقلال كامل عن العقل نفسه .

(لقد كان الرمز نفسه هو الذى أنتج ذلك التأثير ناتجا عن نيتى الواعية — ذلك لأننى لو أخطأت فأمرت شخصا ما أن يحدق فى رمز مختلف عن الرمز المطلوب ، وقد كانت الرموز مرسومة على بعض البطاقات لكان الإيحاء بالرؤيا قد تم عن طريق الرمز الذى أشرت إليه ، وليس عن طريق أفكارى التي لم أحسن الربط بينها وبين الرمز الصحيح) .

وهكذا بدت الرموز غالبـــا مستقلة بشكل غريب من العقول والتي تستخدمها أنه يتحدث عن امرأة إيرلندية شابة ظنت أن تفاحة حواء من النوع الذي يمكن أن تشتريه من بائع الفاكهة ولـكنها أغفت ونامت فرأت في نومها شجرة الحياة وأرواحا تتنهد طول الوقت وهي تتحرك بين أغصانها وتتنقل طول الوقت .

وقد فسر ييتس هـذا الحلم بأن الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر وفي أغصانها تستقر الطيور وتسكن .

• • •

ويتصل بنا المقام إلى الذاكرة الجنسية .

يخطو ييتس الخطوة التالية وهي الخطوة التي اتخذها يونج نفسه من ذلك بعدة سنوات بالقول .

— بأن هناك ذاكرة . للجنس تعمل عن طريق الرموز أن من الممكن الحصول إلى ذاكرة الجنس هذه عن طريق (إسكات همسات العقل القلق وصرخاته) أي عن طريق الوصول إلى عمق معين للسكوت الداخلي حيث تـكون في متناول ذاكرة الفرد المحدودة .

بل أن ييتس يمضي إلى ما هو أبعد فيقول إن أنواع العلاج السحري التي تستخدمها الشعوب البدائية قد تنتج عن طريق الوصول بشكل ما إلى تلك الأعماق البعيدة عن الوعي .. (إنني ظننت أن أدوات أو رموزاً سحرية من مثل قشرة بذرة الـكتان إنما تقوم بعملها بأن توقظ في أعماق العقل حيث تمتزج بالعقل الأعظـم ثم تزداد ضخامة عن طريق الذاكرة العظمى نوعا من الطاقة الشافية أو نوعان من القوة المغناطيسية الفلابة .. وليست هـذه هي

ما ندعوها بأنواع العلاج عن طريق الإيمان .. ذلك أنها قد استخدمت بنجاح مثلما يؤكد تراث كل البلاد .. إنني لا أستطيع أن أفكر الآن في رموز أقل مما أبدعته القوة التي هي أعظم من كل قوة أخرى سواء استخدمها بوعي أساتذة السحر ، أو استخدمها بطريقة نصف لا واعية عن طريق خلفائهم الشاعر والموسيقار والفنان .

• • •

ها هي إذن نظرية عن السحر تستطيع أن تغطي وتستوعب كل الظواهر التي تم وضعها حتى الآن في هذا الكتاب من التواصل الروحي البسيط إلى التعقيدات الغريبة لأبجدية الشجرة الدورديه ، وأشكال تجسد الربة البيضاء ، والتي وصفها جريفز .. في أمثلته التي ذكرناها من قبل .

ويشترك جميع بني الإنسان في اشتياق واحد شائع هو أن يهربوا من ضيق هذه الحياة وما تسببه الأشياء المحيطة بهم في شكل مباشر من اختناق ، ومثلما يقول العلامة اينشتين فإن هذا هو ما يدفعهم إلى الرغبة في الهرب من المدن ويدخلون الريف في نهاية عطلاتهم الأسبوعية . . إن ضيق حياتنا يجعل الحواس تنغلق حتى تشعر بالاختناق .

• • •

وهذا أيضا يفسر السبب الذي جعل أوربلسكي يجد نكهة حقيقية من نوع غريب في الكتب التي تدور حول قارة اطلانتيس والسحر : انه لمن المهم لنا أن نحس بأن ثمة نوعا من المعرفة تختلف كل الاختلاف عن القوانين للنمطية التي تحكم الوجود اليومي وأن هنالك حقائق غريبة خلف الجدران التي تحيط بنا . . إن الفن والموسيقى والفلسفة كلها طرق الهرب من ضيق الواقع اليومي ولكنها تتطلب جميعا قدرا من المجهود الواعي النابع من الداخل فإن عليك أن تبذر قبل أن تتمكن من الحصاد . أليس كذلك .

وبالمقارنة فإن علم السحر أوعلوم الغيب ليست سوى طريقة بسيطة مباشرة الهرب من ضيق الحيـاة اليومية ، إن دارس علوم الغيب بدلا من أن يتحول العالم الخارجى إلى عالم المؤلفين وللموسيقين أو الفلاسفة فإنه يتحول إلى الداخل مباشرة فيحاول أن يغوص لـكي يبلغ أعماقه السفلية المظلمة . . وهـذا هو ما يوضح السبب الذى جعل أقدم أشكال السحر وأكثرها بساطة أشكالا رمزية فلم تـكن الرموز تتمتع فقط بالقدرة الغريبة على التقارب مع العقل اللاواعى وإنما هى أيضاً سهلة الإدراك ويسهل أن تـكون موضوعا للتأمل وهـذا هو ما يفسر أيضا التأثير الهائل الذى مارسه كتاب (أى تشينج) عبر كل هذه القرون الـكثيرة وهو ما يفسر أيضا شيوع وشعبية كتاب (التاروت) الذى نبدأ محادثتـكم عنه الآن .

فمن أكثر الأشياء غرابة فيما يتعلق بمجموعة أوراق التاروت وهو مايبدو من عدم وجود أية أساطير تتعلق بالأصل الذى جاءت منه رغم أن عالم قديم أعلن أنها عمل مصرى قديم فى أساسه كان يدعى (كتاب توت) ولـكن هذا كان قبل أن يساعد (حجر رشيد الدارسين على قراءة الهيروغليفية) ولا بد من الاعتزاز بأن البحوث التالية لذلك لم تـكتشف عن وجود ذلك الـكتاب فى مصر القديمة .

أن مسألة ألا يكون لعمل من نوع مجموعة أوراق التاروت أى أصل معروف لا تسبب دهشة كثيرة . فالمجموعة تـكون من سبع وثمانون ورقة من الممكن تقسيمها إلى مجموعتين . فالمجموعة الأولى تتـكون من أوراق لعب تشبه أوراقنا التى نلعب بها باستثناء أنها تحتوى على صور بالإضافة إلى أرقام . . ثم هناك (الكوتشينة) اثنتان وعشرون ورقة تتضمن رموزا نموذجية مختلفة من القرون الوسطى مثل (المهرج) ، (الـكاهنة الـكبرى) ، (الخنثى) ، (البابا) ، (عجلة الحظ) وما إلى ذلك وتظل هذه الرموز لا تتغير من قرن إلى آخر .

وقد أعلن الكونت دي جيبلين الذى كان يكتب قبل الثورة الفرنسية على سبيل المثال صورة تمثل (الرجل المشنوق) وهى رسم لرجل مشنوق معلق من قدم واحد ورأسه إلى أسفل إنما هى نتيجة خطأ واضح وقع فيه صناع أوراق اللعب الأوائل وقال إن التصميم الأصلى للصورة كان يمثل الحذر والبراعة فى شكل رجل يقف على قدم واحدة .

إذن فما الذى تعنيه ورقة الرجل المشنوق ؟

إن لدى عدداً كبيراً من النسخ لها فى طبعات مختلفة وكلها اشترك فى أشياء معينة أن الرجل متعلق فى عارضة خشبية على شكل صليب فى مشنقة وقد ربط إليها بقدم واحدة أما الساق الأخرى فمنثنية وقسمها السفلى يتقاطع مع الساق الأخرى عند الزوايا الصحيحة صانعا بذلك صليبا على شكل حرف ت الفرنسية ومن الغريب تماما أن الوجه لا يعلوه أى تعبير ينم عن المعاناة أو الإحساس بالألم وهناك هالة ذهبية اللون حول رأسه وهى فى مجموعة أوراق الملك تشارلز السادس .

• • •

وهناك تفسيران لقصة هذا الرجل :

(١) أنه رمز لبروميثيوس انغرست قدماه فى السماء ويكاد رأسه يلمس الأرض (أنه العزيز الحر الذى أضحى قربانا . وهو كاشف حجب الغيب الذى حاصره الموت) وهذا كله جميل ولكن قدمى الرجل المشنوق لم تنغرسا فى السماء كما أن قدمه لم تلمس الأرض .

(٢) والتفسير الآخر أن ذلك الذى يستطيع أن يدرك قصة طبيعته الأسمى قد اختزلت وتضمنت فى داخل هذا الرمز سوف يتلقى من التلميحات ما يوحى بأنه من الممكن أن تحدث يقظة عظمى) .

أما أوزبنسكي فقد كتب فصلا شاملا عن (التاروت) فى كتابه (نموذج جديد للكون) الذى كتب فيه قصائد نثرية حول كل ورقة من الأوراق القوية الاثنين والعشرين فى المجموعة ، أنه يترك صورة الرجل المشنوق لكي تحتل المكان الأخير . . ثم يكتسب عندها لغة نبى من أنبياء الكتاب المقدس ويقول :

وسمعت صوتا تحدث إلى يقول :

امسك لسانك فهذا الرجل الذى رأى الحقيقة .

وعرف من العذاب مالا استطيع تماما أن اسببه أبداً على الأرض .

وهكذا يستمر طوال صفحات كاملة فى سرد عذاب الأرض وجنات الآخرة

ولكن فى الحقيقة أفضل طريقة يمكن بها التوصل إلى معرفة مجموعة (التكاروت) أن تحدق فيها ببساطة مثلما يحدق الطفل فى مجموعة الصور الملونة التى يمتلكها ومجموعة أوراق التكاروت صنعت بألوان براقة واضحة وهى تنتمى بعمق إلى المفاهيم التى سادت العصور الوسطى مثل الشعوذة والبله والأباطرة ولكن المشكلة الأساسية هى إقامة علاقة بين العقل الواعى والعقل اللاواعى وقد نهض مبتكر التكاروت بحدد تلك المهمة ورموز التكاروت تؤدى خدمة مزدوجة أن تعمل بوضعها نوعا من الأبجدية يستطيع العقل غير الواعى بواسطتها أن يبوح بالمعانى التى يحتويها ثم تستثير العقل غير الواعى بواسطة ما تتضمنه هذه الأبجدية داخلها من حيوية بطريقة تشبه قدرة البطاقة المثقبة على استثارة الحاسب الألكترونى إنه طريق تسير عليه حركة الفعل فى الاتجاهين .

القسم الثاني

تاريخ السحر

ويحتـــوى على :

الفصل الأول

تقدم الانسان

إذا كان من الضروري أن نفهم تاريخ السحر فلا بد أن نبدأ بمناقشة عملية التقدم والارتقاء ذلك انه إذا كان دافيد فوستر على صواب فإن تقدم الحياة وارتقاءها ما لم يكن حادثاً عارضا وقع بالصدفة وإنما شكلته ووجهته قوى تمتلك الذكاء والتصرف والهدف .

والسحر ايضا يفترض وجود مثل تلك القوى ٠٠ ومن الجانب الاخر يصر العلم على أنه من للمكن تفسير الكون تفسيرا شاملا على أساس ميكانيكي فإذا كان بوسعنا ان نثبت تناقض هـذا مع الحقيقة لأمكننا ان نقيم قضية السحر على أصلب أساس ممكن .

في عام ١٩٧٤ حضر جوته اجتماعا لجمعية العلم الطبيعي وهناك قابل رجلا كان يكره أعماله كراهية عميقة وكان هذا الرجل هو الشاعر شيلار وبينما كانا يغادران للبنى معاً قال شيلار ما جعل جوته يتعاطف معه ٠

قال :

— إنه لو أن العلماء كفوا عن تمزيق كل شيء وتقطيع روابطه التي تجمع أجزائه وتحويله إلى شذرات ومزق متفرقة لأن هـذا يجعل متابعتهم عملية صعبة وقد وافق جوته على رأيه وقال :

— هناك طريقة أخرى لفهم الطبيعة وإدراكها .

وهز شيلر رأسه وقال :

— ليست هذه تجربة معملية أو خبرة نشأت عن التجربة إنما هى مجرد فكرة فقط .

وبمعنى آخر فإن شيلر كان على صواب فإن نظرية جوته كانت مجرد فكرة ولكن ما كان يحتج عليه لم يكن هو منهج العلم وإنما تصوراته المسبقة التى يبدو فيها العالم كما لو كان باحثاً فى الحوادث العارضة يكالها الجهد .

ربما ساعدت مقارنة محددة على توضيح هذه النقطة . . فلقد اعتقد عالم النفس الدكتور واطسون إنه من الممكن تفسير جميع النشاطات الانسانية على أساس ميكانيكي .

ولنتخيل باحثا فى علم الإجرام هو يحقق فى جريمة قتل على أساس فكرة الدكتور واطسون وتخيلاته ولتكن الجريمة مثلا هى إن رجلا دس سم لامرأته بعد إن أمن عليها بمبلغ كبير من المال إن علم النفس ان يكون مهتما بأى شكل من الأشكال بجوانب الخطأ والصواب فى هذه القضية ولن يهتم حتى بمقدار ما يتمتع به الرجل من عقل لأن الحديث عن العقل والجنون يتضمن الحديث عن حرية الاختيار . . اما عالم الأجرام فسوف يبحث الجريمة كما يبحث أية حادثة عارضة أخرى ، ولنقل مثلا إنه سيبحثها مثلما يبحث حادثة سقوط جسر فى يوم عاصف فهى مسألة ضغوط مختلفة الأنواع فحسب .

من الممكن ان نرى حياة الرجل سلسلة من الاختبارات الرديئة التى لم يفكر الرجل خلالها فى أى شىء إلا فى مكسبه هو فقط او متعته الشخصية المباشرة . . وقد يبدو لصاحب هذا الرأى إنه لو كان قد وقع على سلسلة أخرى من الاختبارات مع قدر معين من المساعدة لكان الرجل قد أصبح مواطنا صالحاً وبكلمات أخرى ..

فإن صاحب هذا الرأى ينظر إلى حيـــاة الرجل باعتبارها سلسلة من الاحتمالات كان من الممكن لأى احتمال منها أن يتحقق . أما عالم النفس صاحب نظرية واطسون فإن فكرة الاحتمالات لن تطرأ على ذهنه بأكثر مما يمكن أن يتساءل عن السبب الذى يجعل الجبل جبلا وليس وادياً بالنسبة إليه تكون الوقائع هى حقيقة الجريمة وحقيقة المجرم وهو يدرسهما جميعاً مثلما يدرس عالم الجيولوجيا جبلا من الجبال .

وقد يسمى مثل هـذا الاتجاه نفسه باسم المنهج العلمى ولكن من الواضح أن هذا ليس هو الشىء الحقيقى فهو متزمت جامد أكثر من اللازم وقد اعترض شعراء مثل الشاعر العظيم بليك وجوته على مثل هذه النظرة الضيقة للعلم وأشاروا إلى أن العقل الإنسانى لا يعمل بهذا الشكل . أنه يعمل عن طريق سلسلة من القفزات الحدسية وليس عن طريق هـذا الخطو الثقيل البطىء المقيد الحذر . ومن الممكن التمسك الشديد بالحقائق .

فلو أننى قد قمت بفحص لوحة مرسومة بواسطة مجهر قوى لأمكننى أن أعرف شيئاً عن هدف الرسام ، ومقصــده من رسم اللوحة ولن يمكننى أن أعرف شيئاً عن هذا الهدف ، وذلك القصد إذا ماظللت متمسكا بالمجهر . إنما لابد لى من التراجع إلى الوراء ، والنظر إلى اللوحة فى مجموعها قبل أن أفهمها .

ونصل إلى هذا السؤال :

لماذا طور الإنسان حاسة الوعى عنده ؟ .

والإجابة هى أنه ربما كان قد فقد قدراته على التليباثى ، ولـكنه أيضاً كان قد فقـد عمى الألوان الذى كان يعانى منه . . . فحينما يبتهج الإنسان بالتناقض بين لون السماء الأزرق ، ولون الحقول الخضراء أو بألوان السحب

عند الغروب . . فإنه يكون فى هذه اللحظة فإنما يعمل على مستوى رفيع من الحيوية والقوة لايستطيع مثيله من المخلوقات أن يقوم به .

وإن الإحساس بالجمال هو النتاج للباشر للدافع التطورى للإنسان إنه إحساس مرتبط بالقدرة على إدراك ما هو معقد ، والسيطرة عليه . فلو أنى نظرت إلى منزل عصرى قائم بين الحدائق الخضراء ، وأحواض الزهور ، ونهر صغير يجرى عند طرف الحديقة فإن إحساسى بالجمال هو بالفعل إحساس بالتعقد والنظام . . . وكلما ازداد إحساس بعمق اليقظة . . واتساعها كلما استوعبت باقى الأشياء تلك المداخن وتقاطعات الدعامات الخشبية ، والنوافذ ، وأحواض الزهور البراقة الألوان . إنها تولد المتعة لأنها تولد إحساساً بقدرة العقل على السيطرة على بيئته . وقد أبصر منظراً لا يقل عن هذا تعقيداً من نافذة قطار سريع مثل أكوام أوساخ ، أو مداخن مصانع ورغم أنه لا يقل تعقيدا عن المنظر السابق فإنه لايولد أى متعة لأنه يبدو كالبركان على الفشل الإنسانى فى السيطرة على البيئة ، ودلالة على أن هؤلاء الناس قد تركوا حياتهم تهبط بهم إلى القاع . الإحساس بالجمال إذن هو إحساس بالتعقد أو التركيب وبالسيطرة عليه ولا يكفى إحساس منها دون الآخر .

• • •

ولكن الإنسان قد اختار الطريق الصعب الشاق الوعر . . ومن الحق أن تلك القدرة على إدراك العالم قد حققت نتائج هائلة . . فقد أصبحت الحياة أكثر سهولة إلى درجة لايمكن قياسها — على سبيل المثال — حينما تعلم الإنسان أن العشب يمكن أن يبذر ، ويزرع ، ويحصد . . وأن الحيوانات الوحشية التى يرهبها ويخافها من الممكن أن تروض ، وتستأنس ، وأن تربى للحصول على لحمها وجلدها ، ودهنها . . لقد وضع البروفيسور (ل . م . ويتنى) فى كتابه عن

تاريخ الاقتصاد الصينى وضع تقريرا مؤداه أن الزراعة يمكن تغـذى ما بين عشرين إلى خمسين ضعفاً مما يمكن أن تغذيهم عمليات الصيد من البشر .

وهذا يعنى أن الإنسان قد حصل على وقت فراغ يزيد على عشرين إلى خمسين ضعفا ولـكن من الجانب الآخر فإن هذه الحياة المرتفعة الوعى كانت من الضيق والـكآبة إذا ماقورنت بالصيد ، والغزو ، وشن الحروب ، إن الـكتاب الروما نسيين يحبون أن يعلنوا دائماً أن الفلاحين من أهل القرى أكثر قرباً إلى الطبيعة من ساكنى المدن ، ولـكن هذا القول ليس صحيحاً إلى حد ما .

فإن رجلا مثل بويز يتمتع برباط صدق غامض مع الطبيعة لأنه يمتلك الفراغ الـكافى لـكي يفـكر ولـكي يستخدم خياله .. اما فلاح العصر البرونزى فقد كان عليه ان يبذل جهدا هائلا فى العمل لدرجة تمنعه من ان يعتنى بخياله ، وبذلك فرغم ان المحراث قد حرره بمعنى ما من الاعتماد على الصيد اليومى فإنه قد وضعه فى سجن جديد من نوع آخر بيته وحقله وحظيرة اغنامه .

ولـكن ماحدث لامفر منه . . كان الناس الذين حافظوا على الدرجه العالية من مواهبهم النفسية القديمة نادرين . . إن القدرة النفسانية تنبع من نوع معين السكينة الداخلية . . يصبح العقل فى اثنائها صافيا مثل بحيرة صغيرة من الماء يسمح سكونها للطين ان يرسب فى قاعها . . اما الرجال الذين امتلـكوا تلك القدرة فقد اصبحوا هم الـكهنة والعرافين ، وما زال هذا إلى اليوم صحيحاً مثلما كان صحيحاً منذ خمسة آلاف سنة .

* * *

وهناك تقرير حديث عن هنود قبائل شوتشول فى المكسيك ، وهم يدينون بدين يعتبر من اقدم الأديان التى عرفها الإنسان ويصف التقرير « بشامان » « للدعو » رامون مدينا وهو فنان القرية الأول ، وقد حدث أن

زار هـذا الفنان قرينه فأحس بوجود الموت . وسار نحو منزل مغلق آخر حيث اكتشفت جثة رجل وجد مقتولا فى سطح المنزل .. ويعلق نورمان لويس على هـذا بقوله إن الجثة قد تم اكتشافها من خلال ظاهرة تلقى قبولا كاملا فى هذا الجزء من العالم ، وينقلها حتى آباء الإرسالية الفرانسيسكانية باعتبارها نوعا من الإدراك يتجاوز الحواس .

وفى الحضارة الحديثة .. ينغمس أكثر الناس فى أعمال روتينية مضجرة نادرا ما تستثير الإرادة ، وهى بالتأكيد لاتستثير الخيال ، والنتيجة حتمية لايمكن تجنبها .. إننا نشبه الطائرة ذات الأربعة محركات ، ولـكنها تطير بمحرك واحد وقوانا النفسية الطبيعية تغضب تقريبا حتى النهاية :

ولـكن هذه الملاحظة أقل كآبة فى الحقيقة مما تبدو وذلك لأننا لابد أن نسأل عما يؤدى بالفعل إلى الإضمحلال الماثل فى قوانا ؟ الضجر ، أما الميل إلى الهزيمة ، ولـكن ماهو الميل إلى الهزيمة ؟ إنه أساسا حيلة عقلية يفرضها علينا الجهل ، وهنا نتذكر قصة الرجل الذى ظل طيلة الليل متشبثا بأطراف أصابعه على حافة هوة صخرية ، ولما اشرق النهار تبين أن الأرض كانت تبعد عن قدميه ثلاثة أقدام فحسب لقد اختفى الخوف تماما حالما تمكن من الرؤية بوضوح وفى حالة الـكائنات البشرية فإن الميل إلى الهزيمة راجع إلى ذلك الانفصال عن أصولنا اللاواعية .. إننا معزورون فى الوعى كالسفن إذ تجنح فتغرز فى قاع الرمال .. ضع رجلا فى حجرة مظلمة وصامتة وسوف يجن فى خلال ايام قلائل .. أو أنه سيعانى فى النهاية من توتر عقلى بالغ .. لماذا ؟

لأن إرادته سوف تنهار حينما يصيبها العمى .. والانهيار أكبر إلى درجة لايمكن قياسها بالنسبة للسبب الذى ادى إليه فان قليلا من الضجر يؤدى إلى تفـكك معنوى كامل .

وكلما زادت معرفة الإنسان بكيفية تسليط ضوء كشاف باهر على أعماقه البعيدة كلما زادت قدراته على فهم قوته الفعلية . وكلما قل استعداده لذلك الانهيار المؤلم ومرة أخرى لابد لنا أن نعترف بأن أكثر احتياجاته إلحاحا في هذه المرحلة من مراحل التطور هي بعث قدراته النفسية القائمة وإعادتها إلى الحياة .

وفي هذا الصدد كان الإنسان البدائي يتمتع بميزة عظيمة واحدة تميزه عن الإنسان في العصر الحديث . . كان يعرف أنه يمتلك تلك القوى ، ولذلك حينما كان يريد أن يطورها فقد كانت المشكلة ببساطة هي مسألة أفضل الطرق لتطويرها فلابد للبصيرة أن تأتي أولا ثم يأتي أسلوب تطويرها بعد ذلك ثانيا .

وسنتناول بالبحث كلا من جانبي البصيرة ، والأسلوب في هذه الصفحات لابد أن يكون مفهوما — قبل كل شيء — إنه ليس هناك فرق أساسي بين التجارب الصدفية ، وبين التجارب التي تنتمي إلى عالم السحر أو علوم الغيب ، ولأن وعي الإنسان قد تطور بسرعة بالغة فإنه فقد الاتصال مع هويته الحقيقية وحينما يكون ضغطه الداخلي منخفضا — حينما يكون في حالة من الضجر ، أو انعدام الهدف — فإنه لايكون مدركا إلا لأكثر مستحبات هويته سطحية وقربا : وكلما زاد عمق إحساسه كلما ازداد ما يدركه من نفسه .

وهذا هو السبب الذي جعل الشاعر ييتس يقول :

حينما . . يقاتل إنسان مجنون

يسقط شيء من عيون طال بها العمى

إنه يستكمل عقله الناقص

يقف لبرهة مستريحا

يجلجل بالضحك . . . وفي قلبه السلام

إن السطر الهام هنا هو (أنه يستكمل عقله الناقص) .

وقد حددت المشكلة الجوهرية للبشر بوضوح جميل فى كلمات (مايرز) فى رواية : (القريب والبعيد) يقف الأمير الشاب جالى عند مشارف قصر كان قد سافر طيلة النهار لكي يصل إليه فينظر إلى مشهد الغروب على الصحراء . . وبينما يتأمل هذا المشهد يفكر بينه وبين نفسه قائلا :

(لقد كان هناك صخرتان تلك التى كانت متعة وانبهاراً للعين والأخرى التى كان من الجهد أن تجتازها على الأقدام) . ويبحث فى أعماق قلبه عن الإيمان بأنه قد يحدث له يوما منا أن يلتقى القريب والبعيد . أجل . . لا بد ذات يوم أن يمتلك ما يكفى من طول النفس واتساع الخطو والقوة لكي يحقق وعد الأفق بالوصول .

ووعد الأفق — تلك هى المشكلة — ليس فقط بالقضية للشعراء والمتصوفين ولكن بالنسبة لكل إنسان ومشكلتنا هى أن علينا أن نعيش مع الواقع القائم على الدوام تحت أنوفنا مثل ثور يحرك المصارع على الدوام قطيفته الحمراء تحت عينيه فلا يسمح له بأن يرى شيئاً أبعد من بضع أقدام وليس من الحق تماما أننا واقعون على الدوام فى فخ الحاضر القائم لأننا نحصل دائما على مسافة للتنفس تلك اللحظات التى يبدو فيها القلب كما لو كان يتجدد بالراحة والبهجة .

ولكن المناقض الشاذ هو العجز الغريب للوعى عن المحافظة على هذه البصيرة أو هذا الاستبصار أن الأمر ليبدو كما لو كان هناك عنصر بسيط مفقود وأنه هو الذى يترك الوعى لكي يصبح بالياً ومتخبطاً حينما يتعطل الوعى الإنسانى بوقوعه فى حالة الحياد يضيق ويفقد كل إحساس بالقيم وحينما يحدث هذا

يكف الإنسان عن التطاول إلى الخارج وعن ممارسة الرغبة فى الامتداد ويخبو الإحساس بالجدوى

وقد يمكن القول بأن الفارق الأساسى بين الإنسان العبقرى والإنسان العادي هو أن العبقرى يمتلك قدرة أعظم على التركيز بثبات على قيمه الحقيقية بينما يفقد الإنسان العادي الرؤية لأهدافه ولما يرمى إليه متغيراً متحولا من ساعة إلى أخرى بل يكاد يتغير من دقيقة إلى دقيقة والمجرم هو الإنسان الذى امتدت عملية استلاب القيم هذه عنده إلى مدى أكثر بعدا عن غيره .

لماذا أنفق كل هذا الوقت الكثير فى التأكيد على (عدم كفاية) الوعى الإنسانى . لأنه إذا ما تم فهم هذا لأمكن لنا أن نمح إمكانيات وجود نوع كفؤ وصالح من الوعى .

ولقد كان المتصوفون العظام والقديسيون وأصحاب الحدس والبصيرة فى الماضى كانوا هم ببساطة رجالا تحققوا من وجود بعض تلك الإمكانيات ولكنهم كانوا يجاهدون نحوها اعتمادا على الغريزة وحدها وسط نوع مما يشبه الظلمة المحيطة بالحدس مثل رجال يحاولون أن يكتشفوا طريقهم وسط الضباب . أما الإنسان الحديث فيمتلك إمكانية فهم الكيفية التى يعمل بها الوعى فيسير مباشرة نحو هدفه وقد توترت الإرادة إلى أقصى حدود كفاءتها .

ليست مشكلة الإنسان هى عجزه عن تحقيق ذلك النوع من الوعى الضرورى لتحقيق أقصى استخدام ممكن لقدراته وإنما هى عدم إدراكه مما يمكن أن يتحقق عن طريق مثل ذلك التركيز ويؤدي هذا الاكتشاف إلى صياغة مبكرة ذات أهمية محورية هى :

إن النزوع إلى معرفة الغيب ليس محاولة لإزاحة الستار عن المجهول ،

وإنما هو محاولة لإزاحة الستار عن العادية والابتذال اللذين تسميهما الحاضر القائم .

إن الطريقة الأساسية للقيام بهذا العمل بسيطة للغاية . إننى بشكل طبيعى (مغلول إلى نفسى) فإذا لم يكن ما أفعله بشكل خاص فإننى ببساطة قد أترك عقلى لكي يضل دون هدي فيفكر فى إشاعة ما .. أو يحاول أن يتذكر كلمات أغنية شائعة ما .. وقد استغرق فى مشكلة ما أو فى بعض الأحزان أو فى برنامج رأيته فى التليفزيون فى الليلة السابقة . إننى أختار ما أستخدم وعى فيه ويمكنك القول بأن الوعى يشبه الصندوق وأننى الذى يقرر ما يضعه فى الصندوق .

فلنفترض أننى أقوم بجولة فى منطقة البحيرات وتقع عيناى على منظر مؤثر لكننى سأراه من خلال غلالة من نوع معين — غلالة تصنعها ذاتى ومشاغلى الصغيرة السابقة .. إننى أسمح للمنظر أن يرتبط بذبذبات عادية لا شأن لها .

ولكن الذين فكروا فيما يحدث لو أن المنظر الذى أنظر إليه قد تصادف وارتبط بنوع من الذبذبات أكثر عمقا ، مثلا لو أننى كنت أنظر إلى المروج الخضراء حول (هاوورث بارسوناج) فجعلتنى أفكر فى رواية (مرتفعات وذرنج) ومأساة فتيات برونتى الثلاث ما الذى يحدث وأنا أشعر بالذبذبة المثالية الجديدة ؟ أن ما يحدث ببساطة هو أننى أنفذ من نظراتى الشخصية القريبة إلى الحياة النظرة الشبيهة بنظرة عين الدودة .

اتذكر ان الحياة اضخم — واكثر إثارة — واكثر اهمية — واكثر مأساوية مما كنت اراها — او بالأحرى إننى كنت اعرف هذا طول الوقت ولكني كنت اسمح لنفسى بأن انساها .

وتقوم كل أنواع الفنون بعملها بهذه الطريقة — بأن تنقذها من التفاهة التي نختارها لأنفسنا بأنفسنا وهي التفاهة التي نحن على استعداد لها إلى حد كبير . . إنه مثل نغمة عميقة يعزفها الأورغن فتجعل شعري يقف وتسرى الرعدة في كل جسدي . . إنني أتراجع عن الحياة مثل آلة التصوير السينمائي إذ تسجل لقطة بعيدة بعدسة ذات زوايا غامقة عريضة . . إنني ببساطة .. أصبح مدركا بوجود حقيقة أكثر وأكبر مما كنت أعرف من قبل .

من الواضح إنني أستطيع إما أن أقاوم ميلي الخاص للغرق في التفاهة أو أن أتقبله كشيء بديهي مسلم به . . إن ما يدعوه شو بفترة اليقظة الأخلاقية — والتي تطرأ على حياة أكثر الأذكياء للمثقفين في بداية مراهقتهم بها وقبل هذا أحيانا . . إنما هي مجهود عمدي مقصود للتخلص من تفاهة الطفولة ولتركيز العقل على مسائل من نوع أعظم .

الفن — العلم — الموسيقى — أو الإكتشاف

ومع (ذبذبة الجدية) يأتي نوع من « التصلب » الداخلي كما لو أن حبلا متدليا مرتخيا قد علق فيه فجأة ثقل ضخم .

وقد يحدث هذا التصلب من خلال جهد معين تبذله الإرادة أو يبذله الخيال فقد يحدث بشكل تلقائي - أي دون جهد واع ظاهر .

ولابد أن نؤكد ان هذا التصلب الداخلي (ذبذبته الجدية) هو هدف كل النظم الغيبية والصوفية لأن حينما تحـــدث فإن الإنسان يشعر بتزايد إحساسه بالقوة . . على الإنسان أن يتخلص من فخ قيمته الضيقة الخاصة وأن يبقى متفتحا للقيم الأكبر والأعظم من ذاته وأن يصبحوا غير مدركين لذواتهم باعتبارها شخصيات

والآن وقد حددنا هدف البحث وموضوعه ·

فإن السؤال التالى سيكون عن الأسلوب ·

فإذا كانت مشكلة الإنسان الكبرى هى نوع من التشتت والميل إلى صنع الجبل من الهباء المتناثر فمن الواضح أن الحل لا بد أن يكمن فى مجال التركيز ولقد كان هذا على الدوام هو النظام الدينى الجوهرى ·

ولكن هنا تكمن نقطة هامة لابد من إدراكها إن التركيز يشبه بالتحديد عملية تعلم الرياضيات والحساب فى المدرسة إنها قد تكون تمرينا منفردا إلى درجة كبيرة لا يثير شيئا سوى المشاعر أو العواطف السلبية فإذا كنت أكره الرياضيات فيكاد يكون السبب اليقينى لذلك هو أن تعليمى كان بطريقة رديئة ولأن لدى نوعا من المقاومة الداخلية للموضوع ·

ولا بد أيضا أن يكون التركيز تمرينا ممتعاً بشكل كامل · · فلا يطالب إلا لمجرد مايكمن فيه من بهجة خالصة ، وذلك لأنه حينما يمارس بشكل صحيح فإنه يحدث حركة ارتجاعيـة مباشرة · · وفورية نحو البهجة أى نفس ذلك الإحساس بالحيوية المتزايدة التى يشعر بها الإنسان فى النشوة التى تصيبه عند ما يتغلب على أزمة معينة ·

إن ما لابد من إدراكه هنا هو (هدف التركيز · · لنفكر فى ذلك المشهد الافتتاحى من (فاوست) حيث كان فاوست قد دفع نفسه إلى حالة من الهزيمة واليأس والسبب فى هذه الحالة واضح · · كان تفكيره قد أصبح فاصلا مجدبا لا هدف منه ولا غاية يسعى إليها · · وكان قد غرق فى حالة من هبوط الحيوية حيث لا يؤدى المزيد من الجهد إلى فعل ارتجاعى · · وحينما يكون على وشك الانفجار فوق أجراس عيد الفصح فجأة لكي تذكره بطفولته بوضوح وتدعوه للعودة إلى الحياة ويقول :

اشتياق حلو لا يمكن إدراكه
كان يدفعني إلى التجول عبر الغابات والحقول
وبألف دمعة محترقة
شعرت بعالم ينهض داخلي

لقد عاد الاتصال بالحقيقة الخارجية .. كان قد شق طريقه خارجا من الفقاعة الزجاجية التي كانت تحيط به :

من الممكن أن نرى على الفور انه إذا كان فاوست قد قرر أن يتخلص من ذلك القياس المحيط به عن طريق مجهد وأن التركيز لكان السؤال الحاسم هو البحث عما ركز عليه ، لقد وجهت أجراس عيد الفصح جهوده مباشرة إلى الواقع .

وقد كتب الشاعر (اليوت) فقرة مشابهة في قصيدة (أربعاء الرماد) بعد أن يصف الإجهاد والركود فيقول :

.. ورغم أنني لا أرغب في أن أريد تلك الأشياء
فمن النافذة العريضة صوب الشاطىء الصخرى
الأشرعة بيضاء ما زالت تطير صوب البحر
صوب البحر طائرة أجنحة غير منكسرة
والقلب الضائع يتصلب ويبتهج
في زهرات الليلة الضائعة وأصوات البحر الضائعة
والروح الضعيفة تسرع إلى التمرد
بسبب العصا الذهبية المحنية ورائحة البحر الضائعة

هنا نجد مرة أخرى تجربة عيد الفصح وأجراسه ولكنها هذه المرة تستثار بواسطة رائحة البحر والعصا الذهبية ودفقة البهجة والقوة التى عبر عنها الشاعر فى الأجنحة غير المتكسرة .

إن هذه القدرة على إيقاظ تلك النشوة الخالصة موجودة لدينا طول الوقت ولكننا نحتاج إلى فهمها قبل أن يمكن السيطرة عليها ، أن دفعه القوة التى تجعل القلب الضائع يتصلب إنما هى قوة تقفز إلى الخارج لكي تقابل الإحساس بالواقع .

ومن الممكن أن تتحقق نفس هذه اللمحة من خلال الأزمة . . أن القسيس جراهام جرين السكير فى رواية القوة والمجد لايجرب اليقين الكامل إلا حينما يكون على وشك أن يقف أمام فصيلة الإعدام لكي يطلق عليه الرصاص فحينذاك فقط يتبين فجأة (أنه كان من السهل عليه تماما أن يصبح قديسا) و (شعر كما يشعر شخص تأخر ثوانى معدودة ففاتته السعادة) تماماً . . إن الأمر يكاد يصل إلى الضحك فنحن ننفق حياتنا فى التحديق فى أشياء بالغة القرب حتى أننا نفشل ببساطة فى إدراك معانيها الواضحة . . يجرنا إلى أسفل نوع من الكسل ليس مايدعو إلى العجلة . . ثمة وقت كثير . . أنت يامن تقرأ هذه الكلمات الآن هذا هو شعورك . . هناك الغد . . واليوم الذى يليه . ولكن حاول أن تركز على ماحدث للقسيس السكير فى مواجهة حكم الإعدام . . إنه من خلال صدمة مرعبة يبدو أنه على وشك أن يموت الآن وفى غضون ثوان معدودة يتمدد كيانه الداخلى . وتتدفق طاقاته مثل موجة عاتية ، أنه يعرف أن يبذل مجهوداً جباراً أكثر من كل مابذله طوال حياته . . أنه مثل سندباد إذ يرمى عجوز البحر من فوق كتفيه . . أنه يجرب الحرية ثانية واحدة ثم يتبين فى يأس أنه كان يستطيع أن يبذل هذا المجهود فى أى من

الثوانى البليون أو نحوها التى عاشها . . لقد أضاع حياته فى نوع من الحلم . . إننا جميعاً فى هذا الموقف جميع البشر . . فإذا أمكنك أن تركز بوضوح على هـذا الموقف لأمكنك أن تدرك ماتعنيه الـكنيسة بالحديث عن الخطيئة الأصلية . إننا . أنت وأنا — لأكثر قوة إلا غير حد مما ظننا أبداً .

هذا هو ماينبغي أن ينصب عليه التركيز . . إنه لا يمكن أن يكون أكثر من نوع آخر من الحلم ومن الممكن أيضاً أن لا يكون محاولة لتفجير فقاعة الحلم .

ولـكن ثمة خطر معين فى اعتبار قصة هذا القسيس الـكبير نقطة انطلاق إلى التركيز . . خطر النظرة السلبية ليس هناك قـدر من استخدام الخيـال لاستثناء إحساسى بالألم إذا كان بوسع هذا الألم أن ينجح فى الوصول إلى تفجير الفقاعة وإقامة الاتصال مع الواقع . . ولـكنها إذا فشلت فإنها لن تؤدي إلا إلى زيادة القلق المـكبوت .

إن إقامة الاتصال مع الواقع بعد تفجير فقاعة الحلم هى تجربة من تجارب الذروة التى لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق أحد طريقين . . التعلم على طريق التـكرار دون خوف من فشل المحاولات الأولى حتى تـكتشف فجأة أنك وصلت فى قفزة واحدة أو قطع الطريق فى قفزات متتالية كالومضات بطريقة فاوست — ثم الارتداد ثانية حتى تـكتشف أنك قادر على تحقيق هدفك كلما أردت ذلك .

هذا ما يفسر جاذبية العقاقير . وخاصة تلك المؤثرة على الحالة النفسية لدى الأذكياء . . أنهم يظنون أنه إذا كان من الممكن الوصول إلى تجربة الذروة كلما شاء المرء ذلك بالعقاقير أو المحافظة عليها لمدة نصف ساعة فإنه قد يكون من الممكن أن نتعلم بسرعة كيف نستعيدها دون استعانة بالعقاقير .

ولـكن هذا القول يتضمن وهما خاطئا . . فإن معظم العقاقير تعمل عن

طريق تخفيض كفاءة الجهاز العصبي مؤدية بذلك إلى حالات غير عادية من الوعي على حساب القدرة على التركيز والتعلم وليس عليك إلا أن تحاول أن تتذكر قائمة قصيرة من الكلمات الأجنبية وأنت في حالة سكر خفيف لكي تتبين ذلك .

إن العقل قادر على الامتصاص عادة مثل ورقة النشاف . . وحينما نكون تحت تأثير الكحول فإنه يتحول إلى ورقة مصقولة لاقدرة لها على الامتصاص والعقاقير تقوم بعملها عن طريق إحداث شلل مؤقت في مستويات معينة من العقل مثل الخدر المرضي فتؤدي بهذا الشكل إلى خفض طاقاتها على الامتصاص والأسوأ من هذا هو أنها تؤدي إلى كبح عمليات الفعل الارتجاعي فحينما تشعر اللادي تشاترلي بأرض الحديقة وهي تهتز تحت قدميها وتتأرجح كسطح البحر فان مثل هذا فعل ارتجاعي ناشيء من تركيزها الكثيف على نشاطاتها الجنسية . . تركيز لثوان مائة في المائة يدفع إلى أعلى كالنافورة طاقات لا واعية هائلة نابعة من أعماقها . . وهذه الطاقات هي ما تستمر في التدفق والانتشار حينما تعود إلى بيتها .

* * *

ويصف كتاب (الكابالاه) تلك العملية بأنها ترتكز تركيزا كليا وشاملا الطاقة في نقطة واحدة مضيئة وقد كانت عبارة (الدرجة السابعة من التركيز) التي استخدمها الكاتبتن شوتوفر في مسرحية شو (منزل القلوب المحطمة) مرتبطة بهذه الفكرة من الكابالاه) اما جميع العقاقير دون استثناء فهي تؤدي إلى عكس التركيز أي إلى استرخاء العقل . . وفي حالة تعاطي العقاقير المؤثرة في الحالة النفسية فان الجهاز العصبي يتحول إلى (الدورة القصيرة) بحيث تكف النبضات عن اتباع مسارها الخاص وتتبعثر على جانبي هذا المسار خالقة سلسلة

من الأحاسيس . ولكن ليست لهذه الأحاسيس علاقة بالتركيز الواضح الصافي على الواقع الذي حققه القسيس الكبير .

إن جميع النظم أو الأنظمة التي تهدف إلى زيادة الانتفاع بتلك القوى تعتمد على مستوى مرتفع من التفاؤل وقوة العزيمة .

ولعل هذا مايعيدني ثانية إلى الفرض الذي أؤكده منذ البداية والقائل بأن العلم أو النسق المعرفي الذي لايتضمن مكانا للأرادة أو الهدف إنما هو عقبة تعوق التطور الإنساني وهو في هذه النقطة بالذات من التاريخ يعد عنصراً بالغ الخطورة .

* * *

الفصل الثانى

سحر الانسان البدائى

إن ما سأطرحه فى هذا الفصل هو إنه حينما ينتاب الإنسان إحساس قوي بقيمة شىء ما فإنه ينشط قواه ويستثيرها ، تلك القوى الكامنة فيما وراء الطرف البنفسجى لطيفه الضوئى العقلى . لقد تطور الإنسان إلى المرحلة الحالية عن طريق تعلم القيام بأشياء كثيرة بطريقة آلية إنه يتعلم مهارة صعبة معينة عن طريق مجهود واع ثم يمرر ما تعلمه ويسلمه إلى جهازه الآلى اللاواعى الذى يتعلم كيف يقوم بهذه المهارة بكفاءة وبطريقة آلية — مثل ركوب الدراجة أو التحدث بلغة أجنبية .

ولكن القيام بأداء شىء بطريقة آلية لا يعنى أنك لا تحتاج إلى أن تركز عليه . وقد عنى تزايد استخدام الإنسان لجهازه الآلى إطراد تضاؤل استخدامه لموهبة التركيز الكثيف . وهذا ما يوضح سبب ميل الإنسان الحديث إلى رفض الإيمان بما يملكه من قوى كامنة فيما وراء الطرف البنفسجى للطيف الضوئى فإنه نادراً ما يستعملها .

ورغم ذلك فإن تلك القوى تعمل حينما يمس إحساس الإنسان الحديث بالقيم مساً عميقاً — أى حينما يشعر حقاً بالقلق على شىء ما والاهتمام الحقيقى به . فإن غرض تلك القوى فى نهاية الأمر — هو نفس الغرض الذى ترمى إليه كل القوى الأخرى .

وهو دفع الحياة إلى التحرك بهدوء ونعومة ، وتجنب الكارثة ..

ولم يكن السحر البدائى شيئا أكثر من استخدام تلك القوى ، لقد كان بأكثر المعانى أساسية وثباتاً (سحراً تعاطفيا) ويؤكد ليسنر أن (شامانات) سيبريا (وهى تلك المنطقة التى نبعت منها الكلمة أصلا) لم يكونوا (أطباء سحرة) ولا ساحرات وإنما كان شيئا أشبه بالوسطاء . بينما تعنى كلمة (سام دامين) الرقص .

والشامان يستثير نفسه حتى يصل إلى حالة من التهوس للقدس أوالنشوة عن طريق دق الطبول والرقص حتى يصل إلى الإغماء الذى يفترض فيه أن روح الرجل قد فارقت جسده ، وفى إغماءته تصدر عنه أصوات مختلف الطيور والحيوانات ويفترض فيه أنه قادر على فهم لغتها . ويصف عالم تاريخ العقائد ميركا أفياد الشامانات بأنهم متخصصون فى النشوة ويورد هنا قائمة مدهشة بتلك الأعمال التى تقع فى متناول قدراتهم . فتتضمن قراءة الأفكار والعرافة والسير على النار واكتشاف اللصوص بالاستعانة بمرآة .

ويورد ليسنر وصفا دقيقاً تفصيليا لاحتفال شعائرى لإحدى القبائل يتضمن الرقص الفردى والجماعى على دقات الطبول ومشاركة المتفرجين للراقصين بالتصفيق والإنشاد ويندمج الجميع فى حالة بعيدة تماماً عن حياتهم اليومية ويختتم ليسنر وصفه قائلا :

وتتصاعد الثورة والهياج .. متنقلة بسرعة كالشرارة ، من شخص إلى من يليه حتى يقترب الجميع من النشوة . ويصبح كل واحد فى نفس الوقت مؤدياً ومتفرجا وطبيبا ومريضا منشداً ومطرقة .

ويضيف ليسنر : « لا أستطيع إلا أن أؤكد ما سبق أن أكدته

شير وكوجروف من أولئـك المجتمعين حول أحـد الشامانات إنما يجربون نوعا من الاشباع أكثر عمقا إلى غير حد مما نشعر به نحن بعد حضورنا عرضا موسيقيا أو مسرحيا) .

وهذا تعليق مثير للاهتمام لأننـا قد نسأل عن هدف الموسيقى بعد كل شيء وما هو هدف الفنون عموماً ؟

إنه محاولة لمواجهة تأثير الرد بوعى البشر الذى يمكن أن نسميه (عملية التشتت) طالمـا أنه عكس التركيز ونقيضه إن للبشر ذلك الميل القوى للإنسياق إلى حالة من اللامبالاة فيهدرون بذلك الوعى الذى كان من الممكن أن يستخدم استخداما ثمينا واللامبالاة تشبه الغرق فى النوم فى هـذه الحالة يكون إحساس بالقيم قد غرق فى النوم حقا وتقوم أى أزمة أو أى نوع من التحدى بوظيفة الساعة المنبهة لـكي تهزنى فتخرجنى من حالة الضجر والتجمد .

ولـكننى إذا أصغيت بتركيز شامل الى إحدى سوناتات موزار للبيانو فإننى سأحصل على نفس النتيجة . إنها تحدد مجرى عواطفى وطاقاتى العقلية وتمنع من حدوث التشتت .

إن الشامان قد بلغ درجة الـكهنوتية من خلال القيام بأكثر أنواع الواجبات والطقوس رعباً أى انها عملية تلقين موصول إلى المرتبة التى يسمى إليها من خلال الآلم . وتتضمن الطقوس عملية حك عنيف لوجهه بادة خشنة يقصد بها إزالة الجلد القديم وحتى الجلد الجديد أو البشرة الداخلية تحك هى الأخرى حتى تزال الرمز إلى الميلاد الجديد الـكامل ويطالب من الشامان فى قبائل الاسكيمو أن يقضى خمسة ايام كاملة غارقا فى المياه المتجمدة وهم يعتقدون ان روحاً لشامان ميت تحل أحيانا فى جسد الشامان الجديد وتسكن فيه وتغرق الشامان الجديد فى آلام هائلة ويتملـكه الاعتقاد بأن جسده قد تمزق إربا

وان الأرواح قد التهمته .. إنه يرى كل ذلك وهو فى حالة الإغماء ويقول ليسنر ان البقع الحمراء التى احتبست فيها الدماء تظهر على جسده . وتمتلىء ثيابه أحيانا ببقع الدم الحمراء .. وقد مارس شامان عجوز عملية تمزيق أوصاله هذه ثلاث مرات .

ان الهدف من عملية التمزيق هذه هو (هز العقل لكي يستيقظ) وهو بلورة الإرادة ، ذلك أن المشكلة الرئيسية للبشر هى السلبية وتفاهة الحياة اليومية والمشكلة هى استفزاز العقل أو نخسه لكي يخرج من حالة بلادته وسكوته ولدفعه إلى محاولة الوصول إلى أبعد مما وصل إليه .

وهذا هو السبب الذى يجعل كل أنواع الزهد ونزعات التنسك تبدأ بنوع من السيطرة الصارمة على الذات وأحيانا بتعذيب الإنسان لنفسه . لقد ظل المتصوف الألمانى صوصو فى القرن الثالث عشر يرتدى قميصا من الجلد مزودا بمسامير تثبت أسنانها من الداخل طوال ثمانية بأعوام ظل يحمل صليباً ثقيلا من الخشب ثبتت فيه مسامير ذات أسنان حادة .

ويقدم ليسنر حجة مقنعة بقوله أن رسوم الكهف التى رسمها إنسان العصر القديم بعضها يرجع إلى نحو عشرين ألف سنة تمتلىء شامانات يقومون بعمليات سحرية حيث نشاهد رجالا يرتدون أقنعة لرؤوس طيور أو جلد للظباء أو ثعابين البيسون .

أما العصى والقضبان القصيرة فتشبه عصى الطبول التى يستخدمها الساحر الحديث ولم يعثر على تلك العصى على أى طبول ولكن هذه الحقيقة تبدو غير مفهومة .

هذه هى إذن الصورة التى رسمها ليسنر لحياة إنسان النياندرتال وهى الصورة

التي أقامها على أساس سبعة عشر عاماً من الدراسة . لقد كانت حياة بدائية أكثر من حياة أي قبائل بدائية موجودة الآن في العالم . لقد عاشوا في الكهوف أو في خيام من الجلد فيما بعد وكانوا يرتدون جلود الحيوانات .

ثم بدأت التغيرات تحدث قبل ستين ألف عام وحينما أصبح الإنسان أكثر تحضراً أصبح من المحتم أن يكون السحر أكثر أهمية ذلك ان الإنسان مخلوق يسعى إلى المعرفة واليقين . وقد مثل السحر الشكل الرئيسي هذه للاثنين ، وبدأت عبادات جديدة في الانتشار لقد استخرج علماء الآثار تماثيل أنثوية صغيرة من أرض النمسا ومورافيا وإيطاليا وأطلق على هذه التماثيل جميعاً إسم فينوس . ومن المؤكد إنها تبدو تمثيلا لعبادة ربة ما . ربما كانت هي الربة البيضاء نفسها .

والكثير من هذه التماثيل يصور امرأة سمينة مما أدى إلى اعتقاد أنها ربما تكون وسائل سحرية تساعد على الحمل .

وحينئذ وبطريقة مدهشة تماماً . . . كف الإنسان البدائي عن صنع تماثيل ذات أشكال نسائية لماذا ؟ لأنها كانت أشكالا سحرية فإذا كان بوسعك أن تقتل طبيباً ثم تضع صورة له ثم تقوم ببعض العمليات السحرية عليها فإن نفس الشيء كان ينطبق على الناس لقد أصبح من الخطر ان يعاد تمثيل الشكل الإنساني كأن عصر السحر قد بدأ فإذا كان بوسعك أن تقتل الحيوانات بالسحر فلماذا لا تفعل نفس الشيء مع أعدائك ؟

إن النتيجة واضحة . . لقد كف الإنسان عن أن يكون مخلوقاً بسيطا وغريزيا سواء راق له ذلك أم لا . . فقد صار عليه أن يكون أكثر محاسبة ويقظة لكي يظل على قيد الحياة . وأصبح عليه أيضاً ان يصبح بمعنى بالغ

الخصوصية أ كثر عدوانية ليس ببساطة تجاه الناس الآخرين فقط ، وإنما تجاه العالم وقبل ذلك العصر لم تكن هناك سوى جماعات صغيرة من الناس يحيون حياة العصر الحجرى الحديث كان حجم كل جماعة منها محدودا بقدرتها على إنتاج طعامها فإذا تزايد عدد السكان بسرعة أ كثر من اللازم فإن الأفراد الأ كثر ضعفاً كانوا يموتون من الجوع .

وقد شجع هـذا الوضع نشوء وثبات موقف سلبى وسلمى تجاه الحياة والطبيعة أما المدن الـكبيرة فكانت أكثر رخاء وثراء لأن الناس كانوا قد سيطروا على مصادر طعامهم ولأن أشخاصا بعينهم أمكنهم ان يصبحوا متخصصين فى اشغال المعادن والنسيج والـكتان وما إلى ذلك .

وكانت هناك طرق عديدة امام الإنسان للمحافظة على حياته · العمل اليدوى أو التجارة او الاحتيال على أناس آخرين او اغتصاب ثمرات عملهم . وعلى عكس الجماعة فى العصر الحجرى الحديث كان هذا عالمـا كان فيه العمل المغامر هو أساس كل شيء وان يكون من قبل المبالغة أن نقول ان سباق الفئران بدأ فى بداية الألف الرابع قبل المسيح .

وازداد احتياج الإنسان للمزيد من الأرباب كلما زاد من توسيع نشاطات فحينما بدأ فى الملاحة عبر البحار احتاج لأن يقـدم التضحيات لإله البحر ، وحينما كان يشرع فى الخروج إلى سفر أو رحلة احتاج لأن يشعر بأنه أصبح تحت حماية رب المسافرين وما الى ذلك لقد احتاج كل نوع جديد من أنواع العمل إلى إله جديد .

كان الإنسان قد خرج لـكي يحقق السيطرة على بيئته وكانت وسيلته الرئيسية لتحقيق تلك السيطرة ما تزال هي السحر .

وفى هذه السطور سنحاول أن نلخص تاريخ السحر بالصورة التى كانوا فيها ضعفاء يموتون من الجوع .

فمثلا من حوالى مئتين ألف سنة ظهر إنسان (كرومانيون) وكان أرقى نموذج من النوع الانسانى ظهر حتى ذلك الحين وقد لعب السحر دوراً كبيراً فى حياته أكثر مما لعبه فى حياة النماذج السابقة ، كان السحر هو علم العصر الحجرى وكان إنسان كرومانيون هو أكثر المخلوقات التى ظهرت حتى ذلك الحين على الأرض ذكاء .

وحدث ما لم يكن بد من حدوثه فقد تحول سحر الشامانات التعاطفى الأبيض إلى سحرة اكثر شخصية وظهرت الكهانة ولابد أن نميز بوضوح بين الكهنة وبين السحرة والشعوذة وهما ببساطة محاولة استخدام قوى غير عادية مثل التواصل التليباثى عن بعد أو الكشف عن الماء اللذين يمثلان شكلين بسيطين من أشكال السحر . أما الكهانة فهى محاولة الاستخدام المنتظم عنهـا تلك القوى من طريق الرقى والتعاويذ والاحتفالات الخاصة والطقوس وما إلى ذلك وبذلك يمكننا أن نضع خطا مميزا بسيطا بين الاثنين بالقول بأن السحر سلبي فى جوهره بينما الكهانة كانت إيجابية .

ولكن ربما كان أكثر الفروق أهمية بين الاثنين هو ما يلى ان السحر يعتمد على مستوى من الوعى اكثر سمواً . وعلى إدراك للحقيقة أكثر اتساعا مما يمتلكه الناس فى العادة ، وفى هذا الصدد يرتبط السحر ارتباطا وثيقاً بالنزعة الصوفية وقد تعتمد الكهانة على قوى اكبر أو أسمى من القوى العاديه ولكنها تنطلق من الشخصية العادية اليومية ومن الوعى اليومى العادى . . والميزة الأساسية المميزة للشخصية اليومية العادية هى رغبتها الملحة فى السلطة والقوة : الرغبة فى المال والممتلكات والغزوات الجنسية

والمكانة الاجتماعية . . أما الدافع الصوفي فهو من الجانب الآخر يتنازل عن كل تلك الأشياء إن شاعراً مسحوراً يجتاحه إحساس بالثراء والغموض الذى يكتنف الكون والذى يجعل مطامح العاديين من الناس تبدو غبية مخطئة . ولقد يقال أن كل الناس إنما يمضون في الكذب لكي يكسبوا أصوات الناخبين و حتى الدون جوان الذى يكذب لكي يقنع فتاة بأنه يحبها . هذا حق . ولكن الفرق الأساسى هو أن الشاعر يرفض نفسه بشكل ما .

أنه ليس مهتما بنفسه ولا هو شغوف بشخصيته ولا بالوسائل التي تؤدى إلى زيادة عظمتها وقوتها أنه جدير بأن يفضل هو يصبح نقيا وواضحا مثل الماء العذب الصافي . . إن الفرق بين الكاهن والساحر هو أن الساحر ليس مهتما ولا مشغوفا مثل الشاعر أو العالم . وأما الكاهن فيريد السلطة الشخصية ويسعى إليها .

لقد ظهرت الكهانة إلى الوجود منذ ستين ألف عام . . ولكن حينما كان الناس يعيشون حياة بسيطة في القرى الصغيرة فإنها ظلت رمية لا أهمية لها من سهم سحر القبائل أو الشامانات ولكنها بمجيء حياة المدن فإنها خاصمت السحرة القدامى — أو خلعت رداءهم واتخذت لنفسها وجوداً مستقلا .. ومنذ ذلك الحين ظل السحر والجنس على علاقة وثيقة وهذا مافسر عنف العقاب الذى كان يوقع على الساحرات في العصر المسيحى .

ولكن ثمة سبب يبرر الظن بأن حدثا آخر بارزا قد لعب دوراً في تغيير تاريخ الإنسانية فى الألف الرابع قبل الميلاد الطوفان .

ففى أوائل العشرينات من هذا القرن ذهبت بعثة بريطانية أمريكية مشتركة بقيادة ليونارد وولى لاستكشاف هضبة أورابية (تل الأبيض) الذى يقع في منتصف الطريق بين بغداد والخليج العربي . . كانت هذه الهضبة هى

موقع مدينة (أور) القديمة الكلدانية وكان المعروف من أزمنة قديمة أن الكلدانيين هم مؤسسو علم الفلك وفن التنجيم .

وكان عصر العشرينات غنياً بكشوفه الأثرية التي أماطت اللثام عن فترات تعود إلى محصلة ابتكار الكتابة حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ولم تقل الكنوز المكتشفة جمالا وغرابة عن تلك التي اكتشفتها في مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ .

ولكن في صيف ١٩٢٩ وبينما كانت عمليات الحفر توشك أن تنتهي قدر لي أن ينزل بالحفر إلى أسفل ما كان يحتوى قبور النبلاء سومريين (كان وولى يدعوها بقبور ملوك أور) وهناك اكتشفوا ألواحا طينية أقدم من تلك التي وجدت في القبور ألواح ترجع إلى عصر ابتكار الكتابة وحينما استمروا في الحفر عثروا على المزيد من الفخار السومرى يشبه ذلك الذى كان قد عثر عليه من قبل وأصبح من الواضح أن الحضارة السومرية كانت قد ظلت مستقرة دون أن يلحقها تغير ظاهر عبر مرحلة زمنية طويلة .

وحينذاك ووسط دهشة الجميع بلغوا في الحفر طبقة من الطين الأبيض الناصع وكان سمكها يزيد على ثمانية أقدام وتحتها أو أسفل جانبها السفلى عثروا على المزيد من القدور الفخارية وبقايا آثار ومباني في هذه المرة كانت القدور الفخارية مصنوعة بالأيدى وليست مشكلة على عجلة الفخارى كانوا قد وصلوا إلى ثقافة العصر الحجرى .

كان العصر الحجرى مفصولا عن عصرى البرونز والحديد بعلامات تدل على حدوث الطوفان ودلت الحسابات على أن الطوفان قد وتم في حدود عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد وهو تحول الإنسانية العظيمة نحو المدنية .

● ● ●

وفى سبعينات القرن الماضى كان الباحث جورج سميث يعمل فى المتحف البريطانى وقد فحص بعض الألواح الطينية ذات النقوش من الكتابة المسمارية كانت قد وجدت فى نينوى ضمن الحفريات التى قام بها راسام وكانت تلك الألواح جزء من مكتبة الملك الدموى سنحريب المشهور فى التوراة .. وقد كان سميث هو الذي تبين أن الألواح كانت جزءا من قصيدة قديمة تدور حول البطل جلجاميش وكيف اقتنعت الآلهة بضرورة خلق انكيدو لكي يكون كفؤا لجلجاميش وكيف أن الصداقة جمعت بين الاثنين ثم رحيل جلجاميش إلى سوريا مع أنكيدو وقتالهما مع حارسه العملاق همبابا الذى يتمكنان من قتله ولدى عودتهما تقع قصة محاولة الربة عشتار إغواء جلجاميش وحينما يرفضها فانها تقنع الأرباب إرسال ثور هائج متوحش لتدمير مدينتهما ويتمكن جلجاميش وأنكيدو معا من ذبح الثور حينذاك ترسل عشتار مرضاً غامضا يفتك بأنكيدو ويشعر جلجاميش بالوحدة ويدرك فجأة أنه من أهل الفناء فيقرر أن يذهب لكي يستشير رجلا وهبته الأرباب الخلد ويرحل جلجاميش إلى جبل غريب يحرسه الرجال العقارب وينفذ إلى قلبه حيث (سيدورى) تخبره أن كل الناس ولدوا كى يموتوا بعد ذلك ولكنها ترضى فى النهاية بمعاونته أن تحكي قصة الطوفان الذى دمر العالم وكيف أفلت من الدمار الشامل بأن بنى لنفسه السفينة ونتيجة لذلك قررت الأرباب أن تمنحه الخلد وأن تفلته من الموت .

فليس هناك بقية طويلة لملحمة جلجاميش بعد ذلك فان ما بقى منها لم يكتشف بعد حتى الآن .

* * *

وقد اندهشت انجلترا الملكية الفيكتورية حينما نشر سميث ترجمته لقصة الطوفان المأخوذة عن جلجاميش وكانت هناك بعض الألواح الطينية

مازال مفقودة فتبرعت جريدة الديلي تلجراف بألف من الجنيهات الإسترلينية لكي تذهب فرقة للبحث عن الألواح المفقودة لم تكن إذن فرصة سميث في الحصول على تلك الألواح نسبة تزيد على واحد إلى مليون أو هي من قبيل المصادفات ولكن من العجيب حقاً أن يعثر عليها بعد خمسة أيام فحسب من العمل في الحفر .

ولكن أن بعض المصادفات الصعبة التصديق في عالم الحفريات الأثرية توقع الناس إلى الشك بالإيمان بربات القدر ، وقد استخرج سميث الجانب الأعظم من قصيدة جلجاميش بالصورة التي نعرفها حتى الآن .

والأساطير التي تتحدث عن الطوفان كثيرة ومنتشرة في ظل تراث أسطوري لجميع شعوب العالم وهو طوفان صحبته ثورات بركانية وأعاصير وانفجار ينابيع غزيرة وفي اليونان تلك الأسطورة التي تتحدث عن انفجار الأعاصير والينابيع الغزيرة ونجا دوكاليون ابن بروميثوس والسبب الوحيد لقيام هذا الطوفان الذي دمر به الإله زيوس العالم هو نفس السبب الذي تحدثت به التوراة من أن العالم قد أصبح فاسداً فساداً مطلقاً .

ويحكي أوفيد قصة الطوفان الهندي حيث يقوم بطلها مانو ببناء فلكه ثم يلجأ إلى أعلى قمة الجبل حينما يتدفق الماء بقوة .

وكذلك تحدث كتب أمريكا اللاتينية ممثلة في كتابها (بوبول فوه) وهو الكتاب المقدس لديهم عن نفس الطوفان .

ومن الممكن بطبيعة الحال أن تكون كل واحدة من تلك الأساطير إنما تشير إلى طوفان مختلف فليس مما يعقل أن تكون الصين وشمال أمريكا قد تعرضتا لطوفان واحد في وقت واحد ولكن ينبغي أن يكون تفكيرنا بالتالي :

إنه يكون ثمة حادث معين فى تاريخ الأرض انطوى على كارثة بلغت من الضخامة حــداً لا يكفى لأن يفرق الطوفان مساحات واسعة من الكرة الأرضية بأسرها .

والآن سنتحدث ببعض من التفصيل عن نظرية الجليد العالمى لهوربيجر :

إن هوربيجر هذا هو مهندس ألمانى غريب ولنظريته تلك مؤيدون كثيرون ويقول هوربيجر إن الكارثة حدثت بسبب القمر أو بسبب عملية أسر القمر الحالى الذى كان فى مجرد كوكب صغير اقترب أكثر من الأرض فى دورانه الحلزونى حول الشمس فأصبح تابعاً للأرض مما أدى إلى إحداث موجة تدمير أزالت بسطح الأرض تخريبا شديداً .

وإن الكون بدا حينما اعترضت كتلة هائلة من الجليد مسار الشمس فحدث ذلك الانفجار المروع الذى مايزال مستمراً حتى الآن . ويقول هوربيجر إن هــذا هو السبب فيما يلاحظه العلماء من أن الكون تمدد . ومن المؤكد إنه لا يوجد هذا الشىء الذى يدعونه (الفضاء الخالى) لأن الانفجار لا بد أن يكون قد بعثر مادته فى كل أرجاء الكون . فان ما ندعوه فضاء ممتلىء فى الحقيقة بكميات من الهيدروجين الخفيف وبلورات الجليد الرقيقة .

وسوف يكون من الممتع أن ترى كيف تصمد فكرة هوربيجر بعد النزول على سطح القمر ذلك إنه كان قد أعلن أن سطح القمر تغطيه طبقة كثيفة من الجليد يبلغ سمكها عدة أميال . وطبقا لما يقول هوربيجر فان أقمار الأرض الثلاثة السابقين قبل عملية أسر القمر الحالى الرابع كانت نيازك هائلة يغطيها الجليد اقتربت من الأرض اقتراباً شديدا .

ثم جاء اليوم الذى سقطت فيه هذه الأقمار على الأرض . ذلك أنها كانت قد تدور فى مسار حلزونى حول الأرض فكان لا بد أن تقترب مثله تقترب

إبرة الجرامافون من مركز الإسطوانة إذا جاز لنا أن نستعير هذا التشبيه عبر العلمى الحديث عن نظريات علمية على مستوى عالى من الدقة والعالمية وتفسر هذه الكوارث الهائلة عصور التطور فى الأرض مثل العصر الجليدى العظيم .

ويعتقد هور بيجر أن الطوفان هو الذى دمر قارة أطلانطيس القــارة المفقودة ولذلك فقد يكون هو الوقت الملائم للحديث عن تلك الأساطير .

• • •

ولنبدأ أولا الحديث عن أطلانطيس لما لها من تأثير كبير على الكتاب الذين تحدثوا عنها وكتبوا عنها الكثير من كتبهم التى لاقت رواجا كبيراً .

يتحدث أفلاطون عن أطلانطيس بأنها كانت أكبر من ليبيا وآسيا معا ولولا الدمار والطوفان الذى دمرها لكانت قد هاجمت مصر وأثينا وهى أعظم حضارتين كانتا موجودتان فى ذلك الحين .

ويضيف أفلاطون أن أطلانطيس كانت تفرض سيطرتها على الكثير من الجزر الأمر الذى يجعلها تبدو كمجموعة من الجزر بدلا من أن تكون أو بالإضافة إلى كونها قادرة على أن تكون قارة بمفردها .

• • •

وفى العصر الحديث لم تنقطع الكتابة عن أطلانطيس ففى كتاب (العالم الغارق تحت البحر — أطلانطيس) هو كتاب جدير بالاهتمام ومايزال قادراً على إثبات الخيال طوال ساعات ويؤكد المؤلف أن قارة أطلانطيس كانت قارة ضخمة تقع فى المحيط الأطلنطى وأن ملوكها وملكاتها أصبحوا الأرباب والربات فى ظل الديانات الأسطورية وأن هـذه القارة كانت أصل أسطورة دمرت من قبل .

ولقد أصدر كاتب أمريكي كتابا عن قارة أطلانطيس ، وهو كتاب جدير بالاهتمام يؤكد فيه أنها كانت قارة ضخمة تقع فى المحيط الأطلسي . وأنها كانت أصل أسطورة «جنة عدن» وقد دمرت منذ ١٣ ألف عام تقريبا

وجاء بعد دونيلى لويس سبنس وقام بكتابة ست كتب عن أطلانطيس وقد نشر حتى الآن أكثر من ألفين من الكتب والمقالات حول موضوع أطلانطيس ومن الموضوعات المشتركة بينها فكرة أن سكان أطلانطيس قد دمروا أنفسهم باستخدامهم السحر الأسود ولكن هذه الفكرة لاتتماشى مع رأى أفلاطون غير أنها منتشرة بما فيه الكفاية لذكرها .

إن هذا هو ملخص لتطور قوى الإنسان الخفية منذ فجر التاريخ إلى مرحلة دخولها فيما يشبه « برج بابل » المشوش الألسنة المختلط الأجناس وهى مرحلة التدهور والانحلال . . والسحر الأسود .

• • •

فحينما يمتلىء رأس إنسان بالخرافات والمعتقدات فانما هو ينتزع نفسه باستهانة من المكانة التى تتيحها له قدراته السحرية الطبيعية وحينما يأخذ فى تذويب التمثال الشمعى لعدوه فانما هو يسرع فى وضع نفسه فى حالة انتقامية وتافهة ويضع عقله فى نفس الوضع الذى هو عكس النزعة الروحية التى مثلتها الشامات (الكهنة والسحرة) وعكس أى نوع من أنواع النزعات الصوفية .

الفصل الثالث

خبراء ومبتدئون

إن الساحر أو الخبير المحنك هو نوع أو نمط إنسانى معين إنه يرمز إلى مصير الإنسان المتطور ويظهر هذا فى وصف بلوير ليتون فى رواية (للمكازون وللطاردون) بجوهره الحقيقى حيث يقول:

(لو أمكنك أن تتخيل أفعى جبارة تحولت إلى إنسان — محتفظة فى الشكل الإنسانى بنموذج الأفعى الأصلية لأمكنك أن تحصل على فكرة أفضل عنه عرض الجبهة وسطحها أو رشاقة القوام الدقيق يخفى قوة الفك المميت — والعين المرعبة الكبيرة الطويلة ، خضراء لامعة كالزمردة . . وإلى جانب كل هذا هدوء من نوع معين خال من الرحمة كما لو كان نابعا من الوعى بامتلاك قوة لاحدود لها

وحينما يضيف ليتون فيما بعد نهاية جديدة للقصة فإنه يمد هـذا الرسم السريع الخطوط فيحوله إلى صورة كاملة لرجل يبدو كما لو كان مزيجا من اليهودى التائه وكونت سان جيرمان .

ولكن لماذا هـذه الإشارة إلى الخطر الوشيك ؟ إن الأفاعى ترمز إلى الحكمة وترمز أيضاً إلى البرودة والقضاء المميت وأنها لفكرة مثيرة للاهتمام أن نتذكر أنه لاتوجد صور لأبطال خيرين فى الأدب العالمى هناك فى العادة صور أبطال لهم أخطاؤهم المهلكة وأربابهم العصية على التصديق . ولكن أقرب هذه الأشياء إلى الإنطان الحقيقى بالمعنى الأصلى لهذه العبارة . . هو

الشخصية الموجودة فى المسلسلات الهزلية الأمريكية ، أما الساحر المؤذى الذى رسمه ليثون وأشباهه فهو أقرب الأنماط التى يبدو أن الخيال الانسانى قد استطاع أن يقترب من خلالها من فكرة الانسانية الأسمى . وعلينا أن نتوقع التالى : إن افتقارنا إلى الاحساس بالمعنى إنما يعنى أننا نفهم السلبي بشكل أفضل من فهمنا الايجابى هل يستطيع أحد على سبيل المثال أن يتخيل واحداً مثل هتلر مساويا له تماما فى القوة ولكنه كامل الخير يسعى إلى السيطرة على العالم من أجل تحرير الفقراء ، والقضاء على معاداة السامية كلا . . إن رجل الدولة ، أو الحاكم الخير يميل دائما إلى أن يكون مثالياً عاجزاً عن التأثير .

أفضلنا لا يستطيع أن يقنع أحداً بينما أسوأنا

ملىء بكثافة حادة تلهب الخيال

ومختصر القول أن علينا الاعتراف بأن تلك القدرات ليست سوى أمر شائع وعادي إنها توجد على نطاق أكثر اتساعا وعمومية . مما تقبل مادة الاعتراف بي .

فكيف نستطيع أن نستجمع تلك القوي والقدرات ؟ ربما كان مما يتجاوز هدفنا أن نسأل : ما الذي يمنعنا من أن نستجمعها ؟ .

والجواب هو : الغمامات التى تغطى عيوننا ، والآفاق الحبيسة الضيقة التى تحبس نظرنا عن الحقيقة المقررة من أن وعى مشغول بأشياء تافهة من نوع البحث عن السبب الذى يجعل سيارتى تستخدم زمناً أكثر من اللازم . وما إذا كانت فتاة معينة لن تكون مخلصة لزوجها والطريق الوحيد الذى لاشك فى نجاحه من أجل تنمية تلك القدرات هو أن ينظم البشر انصرافهم عن التفاهات ، ورفضهم لما هو قريب وتركيزهم على ماهو بعيد .

لابد للإنسان أن يطور نوعاً إيجابياً من الوعى فقد بلغ الانسان وضعه

الحالى على سلم متطور والارتقاء من خــلال قدرته على تحويل عقله إلى ميكروسكوب ، والتركيز به على الأشياء الصغيرة الحجم .

إن التاريخ الانسانى هو تاريخ الصبيانية والمشاجرات البلهاء حول أسباب تافهة إنه أشبه بما كانت تقوله ربة البيت فى رواية : (تحت غابة اللبن) فى جملتها :

(قبل أن تسمح للشمس بالدخول إحرص على أن تمسح حذاءها) .

فأصبحنا بذلك عبيداً لقدرتنا المدهشة على الوقوف عند التفصيلات . .

ومن الواضح إن مثل هـذه المرأة لن تـكون قادرة حقا على الاستمتاع بأن تـكون على قيد الحياة . إنها أسيرة فى شرك سلبيتها الخاصة .

وهكذا نحن جميعاً .

وكان الماجى الذين اشتقت من إسمهم كلمة ماجيك أى السحر هم كهنة هذا الدين القديم ، وإنى لأود أن أقترح إذن كافتراض لن يمكن البرهنة عليه أبداً ودحضه . . إلى الماجى الأصليين قـد استمدوا قدراتهم السحرية من نوع ما من الوعى الايجابى من الاعتراف بأن الخضوع لايكون خيراً إلا بقـدر ما يظل متفتحا على حقيقة المعنى القائم خارج نفسه .

والوعى الايجابى حالة متفتحة سعيدة من حالات العقل الانسانى العاشق يمتلك وعياً إيجابياً — خاصة إذا كان قـد اكتشف لتوه إن الفتاة تبادله نفس مشاعره .

إن إحساس بما فى العالم من قدرة رائعة على إثارة الاهتمام .. وما زلنا نستخدم كلمة السحر بهـذا المعنى — إذ نتحدث عن سحر ليالى الصيف ، أو (سحر تلك اللحظات) ليس هذا سوء استخدام للغة إنما هو مايقوم عليه أو يدور حوله السحر الحقيقى .

إن القليل الذى نعرفه عن الماجى وكهنتهم . مستمد من كتب التاريخ لهيرودوتس الحكيم بنفس القدر الذى تقوم عليه معرفتنا بقارة الأطلنطيس مما ذكره أفلاطون بشكل كامل فكتب يقول :

(ليس لديهم صور أو تماثيل الأرباب ، ولا معابد ولا مذابح ويعتبرون أنفسهم إذا استخدموا مثل تلك الأشياء علامة على البلاهة ومع ذلك فإن من عادتهم أن يصعدوا إلى أعلى الجبال وهناك يقدمون القرابين والأضاحى إلى ريوس ، وهو الاسم الذى أعطوه لمجموع دائرة السماء ، ويقدمون قرابينهم بنفس الشكل إلى الشمس والقمر ، وإلى الأرض والنار والماء وإلى الرياح) .

كان كهنة الماجى هم سلالة كهنة السحرة (الشامانات) فى العصر الحجرى الحديث ، ولكن مع فرق واحد هام ، ولقد استخدم الشامان قوته من (مانا) القوة السحرية التى تتخلل الطبيعة .

أما الماجى فكانوا أيضا خبراء وباحثين متعمقين فى الدراسة ، والمعرفة ولقد عرفوا شيئا من علم الحساب والتنجيم ، كلاهما نشأ فى بلاد ما بين النهرين القريبة .

كما كانوا ماهرين فى عمليات الكشف عن الغيب بالعرافة والتنبؤ وتدين معتقداتهم الدينية بشىء من الهندوس ، ومن المؤكد أنهم قد اعتقدوا بتناسخ الأرواح وقدرتها على الانتقال .

ومن الاشارات القليلة إليهم التى توجد متناثرة عند الكتاب الكلاسيكيين .. فإنه يبدو بشكل مؤكد إلى حد كبير أن الماجى بدأوا كجماعة من المتصوفة ذات نظام أشبه بالنظام الذى تحدث عنه وردزوث .

إنهم فى أيامهم المبكرة الأولى كانوا جماعة من النساك العابدين والفلاسفة

مثل الأغارقة الذين كانوا يحتفلون بالأسرار أو مثل جماعة الأسنس واليهودية التي سنتحدث عنها فيما بعد .

وربما كانت أكثر ملامح هذه الجمعية القديمة إثارة الحيرة هي انهم لم يكونوا ضد أصحاب المعابد . فإذا كان ماقاله هيردوتس صحيحا عن أنهم كانوا يمارسون عباداتهم على قمم الجبال ..، إذاً فلا بد لنا أن نربط بين هاتين الحقيقتين لكي نستخلص أن الماجى كانوا من متصوفة الطبيعة بأكمل معاني هذه الكلمة .

ولا يبدو أن هناك شكا في أن الماجى كانوا جماعة ، أو تنظيما يتمتع بقدر غير عادي من النقاء فكانوا الحلقة الطبيعية الواصلة بين شامانا العصور الحجرية ، وبين العبادات السحرية المختلطة المشوشة في الحضارات المدنية .

كانوا التعبير عن اجتياح الإنسان إلى الهرب من المصير الحيواني وإلى أن (يرى من وراء الغلالة الحاجبة للنظر) .

أما جماعة الأسنس اليهودية فهي جماعة من القرنين الثاني والثالث ق . م فقد كانت لهم ايضاً طقوس تمهيدية يملأها الوقار ، وعلى المرشح أو الطامح في دخول الجماعة ان يبقى تحت الاختبار والملاحظة لمدة عام ثم تجرى له عدة طقوس لمدة عامين آخرين .

إن كل ما تشترك فيه جميع هذه الفرق هو الإحساس بما تبثه أسرارهم من جلال ومهابة ورهبة وورع ... ولكن الأسرار كانت مسألة مختلفة وكان هدفها هو رفع العقل إلى ما فوق التفاهة اليومية إلى مستوى التأمل الثابت في خصائص الطبيعة المعجزة ... وكانت الطريقة المتبعة في ممارسة الطقوس تحتاج إلى اجتهاد المرشح لدخول الجماعات . أو اعتناق الدين قادراً على أن يطابق بين نفسه وبين سائر الجماعات الأخرى .

قدرات خارقة

يحدثنا الانجيل من سفر أعمال الرسل الاصحاح الثامن عن شخصية هائلة في عالم السحر والقوى الخارقة عن شخص من السامرة وهو سايمون ماجوس (أو سايمون الساحر) الذى أعطى اسمه لأتباعه فأصبحوا : السايمونيين ... والسبب ما التزمه المسيحيون من حرص وقسوة فى تدمير كل وثائق هذه الجماعة ... فإننا لا نعرف عن سايمون إلا القليل .

وطبقا لما جاء فى الانجيل فانه اعتنق المسيحية ... والقليل الذى نعرفه هنه مستمد من الكتابات التى تركها مختلف آباء الكنيسة الذين كانوا يتخذون إزاءه موقفا عدائيا . (بل إنهم جعلوا اسمه اسما لإحدى الخطايا ، السايمونية ، بسبب الأسطورة التى تقول إنه عرض مالا على الرسل لكي يسبغوا عليه مقدرة إتيان معجزات كالمسيح) .

ومن خلال ضباب الأسطورة والمبالغات . يمكننا أن نستشف صورة عامة لرجل يتمتع ببعض القوى النفسية الخاصة (كالوسيط) ويكاد يكون فيثاغوريا فى حسه للمعرفة ، لقد تعلم أسراراً سحرية من كهنة مصر ومن كهنة الماجى الفرس .

ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء الأخيرون هم « الملوك الثلاثة » الذين حضروا ميلاد (يسوع فى الحظيرة) وكان تلميذاً لدوسيثيوس العربى ، الذى قال عنه الآباء الكليمينتيون أنه كان مسيحا كذاباً ، ومع ذلك فانه لا يبدو بالفعل إنه كان أسوأ من مؤسس فرقة الادريين . أما إن سايمون كان وسيطا ذا قدرات غير طبيعية فواضح من عملين « سحريين » يعزيان إليه : القدرة على أن يجعل جسمه يطفو فى الهواء ، والقدرة على أن يجعل قطع الأثاث الثقيل تتحرك دون أن يلمسها .

فاذا قبلنا إذاً بهذين العملين كامكانية محتملة ، ورفضنا القصص التى تؤكد أنه استطاع أن يجعل نفسه غير منظور أو أن يحول نفسه إلى حيوان . سيكون لدينا شخصية فيثاغورية أخرى . استطاع أن يوارى نفسه بين النزعة الدهنية وبين السحر (وقد قيل أيضا إنه كان قادراً على أن يعبر ناراً ملتهبة دون أن يحترق ، وكان بوسع الوسيط دانييل دنجلاس هوم فى القرن الماضى أن يمسك قطعة ملتهبة من الفحم بيده وهو فى غيبوبة الاتصال ، وكان يستطيع أيضا أن يرفع جسده فى الهواء بارادته وأن يحرك كتلا ثقيلة دون أن يلمسها ، ويقول من ذكروا هذه الأفعال إن هوم قام بها مئات المرات طوال أربعين عاماً وإنه كان يقوم بهـا فى وضح النهار وفى أمكنة خلاوية وبالصدفة يستحيل معها إعداد خدع أو حيل مسبقة تساعده فى أعماله) وقيل أيضا عن سايمون إنه استطاع أن يستحضر هيلين الأغريقية ملكة طروادة ثم وقع فى غرامها . ويقول أعداؤه المسيحيون إن المرأة كانت بغيا تدعى هيلانا ، جاء بها سايمون من مبغى فى صور .

ولكن من المهم أيضا أن نذكر إن سايمون أطلق عليها إسم « سيلين » ربة القمر ، وهو مايكفى لدفع المرء إلى الشك فى إن مايجرى حقاً إنما كان صراعا بين المسيحية المذهبية الجامدة وبين عبادة ربة القمر ، الربة البيضاء القديمة .

ويقول اليفاز ليفى ، بخيالياته المعتادة البعيدة عن الدقة : « أصبح سايمون عاشقا لخادمته (هيلين) عشقاً مليئا بالانفعال ، وهذا الانفعال يضعف ويزيد صاحبه جداً فى نفس الوقت ، فأعادت إليه حالات الصرع التى كانت تنتابه إلى جانب الظاهرة المهلكة التى كان يطلق عليها إسم موهبته فى إتيان العجائب . وانطلقت من رأســـه ديانة خرافية كاملة مليئة ببقايا عصور السحر الممتزجة بالأحلام الشبقية العنيفة ، وراح يطوف البلاد ، حاجاً ، مثل الرسل ، حاملا معه هيلين ... » .

لقد أمكن أن يقال كل ذلك لأن هـذا هو ما يناسب الأسطورة التى صاغتها الـكنيسة عن سايمون . وطبقا لهـذه الأسطورة ، يبدو سايمون بشكل أساسى كشخصية تراجيدية . ساحراً أسود كان غالبية سحره مجرد وهم — ألهمه إياه أبو الـكذب نفسه . إنه يريد القوة والزعامة والنبوة . ولـكن يفتقر إلى النقاء وسمو العقل الضروريين (ومن هنا يأتى عرضه لشراء السحر من الرسل) .

وتمضى به الأسطورة إلى حيث يذهب إلى روما فيصبح مقربا من نيرون مستخدما الخداع والحيل والتنويم المغناطيسى لـكي يدعم وضعه . ويستطيع سايمون أن ينوم واحداً من حراس نيرون ويقنعه فى النوم انه قد قطع رأسه من جسده ، فى الوقت الذى لم يكن قد قطع إلا رأس ظبى صغير ، وبذلك يقنع نيرون بأنه يستطيع أن يحيى الموتى . ويصبح سايمون ساحر البلاط عند نيرون ، ويختفى اليهود فى روما بتعاليمه الغنوصية ، ويحاول الرسول بطرس أن يساعد مواطنيه المخدوعين فيذهب إلى روما ويتحدى سايمون فى مباراة سحرية . ويستحضر سايمون كلاباً ضخمة تندفع نحـــو بطرس الرسول . ولـكن بطرس يجعل الـكلاب تختفى بأن يبرز فى وجهها رغيفا من الخبز المقدس . وحينئذ يرفع سايمون جسده ، ويطير خارجا من النافذة . ولـكن سانت بيتر (القديس بطرس) يجثو على ركبتيه ، وينزل سايمون مرغما بصلاته الخاشعة التى ابتهل فيها إلى الرب أن يسقط الساحر . ويموت سايمون بسبب تحطم ساقيه ، ويلقى بطرس فى السجن بأمر نيرون : وسوف يهرب بالطبع طالما انه يملك كل الأوراق القوية .

وليس هناك إلا القليل الذى يمكن أن نعرفه من هذه الصياغة المسيحية القصة ، باستثناء اختيار سايمون لظبى يذبحه لـكي يمثل به نفسه ، وعلاقته

مع العروس هيلين ، وهى ما توحى بأن المسيحيين ربطوا بين سايمون وبين بعض الطقوس الجنسية الوثنية .

ويقول الأسقف « ايرونيوس الغالى » فى رسالة رفضه للنزعة الادرية ، إن السايمونيين اعتقدوا بأن الحكمة (صوفيا) قد سجنت فى الأرض على أيدى الأركونات السبعة وتعرضت لكل أنواع المهانة ، بما فى ذلك سجنها فى جسد امرأة وإجبارها على أن تكون بغيا فى بيت للدعارة . فهل يمكن أن تكون حكاية هيلين فى قصة سايمون مجرد مصادفة ؟ أم هل عبد السايمونيون امرأة باعتبارها تجسيداً للأنوثة الأبدية وربما كانت تشير إلى نشوة الجماع الجنسى بالاشارة إلى أصلها المقدس الإلهى ؟ إن العادة المسيحية التى تقتضى بتدمير سجلات التاريخ تعنى أننا لن نعرف الحقيقة أبداً . إن معرفتنا بالادريين تبقى معرفة عامة وغامضة : إننا نعرف أن السايمونيين قد مارسوا السحر ، وإن النساك اليهود قد مارسوا نوعا من العلاج الروحى ، وأن الكنعانيين نظروا نظرة متعاطفة إلى يهوذا . وأن سيرينثوس ، قائد السيرانثيين ، ربما كان هو مؤلف سفر الرؤية الذى ينسب عادة إلى القديس يوحنا ولا يمكن أن يكون هناك سوى شك قليل فى أن الادريين قد حافظوا على الكثير من تقاليد الأوربيين وأفكارهم ، وأنهم لذلك يقفون فى نفس الخط المستقيم من السلالة التى جاء منها السحر الغربى وتراثه فى العصور الوسطى .

لقد وجد المؤرخ جيبون شيئا من الصعوبة فى كبت سخريته حينما كان يكتب من المراحل الأولى من تاريخ المسيحية فقال : ان قوانين الطبيعة كانت كثيرا ما تهجر وتطرح جانباً لصالح الكنيسة . وحينما ندرس الوثائق المرتبطة بتلك المراحل ، سيكون من الصعب ألا نشعر بنفس الاحساس . لقد كانت المسيحية (فى فترة ما) أكثر منها ديناً . لقد اعتمدت على الخوف والهستيريا والجهل ، وقد انتشرت فى العالم العربى ليس لأنها حق . وإنما لأن البشر سذج

يسهل انخداعهم مؤمنون بالخرافات . ان رؤية كرفاديس التي كتبها شاينكويتز، تطلعنا على جماعة من النفوس العظيمة تتحدى وتقهر روما الجبارة لأنهم كانوا يمتلكون حقيقة أسمى من تلك التي يمتلكها الوثنيون ، ولـكن قد يكون من الأكثر دقة أن نفكر في المسيحيين الأوائل باعتبارهم حركة جماهيرية قريبة الشبه من حركة بيلي جراهام أو شهود يهوه ، ثمة شيء منفرد وكريه في الطريقة التي يمدحون بها أنفسهم بنفس الحماس الفني الذي يميز إعلانات التليفزيون ، لقد تم اختراع قطعان بكاملها من الشـياطين بهدف اثبات أن القديسين يستطيعون التغلب عليهما بقليل من الصلوات . ففي قصة مثل قصة السـاحر سيبريان ، الذي أصبح « سانت سيبريمان » فيما بعد ، وهي القصة التي وردت في كتاب « الأسطورة الذهبية » يتفاخر الشيطان بكلام كثير : « لقد بذرت الفوضى في السموات . وطرحت الملائكة على الأرض ، وخدعت حواء . . وصبغت الأرض بالدماء ». وما إلى ذلك . ويعلق الـكاتب قائلا : « يقول كل هذا ، دون أن يعرف الملعون المسكين الضعيف ، ان قوة المسيح لا تقهر » وهذه صورة نموذجية لنغمة الـكتاب المسـيحيين الأوائل ، فإنما هم بذلك يقضون على أي نوع من الاهتمام الرياضي في الصراع ، ويجعلون الناس الذين يملكون شرارة الاستقلال يشعرون بأن الأفضل لهم أن ينحازوا إلى الشيطان. ان سيبريان يريد من الشيطان أن يساعده على التغرير بفتاة تدعى جوستينا ، التي كانت قد تحولت إلى المسيحية وأصرت على أن تبقى عذراء ، ورغم أن انطاكية كلها يجتاحها طاعون مهلك (تقهره الفتاة في سنته السادسة عن طريق الصلاة ، فإنها تظل منيعة على هجمات الشيطان ، وأخيراً يعترف الشيطان بأن « المصلوب أعظم من الجحيم » ويقرر سيبريان أن يصبح مسيحيا .

ليس الغرض من هذا الـكلام أن يكون اتهاما للمسيحية بوصفها هدا . فالدين يقيم باسمى تجلياته وما يجسدم . لا بأ كثرها هبوطا . أما كل أنواع

الدعاية فالمقصود منها أن تؤثر فى ذوى العقول الضعيفة ، ولا تستثنى من ذلك سير القديسين والكتابات الدعائية للمسيحية . ولا بد أن تقيم المسيحية بمتصوفيها وبالنزعات التصوفية فيها ، وليس بما تحتويه من « نصب دينية » إذا أمكن ان نستخدم هنا عبارة مارلو .

وربما كانت أكثر الاعتراضات التى وجهت إلى المسيحية أساسية هو اعتراض نيتشه . إنها تمجد الفضائل السلبية . لقد اجتهد القديس أوغسطين لكي يبتكر المقابلة بين « مدينة هذا العالم » وبين « مدينة الرب » عبر ما يقرب من ألف صفحة من كتابه الأكبر ، ويحمل هجومه على المدينة الأرضية قوة الاقناع ، فهو يرسم كبرياءها ، وغرورها وقصر نظرها وتفهيتها — وباختصار، عبوديتها للشخص وحده ، ويتوقع المرء من مدينة الرب أن تكون مدينة يحكمها الاندفاع صوب غير الشخصى بواسطة الرؤية والمقدرة على الخلق .

وبدلا من هذا يتحدث أوغسطين عن التضحية بالذات ، والطاعة ، والتواضع ، والعفة ، وكلها فضائل سلبية . وفى ظل هذه الظروف ، لا يكون من المدهش ان المسيحيين الأوائل قد أمضوا معظم وقتهم فى الشجار فيما بينهم ، وفى احراق « المراطقة » ، وفى اختراع قصص يملأها الهواء عن الشياطين .

إن قراءة أى كتاب من كتب التاريخ المسيحية المبكرة — مثلا كتاب جون كاسيان : « مؤسسات الحياة الرهبانية » الذى كتب حوالى ٤٠٠ ميلادية يعنى التخبط عبر مناقشات طويلة عن الأخطاء والخطايا — الدوافع الشهوانية ، والشبق ، والزهو الزائف ، والكبرياء وما إلى ذلك . إنه يصف اللامبالاة — مرض الملل الذى أصيب به أوبلوموف — ويصف العمل اليدوى له علاجا .

وقد كان أوغسطين على حق فى اعتباره أفلاطون أهم رائد وثنى للمسيحية لأن أفلاطون كان أول من عبر عن الفكرة القائلة بأن النفس تعيش كل زمانها فى محاولة تحرير نفسها من الجسد ، وإن الموت لهذا السبب : « اكتمال لابد

من الإخلاص فى الرغبة فيه » أما الأغارقة الأقدم عهداً ، فانهم لم ينظروا إلى النفس أبداً باعتبارها عدواً للجسد بشكل ما . كانت النفس Pneuma هى نفحة الحياة ، ولكن الشبح الذى هبط إلى العالم المادى الأسفل كان يشكل نسخة مطابقة من الجسد ، والمبدأ الذى بث فيه الحياة ، وليست عدوة له . حدث بشكل مفاجىء تماما ، وبعد أربعة آلاف سنة فقط من الحضارة أن أصبح الانسان واعظا لنفسه مدركا بوجود جزء من ماهيته ذهبت إلى ماوراء الجسد وشؤونه اليومية ، ولقد كانت احتياجاته حتى ذلك الحين بسيطة : الطعام والشراب والأمن وقدر معين من الاثارة ، ولكنه راح يزداد ما يمكن أن يسمى « الاحتياجات العليا » الاحتياج إلى توسيع وتعميق الوعى ، ولكنه لم يفهم هذا . لم يكن يملك المفاهيم اللازمة لادراك مايحدث . ومثل يسوع نفسه لم يكن قد بشر أبداً بالتأكيد بحرب تشنها النفس ضد الجسد ، إنما بشر بالحب الكونى . بمبدأ العون المتبادل ، وكان اكتشافه هذا رأياً شائعا أو عقيدة سائدة أكثر منه اكتشافا ميتافيزيقيا . كان هو المبدأ الاقتصادى لتقسيم العمل .. كان يسوع رؤيا تنبأت بملكوت الرب على الأرض ، وأراد أن يقنع البشر بأن يتصرفوا كالآلهة لا كالحيوانات . لم يكن يحمل مقتا للجسد بوصفه جسداً ، وكان على استعداد كامل لأن يأكل مع العامة ومع الخاطئين لقد كان القديس بولس هو من اخترع دين النزعة الخلاصية الذى اعتمد على تهذيب الذات والذى ازدهر اعتماداً على الهستيريا أو إثارة العواطف الحادة ، ولقد تصادف أن تناسب مع احتياج الجنس البشرى عند تلك النقطة من التطور أن يتم رفض « الذات السفلى » التى تعيش وتموت كالحيوان .

وقد فشلت ديانات الاغريق وروما لأنها افتقرت إلى الجدية والعمق . وكانت الانسانية تحلم على الدوام برؤية الحرية . كان البشر فى قبضة الأمراض العصابية التى تسببها الحضارة . وكان مايزال فى وسع غرائز الانسان أن تتذكر

الأيام التى عاش فيها على صيد الدب والرعى فى المراعى الشاسعة . كان كطفل فى السنة الأولى فى المدرسة يشتاق إلى أيام اللعب والحرية . واتخذ الاشتياق شكل الحنين المرضى للعودة إلى نوع من العصر الذهبى . وقد فازت المسيحية على الأديان المنافسة لها وأبعدتها ببساطة عن طريق تقديم حلم تناسب بشكل أو بآخر مع هذا الحنين .

وقد كان من الممكن لديانة ديميتير أو ديانة أورفيوس اليونانية أن تكونا منافساً خطيراً ، ولكنهما كانا قد فقدا حيويتهما عبر القرون ، كما أنهما اعتقدا بالتناسخ على أى حال ، وكانت فكرة الولادة من جديد ، مرة بعد مرة إلى الأبد والمجىء بالتالى مرات لا نهاية لها إلى الأرض فكرة أقل إشباعا من فكرة الجلوس إلى يمين يسوع فى فردوس أرضى .

أما دين ميتراس ، الرب الشمس ، فكاد أن يكون متطابقا مع المسيحية فى عناصره الأساسية : المخلص ، وقدر هائل من النعيم (أو النقمة على الكافرين) — وكاد هذا الدين فى لحظة معينة أن يحل محل المسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، ولكنه كان يفتقر إلى حماسة المؤمنين الجدد التى تميز بها المسيحيون الأكثر شمولية ، فقاموا فى الوقت المناسب بطرده وتصفيته بالكفاءة النفاذة المعتادة ، ولابد لنا أن نتذكر إن الديانة الديونوزيسية قد أحرزت مثل هذه القبضة القوية ، بشكل جزئى — لأنها أعلنت مثل تلك التهديدات المرعبة : فقد هددت من يعارضها بأن يفقد عقله وأن يجن وأن يلتهم أطفاله وما إلى ذلك ..

كان الدين المسيحى ما يزال يمثل خطوة ضخمة إلى الأمام بالنسبة للجنس البشرى . فلأول مرة فى تاريخه العنيف ، اعتقد قسم كبير من البشر اعتقاداً كاملا بفكرة جامدة لم تكن مرتبطة بحياتهم اليومية ، ولهذا الأمر أهمية بالغة التفرد ذلك أن الحياة اليومية كما لاحظنا من قبل ، توقع الانسان فى شرك

صندوق صغير اسمه : الحاضر الناعم ، وهى تدمر إحساسه بالهدف البعيد المدى بنفس الكفاءة التي يسلب بها « الفداء الأسود » من الصقر شراسته .. وهكذا ، فرغم أن الكثير يمكن أن يقال ضد المسيحية القديمة ، فلا بد أن نعترف بأنها امتلكت فضيلة رجحت كل الأخطاء . فقد حولت القسم الأعظم من البشرية إلى مخلوقات ذات هدف معين . فإذا كانوا قد آمنوا بشكل حرفى بالأبالسة ، فإنهم قد آمنوا أيضا بالملائكة والسموات .

كانت القرون العشرة الأولى من تاريخ المسيحية هى الانحدار إلى الحضيض بالنسبة للساحر . لقد آمن الجميع بالسحر ، بالطبع ، ولكنه كان يعتبر المملكة الخاصة بالشيطان . . . وظهرت أسطورة كان لها نفوذ هائل على العصور الوسطى ، كانت تدور حول قسيس يدعى ثيوفيلوس ، ولما كان من الواضح أنه مخلوق بالغ الفقر من الناحية الروحية ، فقد رفض عرضاً قدم إليه لكي يكون أسقفا على أساس خوفه من المسؤولية ، ولكن الرجل الذى قبل المنصب راح يعذبه حتى أشرف على الموت . واتصل بثيوفيلوس يهودى عجوز شرير (وكان اليهود فى ذلك العصر هم كبش الفـــداء) استطاع أن يستحضر الشيطان . ووافق ثيوفيلوس أن ينكر مريم ويسوع (اللذين قال عنهما الشيطان أنهما يعاديانه) وفى مقابل هـذا الإنـكار انقلبت حظوظ ثيوفيلوس . فخلع منافسه ، وأصبح هو أسقفاً فى مكانه . بدأ يخاف على خلاصة الأبدى ، فراح يصلى للعـذراء مريم أن تهب لمساعدته وفى الوقت المناسب استطاعت أن تحصل على عفو من الرب عن ثيوفيلوس ، الذى اعترف بخطيئته علنا ، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير فى جو من الزهـد والثبات الروحى ، بعد أن أحرق شريكه الشيطان .

لسبب ما لمست هذه القصة عواطف المسيحيين طوال ألف عام ويحدد ا . م . بطلر التاريخ بأنه يمتد من ٦٠٠ إلى ١٦٠٠ ميلادية . وكانت هذه

هى القصة الأولى من نوعها : خادم من خدم الكنيسة يتواطأ مع الشيطان ، ويقترب من اللعنة الأبدية (وهى فكرة كانت تبث الرعدة من الرعب فى قلب كل إنسان) ، ولكنه ينتهى بالابتهال إلى العذراء المباركة ، التى كانت قد تحولت بالفعل إلى رمز الحنان والرحمة فى الكنيسة . وكان من الممكن صياغة تعديلات من هذه القصة لانهاية لعددها ، فتصور أنواع المهانات التى يتعرض لها ثيوفيلوس على أيدى منافسه الناجح ، والحيل السحرية التى يقوم بها الشيطان لخلع الأسقف المنافس ، ومخاوفه وندمه . كانت القصة ، تحتوى على كل شىء ، كما قد يقول منتج من منتجى هوليوود ، وكانت هذه القصة هى البداية لتراث القصص المشابهة ، التى تبلغ ذروتها بقصة فاوست وأسطورته . كانت ديانة الشامانات القديمة قد نسيت تماما . فاذا تصادفوا واكتشف أحدهم رسوما من العصر الحجرى على جدران أحد الكهوف تصور السحرة المرتدين الأقنعة ذات القرون ، لكان من الطبيعي أن ينظر إليها باعتبارها دليلا على أن البشر القدماء كانوا خاضعين لسطوة الشيطان قبل أن يأتى يسوع من السماء لكي يخلص الجنس البشرى

ولم تعد المسيحية دين المقهورين بعد تحول الإمبراطور قسطنطين (عام ٣١٢ م) ، وفجأة أصبح المسيحيون هم « المنتصرون وشرعوا فى قهر غيرهم بكفاءة يحسدهم عليها نيرون نفسه ، وبأمر من أسقف الاسكندرية (الذى يؤيده الإمبراطور ثيودوسيوس) أحرقت مكتبة الاسكندرية ـ التى كانت تضم ـ بين أشياء أخري ـ مجموعة الكتب الخاصة بأرسطو . كانت المعرفة شرا ، ألم يطرد آدم من الجنة لرغبته فى أن يعرف ؟ إلى جانب أن الباحثين فى المكتبة كانوا موضع شك فى أنهم يمارسون السيمياء ، وهى محاولة تحويل العناصر الخسيسة إلى ذهب واكتشاف حجر الفلاسفة ، مصر الحياة الأبدية . ولكن السيمياء اكتسبت قدرا كبيراً من الاحترام فى الوقت المناسب بأن

أعلن أصحابها أن البحث عن حجر الفلاسفة كان رمزا لبحث المسيحيين عن الاتحاد الصوفى بالله .

إمبراطور بارز واحد فقط هو الذى حاول أن يقف وقفة حازمة ضد المسيحيين ذلك هو الامبراطور « جوليان » الذى عرف « بالمرتد » ابن أخت قسطنطين ، وكان جوليان مثقفا باحثا حسن التربية رقيقا ، بالغ الهدوء وجب العزلة حتى لقد استطاع أن يفلت من الاغتيال بأيدى أبناء قسطنطين ، فبذل محاولة قوية للتخلص من المسيحية بعد أن ارتقى العرش عام ٣٩١ كان طموحه أن يستعيد عبادة الأرباب الوثنيين ، وأن يأتى بديانة ميثراس (عبادة الشمس على المسيحية كدين رسمى .

وفى رسالته إلى صالوست sallust : « عن الشمس السيد الأعلى » يتحدث عن : « الاشتياق الغريب إلى الأشعة الشمسية » الذى تملكه عن طفولته ، ويضيف أنه استطاع بطريقته الخاصة ، ودون مساعدة من المعلمين أو الكتب ، أن يتعلم « العرافة باستخدام الأجرام السماوية » أى أنه تعلم التنجيم ، ولسوء الحظ ، فان جوليان ، رجل السلام ، وقع فى خطأ محاولة أن يصبح محاربا ، فمات أثناء حملة فى فارس ، بعد عامين فحسب من ارتقائه العرش ، وقام صديق مدرسته القديم ، أسقف القسطنطينية (جريجورى نازيانزن) بكتابه « رسالتين فى ذم جوليان » . ولكن جوليان كان قد أبدى تجاهه عطفا من نوع خاص عظيم ، ولذلك كان جريجورى مضطراً إلى أن يبتكر دوافع شريرة فى تبرير هذا العطف ، وعلى كل الوجوه ، كان موت جوليان المبكر مأساة بالنسبة للغرب كله ، ولو أنه كان قد عاش قدر ما عاش أغسطس ، أول الأباطرة ، لكان العالم قد أصبح مكانا أفضل وأكثر عقلا ، ولقد استطاع ابسن فى مسرحيته « الإمبراطور والجليلى » أن يدرك بعضا من أهمية جوليان ، ويجب أن يقرأ المسرحية كل من يهتم بالإمبراطور الفيلسوف

وكان الامبراطور الفيلسوف الآخر « ماركوس أوريليسوس » فقد اضطهد المسيحيين وعليهم قبل جوليان بقرنين كاملين ، وقد أخذ أعداؤه هذا عليه دائما ، ولكن يبدو أن الحقيقة تبين أن العقول المتوازنة الرشيدة ، مثل عقل جوليان وماركوس أوريليوس ، لا بد أن يزعجها ما فى المسيحية من أفكار ، إن فكرة وجود إمبراطور مثل جوليان ، تطول به الحياة ، إن أكثر الأشياء التى كان لابد أن توجد ، والتى تثير الأسف لأنها لم تتحقق فى التاريخ الغربى .

كان امتداد الحياة بمثل هذا الإمبراطور ، سيؤدى بالتأكيد إلى فارق هائل فى تاريخ السحر ، فالوثنيون لم يكونوا يشعرون بالرعب من السحر ، لأنهم لم يكونوا يربطون بينه وبين الشيطان أو شبيهه الوثنى : بست ، اهرميان . إلخ أما فى ظل المسيحية ، فقد أصبح السحر : « السحر الأسود » ، وأصبحت قوته مستمدة من الأبالسة ، بدلا من أن تكون مستمدة من قوى الإنسان الخبيئة ، كانت المسيحية تستشيط غضبا وتفقد صوابها فى كل ما يتعلق بالسحر ولكن السحر ملكة إنسانية ومن الممكن تطويرها كأى ملكة أخرى ، ولكن فى ظل المسيحية ، أصبحت مظاهر الوساطة ، والحاسة الثانية إلى آخر هذه المظاهر ، تعتبر دليلا على الوقوع فى قبضة الأبالسة أو على تدخل الملائكة أصبح « المتطورون » على هذه القدرات ، والمتهيئون لاكتسابها إما رجالا مقدسين وإما مشعوذة ودجالين ، وأصبح الراهب الذى يتصادف أن يمتلك قدرة على الإحساس بالايحس به العاديون من الناس ، عرضة لأن يجد نفسه موثقا إلى عامود الاحراق أو يعلق قديسا بين القديسين .

ومن الأمثلة على هذه الحالة الأخيرة ، سانت جوزيف من كوبرتينو ، أو « الراهب الطائر » ، الذى أكد الكثيرون من الشهود أعماله الخارقة ، والذى كان أشهرها القدرة على الطيران ، والذى شهد الطبيب الذى عالجه على سرير موته فى سن الستين ، إن جسده كان يبعد عن الفراش مسافة ست

بوصات ، وكان قد أصبح قسيسا فرنسيسكانيا فى سن الثانية والعشرين بعد أن عمل بالرعى واشتغل سائسا فى أحد الاصطبلات ، والذى تكاد معظم القصص من حوادث « طيرانه » ترتبط بحالة معينة من الفرح ، ويبدو أن طيرانه كان مرتبطا بالحالة التى يدعوها الهندوس « سامادهى » أى « النشوة » ، رغم أنه كان مولعا بتجويع نفسه وجلد جسده بالسياط ، وأن هذه الأعمال — لامعجزة الطيران — هى التى منحته مرتبة القداسة .

فماذا يمكن أن نفعل إزاء مثل هـذه الظاهرة ؟ قد يكون ملائما لو كنا استطعنا أن نصرف النظر عن الأمر كله باعتباره حزمة من الأكاذيب أو من الهوس الجماعى أو التنويم المغناطيسى الجماعى ، ولا شك أننا نستطيع — على هذه الأسس — أن نزيح جانبا ٩٥ بالمائة مما ينسب إلى القديسين من معجزات دون أن نشعر بوخز الضمير (ومن الأمثلة النموذجية فى هذا المجال ما ينسب إلى سانت دانستان من جالستونبرى ، الذى قيل أنه دفع كنيسة بيده فغير وضعها) ولكننا لا نستطيع أن نخطىء الدليل القاطع ، لأنه مقنع وأضح . لقد شاهد أعمال سانت جوزيف ملوك ودوقات وفلاسفة (أو فيلسوف واحد على الأقل هو لايبنتز) فحينما اقترح الأساقفة تنصيبه قديساً ، بدأت الكنيسة تحقيقا فى مسألة طيرانه وفى الحوادث المذكورة عنها . . وحصلت الكنيسة على المئات من الشهادات عن مئات من الحوادث ، وقد أصبح قديسا بعد أربع سنوات من موته .

. . . لقد استطاع الأب جوزيف أن يطير ، ولا يمكن أن يكون ثمة شك فى ذلك . وقد لا يكون ثمة معنى للتساؤل . وكيف يمكن أن يفسر هذا ؟ لأننا لا نستطيع حتى أن نبدأ فى فهم العناصر والأدوات والقوى والطاقات المشتركة فى مثل هذه العملية . . وقد يعزو بعضهم هذا العمل إلى الأرواح ، وقد لا نشك نحن فى أن أعمال الأب جوزيف ترجع إلى قدراته هو الخاصة ، ولكن أكثر

للوائف قريبا من العقل هو افتراض أن كل الناس قادرون — احتمالا — على الطيران وإتيان الأعمال الأخرى التي قام بها سانت جوزيف . هناك خطأ أساسي في الطريقة التي يدرك بها البشر العالم . إننا نفكر في العقل باعتباره شيئا عاجزاً مشلول الإرادة وسط عالم من المادة الجامدة ، مجرد ملاحظ أو متفرج سلبي . أننا نتبنى رأياً سلبياً في أنفسنا وفي العالم ، غير مدركين للمدى الذي تصل إليه سيطرتنا على الأشياء التي لا تبدو إلا أنها « تحدث » فحسب .

ومن المهم هنا أن نسجل أن دوق برونزويك ، رفيق لايبنيتز في رحلاته وراعيه ، تحول إلى الكاثوليكية بسبب طيران الأب جوزيف . وأقول أن هذا مهم لأننا نكاد نكون واثقين من أنه لم يكن هناك أي ارتباط بين معتقدات الأب جوزيف ، وبين قدراته الخاصة كإنسان .

تجربة في معرفة الغيب

في عام ١٩٢٣ ، كتب توماس مان ، الذي كان في ذلك الحين واحداً من أشهر كتاب أوربا ، مقالا بعنوان : « تجربة في معرفة الغيب » وصف فيه حضوره لجلسة استحضار الأرواح مع الوسيط ويلي شنايدر ، وهو مساعد طبيب الأسنان كان في التاسعة عشرة من عمره . وكان مان قد أمسك بمعصمي شنايدر أثناء الجلسة ، ثم يصف التواءات جسمه الغريبة وتصببه عرقا ، مثل امرأة في لحظة الولادة . أو مثل عرافة دلفي . ثم طارت في جو الحجرة المناديل والأجراس ، وصدحت الموسيقى من صندوق موسيقى ، وضربت مفاتيح آلة كاتبة تحت « نقر » الأصابع الروحية لمرشده يدعى مينا . ويشهد مان قائلا : إن أي خداع ميكانيكي أو ألاعيب « خفة اليد » كانت مستحيلة على أي إنسان . لقد كتب مان مقاله بوصفه شكاكا منفتح العقل ، لم يثر اهتمامه بعلوم الغيب من قبل تجربته ولم يكن له بها أي اهتمام بعدها . لقد اكتفى بأن وصف في صراحة ما كان قد رآه ، وكانت نظريته هي أن الظاهرة قد حدثت بواسطة

عقل الوسيط ، الذى استطاع بشكل ما أن يحول أحلامه ، وكان شنايدر غارقا في النوم ، إلى حقائق موضوعية . . وبالنظر إلى طبيعة شهادة مان التى لا يمكن أن تكون موضع شبهة أو شك ، فقد يحق للمرء أن يتخيل أن الصحفيين في العالم كله سيبدأون البحث عن كيفية حدوث هذا النوع من الظواهر وأسباب حدوثها ، ولكن لم يفعل منهم ذلك أحـــد — على الإطلاق خارج دوائر « الروحانيين » ولو أن الشهود كانوا أشخاصا من نوع البابا وأسقف كانتربرى لما كان هناك أى فرق ، فالحكاية لم يكن يستطيع أن يثير الاهتمام ، وأن تتناسب أو تتداخل مع ما هو قائم قبلها .

والتحدي المطروح هو أن تصبح تلك الظواهر متداخلة مع ماهو قائم ، مثلما جعل اينشتاين حركة براون وانقباض بتزجيرالد تداخل مع ماهو قائم ، بصياغة نظرية النسبية ، وقد عبرت الكلمات التالية عن محاولة مان لتقديم تفسير ما : « لقد كان هيجل هو الذي قال أن الفكرة ، الروح ، هى المصـدر النهائى لكل الظواهر : وربما كانت فسيولوجيا لمافوق طبيعى أكثر ملاءمة من فيسيولوجيا التكوين الطبيعى على إثبات ماناه ، وقد يحق للمرء أن يوسع من نطاق هذا التفسير بالقول بأنه ليس للبشر فكرة عن مدى انغماسهم غير الواعى فى ظاهرة حيـــاة كل منهم ، إننا قد نقبل الفكرة القائلة بأن عقلى اللاواعى يستطيع أن يجعلنى أنسى مظلة فى منزل معين أريد أن أعود لزيارته ، ولكننا لن نقبل الفكرة التى تقول بأن هذا العقل - فى ظل ظروف معينة - قد يستطيع أن يجعل المظلة تطير فى الهواء .

أما إذا كانت القوى التى جعلت سانت جوزيف يطير فى الهواء كالبالون وألقت خاتماً أحس به توماس مان يلمس وجهه هى قوى تستطيع أن تنقل الحركة من بعد ، أو ما إذا كان بوسع سانت جوزيف وويلى شنايدر أن يوفرا بشكل ما الطاقة اللازمة لعوامل فوق المستوى البشرى ، فهذا أمر

لايجرؤ أحد على أن يقطع فيه برأى فى المرحلة الحالية ، ولكن أن تكون تلك القوى هى بشكل احتمالى ، تحت سيطرة كل إنسان ، فلا يمكن أن يكون فى ذلك شك .

. . لقد كان للكنيسة موقفان مختلفان فى حادثتين تشبهان إلى حد كبير حادثة سانت جوزيف ، تتعلق الأولى بالراهب يوهان يتزر ، السويسرى الذى عاش فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ومات فى الربع الأول من القرن التالى ، والذى زعم أنه يرى أشباحا لرهبان موتى ، وأن الأشباح تكلمه فطلب منه زملاؤه (الدومينيكان) أن يسأل الأشباح فى موضوع خلافى حاد بينهم وبين الفرانسيسكان : هل تعتبر العذراء ، كابنها المسيح ، متخلصة من الخطيئة الأولى كما يقول الدومينيكان ، ويعارضهم الفرانسيسكان . ووصلت المسألة عن طريق الأشباح إلى العذراء شخصيا ، التى جاءت بنفسها بصحبة القديسة بربارا وبعض الملائكة لكي تعلن أن الفرانسيسكان هم المخطئون . وإنها متخلصة من الخطيئة الاولى ، لأنها تجسيد لقوى إلهية وليست من بنى البشر . واكتشف يوهان أن فى الأمر خدعة ، وأن رئيس الدير وكبير الشمامسة وأحد الرهبان كانوا يتنكرون فى أزياء مختلفة يساعدهم فى ذلك راهب رابع . وحاكمتهم البابوية ، وأحرقتهم ، ولكن يوهان حرم وطرد من خدمة الكنيسة .

وكانت الحالة الثانية متعلقة بالأب فاشـير ، وكان شخصية مرموقة فى الكنيسة الكاثوليكية ، وصديقا للبابا نفسه ، وكان فى الخمسين من عمره تقريبا حينما بدأت صورة المسيح فى كنيسته الصغيرة تدمى من اليدين والقدمين وحينما نقلت لكي تفحص فى روما توقف النزيف ، وبدأت عيون الصورة تبكى . وحدث أكثر من مرة أن تسبب دخول الأب فاشير مكاناً فيه صورة أو تمثال للمسيح فى نفس النتيجة .

وأعلن أسقف بواتييه أن الأب فاشير مخادع ، وصدر الأمر بحرمانه وطرده من خدمة الرب ، رغم أن الكثيرين من « المفكرين » كانوا قد بدأوا يتنبهون إلى فكرة التأثير النفسى الخاص للانسان وقدرة العقل البشرى على نقل تصوراته وتجسيدها فى الجمادات والأشياء ، فقالوا إن الأب فاشير هو الذى يحدث هذه الظاهرة بنفسه فى صور المسيح وتماثيله ، بشكل غير واع بالطبع .. وهذا يعنى القول بأن الظواهر قد تكون حقيقية فى كل حالات « المعجزات » ولكنها لا تبرهن على شىء معين فيما يتعلق بالدين ، وإنما هى تبرهن على قوة اعتقاد الناس بما يحدث وبمضمون الظاهرة نفسها . لقد نصب جوزيف من كوبرتينو قديساً ، ودمغ جيتزر بالنصب والخداع ثم طرد من الكنيسة ، وحرم الأب فاشير وأبعد وطرد . ولقد كان من الممكن أن يكون منطقيا بنفس الدرجة لو أنهم جميعا قد أصبحوا قديسين ، أو انهم ربطوا إلى عامود الاحراق وأشعلت فيهم النار . ولكن حالة الأب فاشير لا تثبت إلا أن الكنيسة قد أصبحت أكثر حذراً وأكثر عصبية مثلها مثل رجال العلم فى التعامل مع ما لا يمكن تفسيره .

يؤكد كل هذا صعوبة رسم خط فاصل بين الظواهر الطبيعية وتلك التى تبدو فوق مستوى الطبيعة . وفى حالات شهيرة ، مثل القصص التى تروي عن سيطرة الشياطين على راهبات «دير ايكس ان بروفيلس» وراهبات ديرلودان (وقد وصفها ألدوس هكسلى بعبقرية فى روايته : شياطين لودان) . يستطيع المرء أن يكون واثقا تماما من أن « الشياطين لم تكن موجودة بالمعنى العادى .

ولما كانت الراهبات الممسوسات مؤمنات بوجودها إلى حد اليقين . وفى الحالتين المذكورتين . اتهم أحد القساوسة بأنه هو السبب فى اللعنة التى جعلت الراهبات يتقلبن على الأرض ، ويصرخن ويجدفن . وفى الحالتين . كان القسيس هو قسيس الاعتراف لفتيات صغيرات . اغتصبهن ، ثم يحولن

بعد ذلك إلى راهبات ، ولـكن الراهبة التى اتهمت أحدهما ، وتدعى مادلين دى بالود ، وهى مراهقة فى الثامنة عشرة اعترفت فى المحكمة بأن كل اتهاماتها الأب جودفرى كانت خيالات وأوهاما ، وإنها كانت تحب الأب جودفرى حبا قوياً . . وإن أردافها وفخذيها كانت تتحرك حين تراه حركة مفضوحة ولـكن المحكمة رأت أن الأب جودفرى قد تجسده الشيطان ، فأحرقته ، كما أحرق قبله القسيس جرلديش بسبب تهمة مماثلة . .

وربما كان الاعتقاد بوجود قطعان كبيرة من الأرواح والأبالسة هو ما يمكن اعتبـــاره المساهمة الرئيسية التى قدمتها المسيحية فى دراسة السحر . ويذكر جوزيفوس كتابا يضم الرقى والتعاويذ والترانيم اللازمة لاستحضار الأبالسة كان يستخدم منذ القرن الأول الميلادى ، وكان يفترض أن مؤلف هذا الـكتاب هو الملك سليمان الذى يبرز اسمه فى أساطير علوم الغيب بوصفه ساحراً كبيراً .

وهناك كتاب فى السحر يدعى « مفتاح سليمان » ويحتل المـكانة التالية بعد الـكتاب الأسطورى : « أقراص الزمرد » الذى ألفـه هيرميز ترميز ميجيستاس (هيرميز المثلث العظمة) باعتبارهما أشهر النصوص المرجعية فى السحر .

ويوجد كتاب هيرميز فى أشـكال عديدة ، والسبب فى تعدد أشـكاله غريب وهام : فلا بد لـكل من يريد أن يستخدم نصائحه أن ينسخه بيده ، وان النص المطبوع بالمطبعة لن تـكون له أية قيمة . (وهذا اعتقاد تؤمن به أحدث الساحرات) . ويوضح هذا — إلى أقصى حد ممكن من الوضوح أن الضرورة الأساسية فى عملية العرض السحرى هى عقل الساحر نفسه . عليه أن يدخل فى علاقة عميقة وحميمة مع النص الذى يستخدمه ، لأن « قواه هو » هى التى سوف تستخدم وليس القوى الـكامنة فى الـكتاب . وبنفس الطريقة

لا بد للساحر من استخدام أدواته السحرية الخاصة التى يصنعها بنفسه : بما فيها القلم والحبر ورشاقة المساء ودواة الحبر وخلاطة الرمل والبخور والشموع كما أن عليه أن يصنع بنفسه سكاكينه وسيفه وفأسه وما إلى ذلك . وعليه أن يزود تلك الأسلحة بمقابض خشبية منحوتة . وعليه أيضاً ان يختار وأن يلقن جماعته وأتباعه ومساعديه . ولا بد من صناعة مقابض الأسلحة من خشب شجرة البقس الصلب ، وان يقطع الفرع الذى ستصنع منه المقابض بضربة واحدة . وقد يقوم من يريد أن يكون ساحراً بجولات واسعة فى الغابات ، يقطع فيها كميات هائلة من الأغصان . قبل أن يعثر على الغصن الصالح بغرضه ، أو يتحطم السيف فى يده ، وقبل ان يشرع فى أعماله السحرية ، عليه أن يصوم تسعة أيام وأن يلتزم بقواعد مختلفة كثيرة ، وتبدأ الطقوس بالدوران حول محيط دائرة سحرية يرسمها بالسكين . ثم يرسم فى الدائرة رموزاً معينة من الكابلاه ، ويذبح حمل ويسلخ ، ويستخدم الجلد المسلوخ للدمى غطاء لرموز منحوتة تشبه الحروف .

أما عملية الاستحضار الشعائرى نفسها فتستغرق حوالى ساعة ، وتتضمن تهديدات توجه إلى الأرواح إذا هى لم تظهر . ولكنها فى خلال ذلك ، وطبقاً لما يصفه كتاب « مفتاح سليمان » لا بد أن تكون قد ظهرت . بعضها يرتدى ثياب الجنود ، وبعضها فى ثياب النبلاء ، وأخيراً يأتى الملك نفسه بصحبة السحرة . وعند هذه اللحظة ، وبعد أن يقدم نفسه وهو يحرق البخور مبينا بعض الرموز للملك (الذى يفترض انه الشيطان نفسه أو على الأقل أحد ممثلى الجحيم الأصغر شأنا) . بعد كل ذلك يستطيع الساحر أن يطلب مايريد : سواء كان معلومات عن المستقبل ، أو بعض المساعدة من الأبالسة لإنجاز بعض الخوارق . ويكرر إسم الرب واسم يسوع عدة مرات لإبعاد الأرواح وترويضها . ويجب ألا ينتهك أحد الدائرة السحرية ، كما يجب ان تكون

الدائرة محكمة الإغلاق . وإلا فقد تهاجم الأبالسة الساحر وتمزقه إرباً . .

ولكن من أجل أن نفهم الروح المسيطرة للسحر الذي ازدهر بشكل غير متوقع في القرن السادس عشر . (ولا شك إن السنوات من ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ كانت هي قرن السحر) فلا بد أن نفهم شيئا عن النزعة الصوفية التي ألهمت هذه الروح وحركته . ذلك إنه لا يمكن أن يقال كثيراً إن جوهر السحر وجوهر النزعة الصوفية هما جوهر واحد ، فالفرق الحاسم هو أن السحر يقع عند الطرف الأدنى من الطيف ، وتقع النزعة الصوفية عند الطرف الأعلى . ولكن السحر والنزعة الصوفية كلاهما محاولة للوصول إلى التناغم مع « القوة الداخلية » للإنسان .

إن أفلوطين ، الذي عاش بين ٢٠٥ إلى ٢٧٠ ميلادية ، لم يكن مسيحياً ، ولكن تأثيره على المتصوفة المسيحيين كان هائلا . وقد قارن البشر بمجموعة من المنشدين واقفين حول المنشد الأول ولكن انتباههم يتشتت بفعل مايجرى حولهم وما يبدو أمامهم من الأشياء ، وهكذا يفشلون في الغناء بنغمة واحدة أو بالتوقيت الصحيح .

وقد اعتقد أفلوطين إن الخليقة كانت سلسلة من الخطوات المؤدية إلى البعد بالتدريج عن « الواحد » أو (الرب) ، وقد أطلق على هذه الخطوات اسم الـ « فيوض » . وقد استعار القبلانيون فيما بعد أفكاره ، مثلما استعار ويليام بليك الكثير بعد ذلك من الكابلاه) . ولا شك أن هذا الرأى رأى غير مسيحي بشكل قاطع ، ذلك أن الشر عند أفلوطين شيء سلبي . يعتمد على عدد الخطوات التي ستخطوها مبتعداً عن « الواحد » . إنه شيء يشبه من يسير مبتعداً عن المنزل أضيئت أنواره في الليل ، متحركاً نحو الظلمة المتزايدة في الحديقة ، ولكن لما ينبغي أن يسير الناس مبتعدين عن « الواحد » ما لم يكن ذلك بسبب الشيطان .

يقول افلوطين إن ذلك يرجع إلى اننا فارغو العقول ، يسهل تشتيت انتباهنا . والفيلسوف هو الإنسان الذي يستطيع بعزم أن يتجاهل ما يشتت الانتباه وأشكال التعدد ، ويحاول أن يبحث وأن يرى طريقه ليعود إلى الواحد ، ويختتم أفلوطين قائلا : « تلك هي حياة الآلهة وأشباه الآلهة من البشر . تحرير من كل الروابط والقيود الأرضية ، حياة لا تجد متعة ولا لذة في الأشياء الأرضية . وطيران من الوحيد إلى الوحيد » .

هذه هي الفكرة المسكرة في قلب النزعة الصوفيه ، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهرى في الهدف ، فانها ليست بعيدة عن النشوة المقدسة عند أصحاب الديانة الديونيزيسية . إنها الإحساس بأن هذا العالم المبتذل الذى يلوح لنا اننا قد التصقنا به . هو عالم يمكن الإفلات منه ، إننا جميعا في وضع شخص دائخ يدور حول نفسه بعد حادثة مخيفة . لا يعرف أين يتجه — فهو في نصف وعيه فقط . أما المتصوف فهو الإنسان الذى « وصل إلى . . » لقد ابصر لمحة خاطفة من المعنى الحقيقي للحياة والموت .

وكان ديونيزيوس الاريوباجيني واحداً من أقدم المتصوفة المسيحيين وأوسعهم صعودا ، وكان يظن إنه هو ديونيزيوس الذى دخل المسيحية على يد القديس بولس ، ولكنه ليس هو نفس الشخص بالتأكيد ، وكتاباته التصوفية تأخذ شكل التأملات حول موضوع « الرب » الذي يعرفه ديونيزيوس ، بطريقة افلوطين والقيلانيين باعتباره نوعا من العتمة المقدسة والفراغ فكيف يمكن أن يكون هذا الرب هو الرب الشخصي للمسيحيين ؟ يفسر ديونيزيوس ذلك بأن الرب هو مصدر الخير والجمال ، بينما يظل هو وراءهما ومن فوقهما .

ويثبت ما كان لديونيزيوس من تأثير ونفوذ قائلين إن المخلوق الذى كان إلى وقت غير بعيد نزعاً من الفردية ، قد اكتسب « أشواقا مقدسة »

مثل خنفساء تحاول أن تتحول إلى فراشة ، ويؤكد المتصوفة ما في التجربة الصوفية من سلام وصمت عميقين . تتحدث القديسة كاترين من سيينا عن الامتزاج بـ : « محيط من الراحة » . ويبدأ ميستر اكهارت أغنيته الأولى باقتباس من « حكمة سليمان يقول : « لبرهة يغلف صمت السكون المادى كل شىء . . » رغم أنه لاعلاقة مباشرة بين هذه العبارة وبين بقية الموعظة . ويقول سانت جون الصليبى أن الاستنارة تأتى : « فى صمت وراحة بعيدة عن كل ما هو مادى ملموس وطبيعى » . أما جير ترود من هلفتا ، فتصف كيف حدثت استنارتها حينما كانت : « تجلس على حافة بركة الأسماك وتأملت جمال المكان ، وليونة الماء المنساب ، والخضرة العميقة للأشجار المحيطة ، وطيران الطيور الحر والحمائم بوجه خاص ، ولكن قبل كل شىء ، تأملت الهدوء الساكن للمنظر المنعزل الذى ملأنى بالبهجة » ، يختفى التوتر اللاواعى » ، ولايعود العقل عرضة للمشى ، ولا للغليان المكتوم ، ينبع سلام هائل فى أعماق العقل مثل نبع بارد وفيما يشبه الصدمة المفاجئة ، يلمح الإنسان إمكانياته الخبيئة فى نظرة خاطفة .

إنها مجرد خطوة واحدة بعيدا عن « المسيحية الخفية » أو « مسيحية الخاصة » نحو عالم السيميائى والمنجم ، يكتب البتروس ماجنوس الذى عاش بين ١٢٠٦ و ١٢٨٠ قائلا : « سيعيش السيميائى فى وحدة كاملة ، بعيداً عن البشر ، وعليه أن يكون صامتا كتوما . » ولا بد له أيضا أن يختار « الساعة الصحيحة للعمليات » وهى ساعة أن تكون الأجرام السماوية فى أوضاع مناسبة ويضيف فيلسوف ودارس لعلوم الغيب — فيما بعد — فى خطاب موجه إلى كورنيليوس اجريبا : « مع السوقة ، لاتتحدث إلا عن الأشياء السوقيـة ، واحتفظ لأصدقائك بكل سر من المرتبة السامية » ، وكان هذا الفيلسوف ، صاحب هذا الخطاب ، هو تريثيميوس ، والرجل الذى روى الحكاية القديمة

أنه التجأ إلى دير بندكتى فى عاصفة ثلجية فأصبح عاشقا للهدوء والعزلة فى الدير حتى انضم إلى جماعة الرهبان البندكتيين ، ثم أصبح رئيسا للدير فيما بعد .

ويشترك السحر فى مبدأ أساسى آخر مع النزعة الصوفية : فكرة : « كما هو فوق ، كذلك تحت » وهى العبارة التى تنسب إلى هيرميز ترسميجاسناس فى النزعة الصوفية ، تعنى هذه العبارة أن النفس والرب شىء واحد ، ولكن نفس المبدأ يصبح فى السحر أكثر تعقيداً بكثير ، فالإنسان هو الكون الأصغر » ورمزه نجمة خماسية (البنتا كل) ، والعالم هو الكون الأكبر ، ورمزه هو النجمة السداسية (أو المثلثان المتداخلان — رمز سليمان) ، وقد رأى دارسو علوم الغيب فى العصور الوسطى وفى عصر الإصلاح آلاف الروابط غير المرئية تربط بين الكون والإنسان (وقد اعتقد باراسيلساس على سبيل المثال أن هناك ارتباطا بين الأعضاء السبعة للجسم وبين الكواكب السبعة) فإذا استخدمنا مصطلحات علم التشريح الحديث ، لأمكننا أن نقول أن العلاقة بين الفرد وبين الكون تشبه العلاقة بين كريات الدم البيضاء وبين الجسم كله : أنهما تكوينان عضويان منفصلان ، ولكنهما بالتأكيد غير مستقلين الواحد منهما عن الآخر ، وهدف كل منهما متجه نحو خدمة الجسم كله . وقد يشعر الإنسان بالانفصال عن بقية الكون ، ولكنه ليس كذلك ، طبقا لما تنص عليه تعاليم الغيب ، فثمة آلاف « التشابهات » والارتباطات بين الإنسان والكون الأكبر ، وما كان باراسيلساس ليستطيع أن يجد أى غرابة فى فكرة دافيد فوستر عن « الكون الذكى » حيث تستطيع الأشعة الكونية أن تحمل معلومات يمكنها أن تؤثر على حاملات الخصائص الوراثية (الجينات) لقد كان ذلك بالتحديد هو ما عناه بعبارة : « كما هو فوق ، كذلك تحت »

كان ذلك إن هو المفهوم الكامن وراء كل السحر الذي ازدهر فى « القرن السحري » ، من ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ ، « الإنسان عضو جسد الكون » .

وتلاءمت المعتقدات السحرية الشائعة مع هـذه الفكرة ، أن القديس البرتوس ماجنوس نفسه . وهو مفكر ديني وقور أكثر منه دارسا لعلوم الغيب (وقد نصب قديساً عام ١٩٣١) يشرح بإسهاب كيف يمكن أن تستخدم الأحجار الكريمة للأغراض العلاجية والأخلاقية : فالجمشت يزيد القدرة على التركيز ، والزمرد يوحي بالخفة ويغرسها في النفوس ، والعقيق يقوى الأسنان ويبعد الأشباح والأفاعي ، ومن الأعشاب يعطى البصل القدرة على التنبؤ ، أما « رعى الحمام » فهو منشط للحب ، أما شجرة الحمى فتشفى من المرض والحمى ، ويشفى نبات الكبد كل أمراض الكبد ، وكان هناك معتقد شائع يقول بأنه إذا جرح شخص بضربة من أداة حادية : سكين أو بلطة أو صخرة فلا بد أن تعالج الأداة نفسها أيضا من الجرح الذى تسببت فيه .

... فماذا إذن عن حجر الأساس الآخر للسحر ، وهو الإيمان بالنجوم كيف يمكن أن يتم الوفاق بين هـذا الإيمان وبين المعتقدات الشائعة الآن ؟ كان جوهان كبلر مؤسس علم الفلك الحديث ، يكن بغضاً واحتقارا عنيفا للتنجيم ، ربما لأنه كان ملزما بأن يصنع تقويما سنويا ، مزودا بالتنبؤات اللازمة ، كجزء من واجباته الرسمية فى بلاط « جراتز » فى العقد الأخير من القرن السادس عشر . وقد تضمن تقويمه الأول تنبؤات بمجيء شتاء قارس البرودة ، وبغزو يقوم به الأتراك . وفى عام ١٥٩٤ كان البرد قارسا لدرجة أنه مات بسببه الكثيرون ، واجتاح الأتراك البلاد من فيينا إلى نبوشتات . وكتب ليكر يقول : « تتصرف السنوات » مع الانسان فى خلال حياته بنفس طريقة الحبال المعقودة التى يلفها الفلاح بشكل اعتباطى حول ثمرات القرع الصغيرة فى حقله ليحميها من السقوط ، إنها لا تساعد الثمرات على النمو ، ولكنها تحدد شكلها النهائى » .

ربما كان علم رجال من نوع البرتوس ماجنوس وكورنيليوس اجريبا

وبارامياس ، علما فجا مليئاً بالأخطاء والثغرات ، ولكنه كان قائما على أساس من الاعتراف الفريزى بالروابط النفسانية بين الإنسان والطبيعة .
أما علم نيوتن وهايجنس ، وبريستلى فكان أكثر دقة إلى درجة لا تقارن ، ولكنه كان قد فقد الاعتقاد بالروابط غير المرئية .

وقد عبر كيركجارد عن هذا الإحساس بعدم بقرنين كاملين حين كتب يقول : « أين أنا ؟ ومن أنا ؟ وكيف حدث ان أصبحت هنا ؟ وما هو هذا الشيء الذى يسمى بالعالم ؟ وإذا كنت مضطراً إلى أن أشارك فيه . فأين المسؤول عن كل شيء ؟ إذا كان على أن أقوم بدور فأين المخرج ؟ أريد ان أرى المخرج . . » . كان قد نشأ الإحساس بالطرد والنبذ ، عاجزاً ، معلقاً فى الهواء جافاً كبقية من شيء مهمل .

أما دارسو علوم الغيب فى القرن السادس عشر ، على الرغم من كل سخافاتهم ! فكانوا يعرفون شيئاً نسيه كيركجارد .

ولم يكن عالما علوم الغيب الكبيران فى القرن السادس عشر : كورنيليوس جريبا وبارسلسساس « ساحرين » بالمعنى الحق او الخالص الكلمة . إنما كان الاثنان دارسين وباحثين متجولين أكثر منهما فيلسوفين ، وكان باراسيليساس هو صاحب العقل الأعظم بين الاثنين .

وقد أكد بروكلوس إن الوعى الانسانى يستطيع ، فى حالة أشبه بالجنون المقدس ، أن يقفز إلى « الواحد » الكامن فى قلب كل الأشياء ، فيصبح متوحداً معه . وقد تأثر اجريبا بهذا الرأى تأثراً عميقاً ، وهو الذى عثر عليه أيضاً فى الكابلاه ، الذى كان قسمه الأكبر ، تحت عنوان : « الإشراق » أو « الظهور » ، وهو كتاب الخلق ، قد كتبه يهودى أسبانى يدعى موسى الليونى ، حوالى عام ١٢٨٠

ويتحدث كل من بروكلوس والكابلاه عن عدد من « الفيوض » أو

«التجليات» تنبثق من الرب اللانهائي المطلق ، ويتحدثان عن طريق مشابكة معقدة ، يستطيع الطامح إلى المعرفة أن يسلكها من أجل أن يقترب من الرب .

ولقد خدع اجريبا . فقد كان يفتقر لسوء الحظ إلى مزاج الفيلسوف . كان في أكثر جوانبه رجلا من رجال عصر النهضة ، بديناميكيته ، وولعه بالمغامرة . وتطلعه اللانهائي إلى المعرفة . كان يمتلك الاشتياق الحـــار إلى الاستنارة الصوفية ، ولكن دون أن يمتلك المزاج اللازم للوصول إليها وتبدو حياته تراجيدية بشكل أساسي ، إلى جانب أن العصر الذي عاش فيه كان أكثر انبساطية وولعاً بالظواهر وأكثر غلياناً من أن يسمح بالكثير من الهدوء والسعادة لرجل له مثل مزاجه .

في سنوات عقده الثاني ، ترك اجريبا انطباعاً قوياً في كولونيا ، فكان لغوياً جيداً وقارئاً لا يشبع نهمه ، وكانت الطباعة قد اخترعت قبل مولده مباشرة ، وحينما أصبح سكرتيراً خاصاً لماكسيميليان الأول ملك روما وألمانيا بدأ الأمر أنه يوشك أن يبدأ حياة عملية لامعة وممتازة ، ولكن بلاط الإمبراطور الروماني المقدس لم يكن هو المكان الملائم لدارس أحب ، واستخدمه ماكسيميليان في أعمال التجسس ، وأرسله إلى باريس وهو في العشرين من عمره ، وفي جامعة باريس اتصل اجريبا بعدد من أصحاب الأرواح الطيبة من دارسي علوم الغيب والفلاسفة ، وهناك التقى بنبيل أسباني يدعى جبرونا كان في طريقه إلى مقابلة ماكسيميليان ؛ وكان جبرونا يواجه مشكلة خطيرة ، فقد كان يواجه ثورة أو تمرداً قام به الفلاحون ، وطردوه من مزرعته وأملاكه في قطالونيا ، وقرر اجريبا أن يساعده .

لقد سحرت « الكابالاه » اجريبا ، ليس فقط بسبب جوانب التصوف الغيبي فيها ، وإنما بسبب تعاليمها « السحرية » أيضاً ، وبوجه خاص بسبب علم

الأرقام فيها المعروف باسم « جيماتريا Gematra » . ففى اللغة العبرية ، تتمتع كل الحروف بقيمة عددية ، وكانت الحروف فى أى كلمة « تجمع » الأعداد التى تعبر عنها ، وكانت أى كلمة تضاف أعداد حروفها تعتبر ذات علاقة خاصة بالكلمة الأولى . وبذلك ، إذا أراد متخصص أو ممارس للجيماتريا أن يعرف ما إذا كانت فتاة معينة تصلح لأن تكون زوجة طيبة ، فإنه يجمع الأعداد التى تمثلها حروف اسمها ، فإذا كان الناتج مماثلا لنتيجة جمع الأعداد التى تمثلها حروف كلمة « عاهرة » أو « مسرفة » ، فإن هذا سيؤدى إلى حكم سيىء جداً بالنسبة لها ، فإذا كانت الفتاة خبيرة بالجيماتريا أيضا ، فإنها تستطيع أن ترد عليه بأن عدد حروف اسمها يماثل عدد حروف كلمات «الحكمة» أو «الفضيلة» أيضا . وقد أنفق مارتن لوثر وأعداؤه وقتا طويلا فى تبادل تحويل أسمائهم إلى كلمات مهينة وبذيئة بواسطة الجيماتريا .

وأدى قيام اجريبا بالكشف عن هذه الأسرار فى جامعة دول إلى كسبه الكثير من المعجبين ، وحصوله على درجة « دكتور فى الإلهيات » وبعض النقود فى شكل راتب ثابت ، ووقع فى الحب ، ويبدو أنه كان يأمل فى الاستقرار تحت حماية ابنة ماكسيميليان « مارجريت أوف غنت » . بل أنه كتب مقالا بعنوان « نبالة النساء » لكي يتملقها . ولكن اهتمامه بالكابالا أكسبه عداء الكثيرين من الرهبان ضيق الأفق ، وقام أحد الرهبان من الاخوة الفرانسيسكان يشتمه علانية من فوق منبر الكنيسة بينما كانت مارجريت جالسة وسط المصلين فى القداس ، وكالعادة تبخر حظ اجرابيا وضاع من يديه ، فاضطر إلى الانتقال إلى انجلترا .

وفى خلال هذا الوقت ، كان قد أنجز كتابه الأكبر الذى يقع فى ثلاثة مجلدات ، تضم بحثا كبيرا حول : « فلسفة الغيب ومعرفته » ، رغم أنه كان على هذا البحث أن ينتظر أكثر من عشرين عاما قبل أن يحصل على فرصة

النشر ، ولا شك أنه كتاب جدير بالانتباه بالنسبة لمؤلف لم يعد عامه الرابع والعشرين ، وهو يبدأ بتقرير واضح يقول فيه أنه ليس للسحر علاقة من أي نوع بالشعوذة أو بالشيطان ، وإنما تقوم العلاقة بينه وبين مختلف المواهب الغيبية — التنبؤ ، والحاسة السادسة ، وما إلى ذلك ، ومن فصول المجلد الأول النموذجية في دلالتها على الكتاب ، فصل بعنوان : « عن النور والألوان والشموع والمصابيح وهما تنسب إليه مختلف الألوان من العناصر والمنازل والنجوم » أما « المنازل » فإنها تعني بالطبع علامات خريطة أبراج السماء ، ولكل كوكب منزلان ، أحدهما للنهار والآخر لليل ، ولكن الفكرة الرئيسية في عقيدة أجريبا ، هي ما كتبتها في بداية الفصل الثالث والستين : «إن الخيال أو القدرة على التخيل ، قوة حاكمة في انفعالات الروح ، حينما تكون تلك الانفعالات مرتبطة بالمدركات الحسية » وما يعني القول بأنه حينما تكون انفعالاتي مرتبطة بأشياء مادية محسوسة ، بدلا من أن ترتبط بأفكار ، فإن خيالي يبدأ في لعب دور كبير في مشاعري وقد أحس به ، إن قدرا قليلا من الانقباض ، يرسل معنوياتي إلى الحضيض ، وأصبح ضحية أرجوحة من الانفعال العاطفي ، والجملة التالية على شيء من الغموض ، ولكنها تزيد من اتساع هذه الفكرة : « ذلك أن (الخيال) بالفعل ، واعتمادا على نفسه ومن تلقاء نفسه ، وطبقا لتنوع الانفعالات ، يغير — قبل كل شيء — الجسم المادي بطريقة التحول والانتقال التجسدي المعقول ، عن طريق تغيير الحوادث القائمة في الجسم ، وبتحرك الروح صعودا وهبوطا ، إلى الداخل وإلى الخارج . » إنها جملة جديرة بالملاحظة من حيث أنها كتبت في عام ١٥١٠ . إنها لا تعترف فحسب بالمدى الذي يمكن للبشر ، وخاصة الأغنياء منهم ، أن يكونوا ضحايا للإيحاء النفساني ، وانما تعترف أيضاً بأن تلك الأهواء تؤثر بشكل مباشر على الجسم .

« إننا نلتقي دائماً في أدبيات الرهبان والنساك هذه الفكرة القائلة بأن جسد الإنسان أكثر اعتماداً على إرادته مما يظن الانسان نفسه أبداً » .

ويمضي أجريبا إلى محاولة إبراز ان العشاق يمكن أن يعرفوا مثل تلك الرابطة القوية حتى إن أحدهم يشعر بمرض الآخر . ويقول إن الناس يمكن ان يموتوا من الحزن ، حينما تكف الارادة عن العمل ومن الممكن أن تقارن بين تعاليم اجريبا هذه وبين ما أكده باراسيلساس ، الذي يصغره بسبع سنوات ، من أن « الخيال القوى العزيمة هو بداية كل الأعمال السحرية » ، ومن أنه : « من الممكن لروحي . . ومن خلال إرادة مصممة قوية فحسب ، ودون سيف أو خنجر ، أن تطعن الآخرين وأن تجرحهم » .

وقد يكون ما تقول به الجماتريا وعلم التشابهات هراء خالصا وقد لا يكون كذلك ، وقد يكون فيها ما هو أكثر مما تقابله العين الناظرة . ولكننا نتعامل هنا مع رجال كانوا سحرة لأنهم كانوا « شامانات » مالكين لنوع من القدرات النفسية الخاصة . من الحق أننا لا نملك دليلا مباشراً على ما يلي : ليس هناك حكايات عن القدرات الكشفية المتعلقة بالتنبؤ أو بالحاسة السادسة . ولكن هناك الكثير من الحكايات حول القدرات السحرية التي امتلكها كل من اجريبا وباراسليساس ، ولكن ليس فيها ما يمكن النظر إليه بشكل جدي .

ولا بد لنا أن نتذكر اننا نعالج عصراً كانت القدرة العامة على التصديق فيه شيئاً لا يمكن سبر أغواره ، وكان لا بد لأي قصة أن تكون خيالية لكي تستطيع أن تحرك حاجبا فوق العين . أن ذلك النوع من الأحداث الذي يمكن الآن أن يثير اهتمام « جمعية البحوث النفسانية » — مثل الرؤية السابقة وأطياف الأجساد الحية ، وإتيان المعجزات ، والتواصل عن بعد — أقول ان

مثل هذا النوع من الأحداث كان يمكن أن يصرف عنه النظر ويلقى جانبا بإهمال باعتباره شيئاً أشد تفاهة وغباء من أن يعاد سرد حكاياته .

وتتميز كل القصص التي جاءتنا عن اجريبا بالحسية وبالطابع المادي فيها. فهو يدفع لأصحاب الفنادق نقودا تبدو من الذهب الصحيح غير مزيفة ولا منقوصة ، ولكنها تتحول إلى أصداف حقيرة فيما بعد . وهو يصاحب كلبا أسود اللون ولكنه في الحقيقة جني يرافقه كخادم خاص ، وذات يوم يخاف اجريبا إن يكون الكلب قد سقط نهائيا في قبضة الشيطان ، فيأمره بالابتعاد عنه لكي يتركه ، فيجري الكلب ويغرق نفسه في نهر ساون . وهو يستحضر روح الواعظ الشهير « تيللى » لكي يلقى إحدى مواعظه أمام ناخب ساكسونيا ، فيبكي كل المستمعين للموعظة تأثراً وشفقة ، ومن أشهر ما يحكي عنه خوفه ذات مرة من اتهامه بقتل طالب كان الشيطان قد خنقه في حجرته ، فيطلب من الشيطان أن يتلبس الجثة لكي يخرج بها إلى السوق ويتجول قليلا قبل أن يترك الشيطان الجثة فتنهار في السوق ولكن التحقيق يثبت أن الطالب قد مات مخنوقا ، ويضطر اجريبا إلى الفرار من المدينة .

إن مثل تلك القصص لا تقول لنا شيئا عن اجريبا ، رغم أن الأخيرة تعكس بدقة سوء الحظ الذي طارده طوال حياته . لقد ماتت له زوجتان ، وكانت الثالثة كارثة بالنسبة له ، بعد أن تركته مشتتا من الناحية العاطفية ، ومفلسا إلى درجة الدمار من الناحية المالية . وقد أدت صداماته مع القساوسة رجال الدين — فقد كان معادياً للكهنوت بعنف ، بعد أن عانى الكثير من جهل الرهبان وغيرتهم — أدت به إلى مغادرة الكثير من المدن حيث كان من المتوقع له أن يستقر ليتفرغ لحياة البحث والدراسة الهادئة . وفي فترات مختلفة ألقى محاضرات عن اللاهوت والدين في كولونيا ، وعن علوم الغيب في بافيا ، وأصبح مفوضاً عاما في ميتز ، حيث أدى دفاعه عن امرأة فلاحة

أوحت بالشعوذة إلى اصطدامه بعضو محكمة التفتيش مما أجبره على مغادرة المدينة . وخابت آماله فى التقدم اعتماداً على الأميرة مارجريت دونة فينت . بل إن تعيينه طبيبا خاصا للملكة فرنسا الأم ، لويس دى سافوى ، كانت كارثة أضخم . فقد أمضى أكثر وقته فى محاولة الحصول على راتبه ، فأمر بالبقاء فى مدينة ليونز من ١٥٢٤ الى ١٥٢٦ دون نقود ولا إذن بالرحيل .

ولكن من المدهش حقا أنه بدأ فى تلك الفترة فى الإحساس بأنه مطارد مشؤوم . لقد رغب فى حياة الباحث الهادئة ، مع حياة منزلية ممتعة . لقد كان صوفيا أصيلا حقيقيا ، ومع تقدمه فى السن بدأ يشعر أن السحر ليس أكثر من مضيعة للوقت ، وإن اللاهوت وحده هو ما يستحق الدراسة : ورغم أنه لم يقرر أن ينشر كلامه عن علوم الغيب إلا فى عام ١٥٣١ ، فإنه كان معروفا بوصفه ساحراً ، وكانت سمعته سيئة بين القساوسة .

وفى عام ١٥٣٠ نشر فى أنتيورب كتابا بعنوان : « عن لاجدوى العلوم والفنون » وهو كتاب غريب ، هدمى النزعة ، فكرته الأساسية أن المعرفة لا تؤدى بالانسان إلا إلى العجز عن الفهم وتشوش العقل وتوهم الأشياء الزائفة وإلى اكتشاف ضآلة ما يعرفه بالفعل .

ويبدو الكتاب كما لو كان تنبؤ بحديث فوست فى الفصل الأول من مسرحية جوته . ويقول اجريبا إن الدراسة الوحيدة التى تستحق العناء هى دراسة اللاهوت والدين والنصوص القديمة . ولا شك أنه كان مخلصا فى تلك الدعوى . وقد وجهت إليه الحياة بعض الضربات القاسية ، فقد ماتت زوجته الثانية بالطاعون الذى اجتاح انتيورب .

وقد أثار كتابه عن لا جدوى العلم غضب حاميه ، شارلس الخامس ، الذى كان قد منح اجريبا منصب مسجل التاريخ . فألقى باجريبا فى السجن وأعلن أنه هرطيق مجدف .

وجاء نشر كتابه « الفلسفة الغيبية » لكي يزيد الموقف سوءاً لأنه كان فى صورة عودة متراجعة عن كل ما كان قد قاله فى كتابه السابق . وذاع عنه أنه شخص لا يثبت على فكرة أو مبدأ ، وعند ما عاد إلى كولونيا ، ثارت الخصومة بينه وبين هيئة التفتيش ، فعاد إلى فرنسا ولكنه أبدى بعض الملاحظات المريرة عن الملكة الأم فألقى فى السجن مرة أخرى . ومات اجريبا عام ١٥٣٥ ، قبل أن يبلغ الخمسين من عمره ، ممزقاً ومهزوماً ، يمقته نصف رهبان أوربا ، وكانت هذه نهاية حزينة لتلميذ أفلوطين وبروكلوس ، الذى كانت أشد رغباته عمقا هى أن يحيا حياة التأمل والفلسفة ، ولكن الذى دفعه مزاجه القلق المغامر إلى الترحال كاليهودى التائه .

وقد يحق لنا أن نذكر — بشكل عابر — أن إحدى أساطير اجريبا تتعلق بزيارة قام بها اليهودى التائه نفسه لمعمل اجريبا السيميائى فى فلورنسا (وفى كتاب دافيد هوفمان عن : « سجلات حياة كارتافيلوس ، اليهودى التائه » قيل ان تاريخ هذه الزيارة كان عام ١٥٢٥) . ويرجو كارتافيلوس من اجريبا ، أن يجعله يرى طفولة حبيبته فى مرآة سحرية ، وطلب من اجريبا أن يحصى العقود (عشرات السنين) التى انقضت منذ موت الفتاة حتى يستطيع أن يصنع حركة بعصاه السحرية تشير إلى كل عقد منها ، وحينما بلغ اليهودى رقم ١٤٩ ، بدأ اجريبا يشعر بالنعاس ، ولكن اليهودى أخذ يحصى العقود ، حتى ظهرت فى المرآة صورة مشهد انقضت عليه ١٥١٠ من الأعوام فى فلسطين وظهرت الفتاة ، ريبيكا ، وثارت عواطف اليهودى بقوة حتى أنه حاول أن يتحدث إليها . وكان اجريبا قد شدد عليه بالامتناع عن ذلك . وعلى الفور ، غشيت السحب سطح المرآة ، وأغمى على اليهودى نفسه . وحينما استيقظ ، قدم نفسه لاجريبا قائلا إنه اليهودى الذى دفع المسيح فى ظهره وهو يحمل الصليب ، والذى حكم عليه منذ ذلك الحين أن يطوف الأرض دون توقف إلى الأبد .

وتقول أسطورة أخرى أن اجريبا استطاع أن يظلم إيرل سورى على صور عشيقته ، جيرالدين ، فى نفس المرآة .

أما مزاعم اجريبا نفسه عن تمكنه من الاتصال بالموتى واستحضار الأرواح للتكهن بالمستقبل ، فيبدو أنها تشير دون شك إلى أنه كان وسيطا موهوبا أكثر منه ساحراً .

وتشبه حياة باراسيلساس العملية حياة اجريبا من وجوه كثيرة ، رغم أنه كان أقل ميلا إلى المغامرة ، وأكثر من معاصره السابق عليه كتلميذ باحث فى الطب والعلم . كان لامع الذكاء ، وكان أيضا صخابا شديد الضجيج مولعا بالاستفزاز والعدوان (وكلمة متفاخر ، أو تفاخر كاذب Bombast ، مستمدة من اسمه : بومباستوس) .

ولد فيليبوس أوربولوس بومباستاس فون هوهنهايم ، ولد فى قرية إينزايديلن ، بالقرب من زيوريخ فى سويسرا عام ١٤٩٣ . كان ابن أحد الأطباء ويدعى ويليام بومباستاس فون هوهنهايم . كان الطفل مريضا بالغ الضعف حتى أنه لم يكن يتوقع له أن يصل مرحلة البلوغ . وتلقى العلم فى بازيل ، ثم ذهب إلى فوزيورج لكى يدرس على يدى الفيلسوف الأكبر تريثيموس ، الذى كانت كتبه فى علوم الغيب قد سحرت اب الطبيب الطموح . ومثل اجريبا ، كان فيليبوس باراسيلساس رومانتيكا ، اجتذبته بانفعال فكرة اكتشاف حجر الفلاسفة أو أكسير الحياة أو « الجراند كاثوليكون » وهو دواء كان يفترض أنه قادر على شفاء كل الأمراض .

وعندما بلغ سن الثانية والعشرين ، راح باراسيلساس — وهو الاسم الذى أطلقه على نفسه مقتبسا اسم الطبيب الرومانى سيلساس — راح لكى يعمل لمدة عام فى مناجم الفضة فى التيرول ، ثم قرر أنه أراد أن يرى المزيد

من العالم ، فبدأ مرحلة من التجول استمرت تسع سنوات . وأعلن أن هدفه كان هو الحصـــول على المعرفة الطبية عن طريق رؤية أكبر عدد ممكن من المرضى .

كما يجب أن نعرف أن بارسيلساس لم يفكر فى نفسه أبداً باعتباره ساحراً دارسا لعلوم الغيب . على العكس كان مزاجه تجريبيا بشكل كامل ذا عقل صلب المراس . وقد آمن بالسيمياء والتنجيم لأنهما كانا يبدوان شيئين علميين فمن المعقول أن يؤمن بهما ، ولـكنه كان شديد الشك فى أنواع الأدوية والعلاج التى كانت تتضمن أى شـكل من أشـكال « السحر » . سواء كان سحراً « عاطفياً » من أى نوع آخر . وقد تدعم هـذا الموقف المعادى للسحر حينما التقى فى باريس برجل بارز جـداً ، هو امبرواز باري ، الذى كان سيصبح واحداً من أكبر العباقرة فى الطب . لم يكن بارى مهيأ لأن يفعل من قبل لا لشىء إلا لأن كل الناس قد تقبلوه دون معارضة من قبل . وحينما ذهب إلى الحرب ، كجراح فى الجيش عام ١٥٣٧ ، كانت الجراح تطهر وتعالج بصب بعض الزيت المغلى عليها .

قرر بارى أن يجرب نوعا من المرهم المصنوع من مح البيض وزلاله وزيت الورد التربنتين ، فاكتشف أن الجروح التى هوجلت بهـذا المرهم قد برئت والتأمت بسرعة كبيرة . فاستنتج ، وكان صائبا فى استنتاجه ، أن أكثر الجنود قـد ماتوا نتيجة الصدمة والإجهاد لا بسبب جراحهم . وحينما كانت الأطراف تتمزق بسبب قذيفة مدفع ، كان المعتاد أن تترك لـكى تتعفن وتصاب بالغنغرينا ، ثم تبتر بضربة فأس . وحاول بارى أن يربط الشرايين والعروق النازفة بخيط متين عادى ، فاكتشف أنه حينما كان النزيف يتوقف ، فإن الجندى كان يتماثل للشفاء .

خبراء ودجالون

يكتشف بعض المؤرخين أن نوعية السحر قد سقطت سقوطا واضحا بعد القرن السادس عشر . . . ويستطيع أى إنسان ان يخمن السبب فكل الأشياء تمضى فى دوائر .. ثمة عصور عظيمة للشعر .. الرسم .. الموسيقى العلم .. وظهر كتاب (معرفة الساحرات) الذى يتحدث عن الشياطين .. وفاوست .. ونال إعجابا كبيراً .

كان ما يحدث مثلما نستطيع الآن أن نرى إذ ننظر إلى الوراء .. هو أن الكنيسة قد كادت تفقد قبضتها القوية وكان الخيال الانسانى يزداد نمواً وكان يقف عند حد وكان عصر العلم يقترب وقام سيد ريفى يدعى سكوت بتأليف كتاب (اكتشاف السحر) وقد اتخذ وجهة نظر جديرة بشكاك لا يتراجع أبداً عن شكه فهو يقول :

(كل المظاهر والأعمال الروحانية) ليست سوى ادعاءات وحيل مصطنعة وأعلن أن الساحرات كن شيئا من ابتكار محاكم التفتيش وتبدو بعض حكايات مضحكة ولمرحلة مثل قصة الشاب الذى كان من سوء حظه أن يقع فريسة ذلك الواهم الضاحك .

لقد أخطأ سكوت إذ اعتقد بأن كل المظاهر والأعمال الروحية كانت راجعة إلى عمليات الخداع والغش أو إلى الاضطراب العقلى من جانب المشاهدين ولكن هذا الشك كان علامة صحيحة بعد قرون كاملة من التصديق الكامل . أما بالنسبة للملك جيمس الأول فكان قد تحول إلى الايمان بالساحرات بسبب قضية (بدويك) حيث عذبت فتاة صغيرة كانت تمتلك بعض المواهب الطبيعية النادرة على (العلاج الروحى) وشفاء الجراح عذبت

على يدى سيدها حتى اعترفت بأن الشيطان هو الذى كان يساعدها وبعد مزيد من التعذيب اعترفت على عدد آخر من الناس .

وكان هؤلاء من فئات عليا فى المجتمع الراقى منهم ناظر مدرسة جديد فكان هو وسيدة مهذبة أخرى وسيدتان أخريان لها سمعة طيبة . الأمر الذى يدفع إلى الظن بأن الفتاة اختارتهم لأنها كانت تأمل أنهم سرعان ماسيكشفون عن سخف الاتهامات الموجهة إليهم وإليها كذلك ، ولكن كانت الطريقة الوحيدة لإيقاف عمليات التعذيب غير الانسانية . كانت تعتمد على ابتكار قصص عن (يوم سبت الساحرات) واتهام المزيد من الأبرياء ، وهكذا فعل الجميع ممن اختارتهم الفتاة حتى شملت المحاكمات سبعين شخصا . وقد أشرف الملك جيمس بنفسه على بعض مراحل التعذيب ، وخاصة حينما اخترعت الفتاة قصة عن الابحار فى سفينة سرية بهدف محاولة إغراق سفينة الملك .

وقد تم إحراق غالبية المتهمين السبعين وأحرق بعضهم دون استخدام الرحمة المعهودة بشنقهم أولا قبـــل إحراق جثثهم ثانيا .. ولكن أحرقوا أحياء .. وقد ألف جيمس كتابه (عن عبادة الشياطين) كنتيجة لهذه التجربة ولقد كان تحولا سحريا سافراً أن دفعت شهوة الملك جيمس إلى استجواب الساحرات .

صاحب الكتاب والتجربة فى النهاية إلى الاتفاق مع ريجنالد سكوت على أن الجانب الأكبر من المشاهدة كان تدليسا وغشا سافراً ، وقد توقفت محاكمة الساحرات فى نهاية عهده توقفا كاملا تقريباً . . .

كان الدكتور (دى) شخصية من أكثر الشخصيات فى تاريخ السحر جدارة بالتعاطف رغم أنه لم يكن من أكثرها بروزاً ويكاد يتميز بين السحرة بعدم امتلاكه لأية سلطات غيبية مطلقا وقد قال عن نفسه ذلك مراراً . .

كان متصوفا نوعا ما رغم أنه لم يكن ينتمى إلى مرتبة رفيعة من المتصوفين ـ ذلك أن رغبته المسيطرة كانت فى المعرفة والبحث والدراسة والتعليم .

وجملة القول السائد فى مدينة كامبيردج يشعر بالامتنان وسحرته طقوس الكنيسة الكاثوليكية . ذلك أن إنجلترا لم تكن كلها بروتستانتية بعد ، وفي أول فرصة ذهب إلى جامعة لوفيد التى كانت واحدة من أحسن جامعات أوربا ، وهناك قرأ كتاب (الفلسفة الغيبية) فأثرت فيه وأثارته فكرة أن السحر والسيميا لم يكونا مجرد دراسات شيطانية وإنما عاملين مساعدين بشكل عملى فى البحث الصوفى عن الله ، وكانت سمعة السحر سيئة فى انجلترا . . . التى كانت مستودعا بعيدا كالمستنقع فى ظل ما يتعلق بالثقافة . ولكن السحر فى القارة وكان يثير الاهتمام الذكى .

ولا بد أن نتذكر أن السحر والعلم كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا فى ذلك الزمن بل إن الرياضيات كانت تعتبر دراسة سحرية عميقة وصاحبها الرائد فيثاغورس . . وكان السحر عند (دى) نفس معنى العلم عند (ريلز) بعد ثلاثة قرون كان هو ما ظل يحلم به باستمرار مجال رائع شاسع الدراسة دون حدود مرئية من أى نوع وسرعان ما اكتسب شهرة تطاول العلماء .

وسبقته شهرته حينما ذهب إلى باريس عام ١٥٥٠ وفى ريمز ألقى سلسلة محاضرات عن أيوقليدس وعاد إلى إنجلترا ضاربا منصبا خطيرا فى جامعتهم .

وفى عام ١٥٥٢ التقى بصديقه كاردان المتخصص فى علوم الغيب والذى كان ساحراً بالمعنى الدقيق لكلمة ساحر أى أنه كان يمتلك تلك الحاسة السادسة بالغة التطور إلى آخر الملكات الغيبية الأخرى .

لقد أكد فى مذكراته أنه كان يستطيع منذ طفولته أن يرى أشياء خيالية بإحساس بالغ الواقعية ، ويقول إنه فى طفولته لم يكن يستطيع أن

يسيطر على هذه القدرة ولـكنه تعلم فيما بعد كيف يختار الأشياء التي يريد أن يختارها . ويتطابق هذا مع الصورة التي شيدناها للقدرة الطبيعية على الرؤيا. صور الرجل الذي يعاني من نوع ما من الاضطراب الـكيميائي الذي يؤدي إلى نفس ماتولده جرعة من عقار عصبي أو نفسي إلى السيطرة على النفس حتى أنه كان يتوقع على الجهاز العصبي من آثار ، وارتبط ذلك كله بنوع من الافتقار شبه الهستيري إلى السيطرة على النفس حتى أنه كان يندفع إلى الجدل بهدف الجدل ذاته سواء كان يؤمن بما يقول أم لا . . فإنه يجد نفسه مضطرا إلى أن يقول أشياء يعرف أنها قد تنفر الناس منه واعتقد أنه يصاحب روحاً تلازمه على الدوام كما كان منجما ومتنبئا موهوبا إلى درجةغير عادية ولاشك أنه يعد واحداً من أبرز الأعاجيب النفسية في كل العصور .

وكان لـكاردان أثر كبير على (دى) الذى بدأ يفـكر فى الأرواح التى يمكن أن يتصل بها لـكي تساعده في بحوثه . . كانت النقود هى مشكلته الآن . . وظلت كذلك طوال حياته وكان مقتنعاً بأنه إذا ماجرب طريقته الخاصة في السيمياء . . وهى استخدام القوة الروحية فإنه سرعان ما سيحل مشـكلة حجر الفلاسفة ، ولـكن السيمياء تـكلف الأموال الطائلة ، وتحطمت آماله فى الحصول على منحة ملـكية حينما مات للملك إدوارد السادس .

واندفعت البلاد إلى أزمة سياسية عنيفة ، وتولت مارى حكم البلاد ، واكتسبت إسم (مارى الدموية) بعد أن أمرت بإحراق أعداد كبيرة من البروتستانت أثر زواجها من وارث العرش الأسبانى الـكاثوليكي .

أما فيما يتعلق بالسيد (دى) فانـ كل ما يمكن أن يقال فى الدفاع عن عملية إحراق البروتستانت هى أنها شغلت الناس عن إحراق السحرة .

وقد دعى (دى) لـكي يقرأ طالع الملـكة مارى فى خريطة النجوم ،

وربما كانت معرفته المسبقة بموتها المبكر هى التى أعطت فكرة الاتصال بشقيقتها الصغرى التى كانت ستصبح الملكة الثانية ، والتى كانت أسيرة فى وودستوك فى ذاك الوقت . وزار اليزابيث وقرأ طالعها فى أبراج النجوم هى الأخرى بل إنه أطلعها طالع أختها ذلك أنه رغم كل شىء لم يكن مصير مارى مرتبطا بمصير اليزابيث . ولكن جواسيس مارى نظروا إلى هذه الزيارة باعتبارها إلى حد ما أن تكون مؤامرة سياسية .

فألقى القبض على (دى) ووضع فى السجن متهما بالخيانة وهناك مر بتجربة محزنة عندما رأى زميله فى السجن (جرمين) وهو يحرق متهما بالزندقة رغم ما كان عليه من طيبة النفس ، وقد كان من حظ (دى) أن مارى ماتت مغرمة بأختها الصغرى ، وإلا لكان عليه أن يدفع ثمن التطفل بالدخول بين الملكة الحالية وملكة المستقبل وأطلق سراحه عام ١٥٥٥ .

وماتت مارى بعد ثلاثة أعوام وأصبحت اليزابيث ملكة إنجلترا وكان أول طلباتها هو أن يختار (دى) اليوم المناسب لتتويجها فوقع اختياره على اليوم الرابع عشر من يناير عام ١٥٥٦ — وبدأ الأمر كما لو كان (دى) قد ثبت أقدامه أخيراً فقد أصبح بشكل ما المنجم الملكي ، ولكن اليزابيث لسوء حظها كانت مقبوضة اليد بخيلة فلم تتحسن أوضاعه المالية وأصبح شبيها بالرسول الشخصى فى أسفاره الكثيرة إلى القارة فى بعثات خاصة لشئون الملكة ووزير بيرلاى وسير والسينجهام رئيس جهاز التجسس عن الملكة .

ومثلما حدث لأجريبا وجد (دى) نفسه غارقا فى دوامة المؤامرات والأعمال الخفية . وفى سنة ١٥٦٣ كان يمثل ضغطا نفسيا كبيراً بالنسبة لعاشق الكتب والهدوء واكتشف فى أمستردام كتابا بعنوان (ستينوجرافيا) وهو كتاب عن السحر والسيمياء ومعانى الأرقام وقد أثر هذا الكتاب فى كتاب (دى) نفسه عن السحر الذى وصفه باسم « الهيروغلفيات الكبرى

وقد تحير الملقون بسبب ملاحظة الوزير لورد بيرلاى على الكتابة التى تقول (إنه ذو أهميـة كبرى فى عمليات التجسس) لأنه يعالج الشفرات التى ربما كانت ذات أهمية لحفظ النظام والعهد .

وكان دى قد وقع فعلا تحت هواجس اكتشاف الكنوز بالاستعانة بالأرواح التى لاشك أنها كانت يمكن أن تفيد النظام والعهد . أما الاحتمال الآخر الوحيد لاهتمام الوزير فهو أن (دى) أنه يمتلك وسائل مؤكدة يستطيع بها أن يعرف خطط أعداء انجلترا عن طريق التنجيم فإذا كان الأمر كذلك فإن أحـداً لم يؤمن به إيمانا يكفى لدفعه إلى تحويله وظل دي رسولا شخصيا ومستشارا فى أمور السحر أحيانا للمملكة .

وتقلبت حياته بعد ذلك وتزوج ثم ماتت زوجته بعـد سنة من الزواج فتزوج واستقر فى منزل الأسرة فى مورث ليك بجوار لنـدن ثم بدأ يدرس الوسائل الروحيـة التى ظنها كفيلة بتوصيله إلى ماكان يبحث عنه . . حجر الفلاسفة . . ولـكنه لم يكن يمتلك أي مواهب روحانية خالصة . وجاءه غريب إيرلندى وكان متهما من قبـل بتزييف النقود وصكوك المضاربات ولـكنه كان يملك المواهب الروحانية الطبيعية المطلوبة وبدأ يستخدم (الـكرة البلورية) كوضوع للتأمل المركز المؤدى إلى القدرة على رؤية الأشياء الخفية ورحل إلى أوربا لمدة أربع سنوات بصحبة زوجته ومساعده الإيرلندى وهناك زار رودلف الثانى امبراطور ألمانيا وملك فرنسا ، ولـكنه لم ينجز الكثير من الأعمال .

وعاد بعـد أربع سنوات لـكي يجد أن منزله قد سرقت منه أدواته المـكتبية ومكتبته العامرة بالـكتب ولـكن الملكة قدمت له تعويضا بسيطا . ثم ماتت زوجته الثانية واقترب القرن من نهايته .

كان هو فى الثمانين من عمره دون أن يقترب أو حتى يدنو من الهدف الذى كان يسعى إليه طيلة حياته ومات فى قريته عام ١٦٠٨ .

وترك (دى) مجلدات كثيرة من ذكرياته وتجاربه وأعماله وترك كرة بلورية قال إن روحا أهدتها إليه بأمر من الملاك روفائيل .

وهى الآن فى المتحف البريطانى .

فى القرن السادس عشر كان عصر السحر قد انتهى وكان صوت الشك العقلى قد بدأ يرتفع ويصبح مسموعاً .: عند رابليه ومونتانى وبعد جونسون.: ولقد ثارت ثائرة مونتانى بسبب عمليات إحراق الساحرات وكتب على ذلك يقول :

(يحتاج الأمر إلى قدر حاد ولامع من الوضوح لكي يصبح الناس قادرين على قتل غيرهم . . أو حياتنا الطبيعية حقيقة للغاية وخاصة أيضاً لحوادث عارضة خيالية وأسمى من الطبيعة) .

ولست أظن أحـــداً ولا حتى المؤمن بعلوم الغيب يمكن ألا يتفق معه والمشكلة هنا ببساطة هى : أى نوع من الوعي الإنسانى يعنى بهذه الأحداث العارضة التى يقول عنها ؟ .

أما الكاتب ويليام جيمس فى كتابه (أنواع من التجربة الدينية) فيضع فى تعارض مع (النفس المريضة) التى تكون على الدوام مدركة إدراكا عميقا بما فى العالم من بؤس وعذاب ، يضع المتفائل الذى لايرى شيئا والذى يرفض مزاجـه البؤس بشكل غريزى وينطبق نفس الشىء على مايتعلق بالغيب ومعرفته .

أن شخصا من النوع المشغول المشحون بالطاقة لا يكون لديه وقت لما هو فوق الطبيعة ويجعله رفضه المزاجي له يشعر بأن هـذا العالم القائم من مجموعة

قضايا محددة العملية . هذا العالم الحقيقى الوحيد وهذه غريزة صحية ولابد لنا أن نتذكر أن جميع الأطفال تقريبا لايحبون مافوق الطبيعة . . إلا ما يكون منها من قصص الأشباح .

وليس هذا نوعا من الخوف بالضرورة وإنما هو احتياج غريزى لمواجهة عالم بسيط وواضح يستطيعون فيه أن يتخذوا قراراتهم وأن يشكلوا مصائرهم وحياتهم ويستطيع أن يفهم هذا كل من يحاول أن يحب العلم .

إن ثمة شيء فى العلم بارد وصلب ومنعش مثل معركة مرحة بكرات الثلج أن يبدو كما لو كان يفتح مساحات شاسعة من السيطرة والغزو .. أما عالم الغيب فهو بالمقارنة بالعلم عالم رطب يغلفه الضباب ، يذكر الإنسان بجهله ويشجعه على أن يتخذ موقفا سلبيا من وجوده .

وحينما جاء عصر رابليه وشكسبير ثم تبعهم عصر إسحق نيوتن وميلتون . بلغ الذهن الإنسانى مرحلة جديدة من تطوره . . كان هناك إحساس بالإمكانيات والاحتمالات القائمة ووجود آفاق شاسعة مثيرة .

وكان اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ رمزا لهذا التغير . . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تترنح تحت الضربات التى كالها لوثر وهنرى الثامن حقاً إن جاليليو قد أرغم على أن يسحب الرأى الذى كان قد عبر عنه عام ١٩٢٢ من أن الأرض تدور حول الشمس . . ولكن فى عام موته عام ٤٢ ولد إسحق نيوتن ولم يعد يهتم كثيراً مما كان يقول البابا وكرادلته وعندما نشر كتاب (المبادىء) لإسحق نيوتن عام ١٦٨٧ خطا العلم خطوة أعظم بكثير من كل ماخطاه السحر منذ مولده فى مصر القديمة وكلدانيا .

وحينما يحاول المرء أن يفكر فى السخافات المتضمنة فى أعماق كورنيليوس أجريبا وجون دين ثم يتحرك إلى هذا البناء المعقد الرائع من الأفكار حيث

ظل شيء صحيح وصائب فإنه يصبح قادرا على رؤية السبب الذي جعل السحر يفقد قيمته .

ولكن الحقيقة هي أن نهضة العلم لم تكن ضربة موجهة ضد النزعة الغيبية تستطيع أن تحرر نفسها من العلم المزعوم عند اجريبا وباراسيلساس وأن على اهتماماتها الحقيقية كان معنى روح العلم الجديدة ومؤداها أنه لم يعد من الممكن أن يوجد باراسيلساس أو جودى من جديد ولو أن باراسيلساس قد ولد متأخرا قرنين لكان قد أصبح طبيبا وعالما متميزا وليس ساحرا . . أما بالنسبة للباحثين في علوم الغيب أنفسهم فلم يعد في وسعهم أن يزعموا بأن العلم يقف عند هؤلاء ولا أنهم يمتلكونه الأمر الذي أدى في مغزاه إلى أنهم كان عليهم أن يكفوا عن الزعم بامتلاكهم لنوع من المعرفة يفوق المعرفة العلمية . . كان أمام خيارين .

أما التهريج والشعوذة . وأما الصوفية .

ومنذ عام ١٧٠٠ لم يعد هناك ساحرا دون أن يكون فيه لمسة من المشعوذ الدجال .

من المؤكد أن هذا القول ينطبق على أحد الشخصيات أكثر أهمية في مرحلة التحول هذه هو فرانز ميسمير الذي عزى إليه دون حق فضل ابتكار التنويم المغناطيسي . . وتعتبر قصته من أعجب القصص في تاريخ علوم الغيب .

وتتمتع النظرية التي قدمها ميسمير في هذه الرسالة بأهمية ملحوظة لقد اعتقد بوجود نوع من الأثير النفساني يتخلل الفضاء كله وأن الأجرام السماوية تؤثر في هذا السائل وتنتج فيه حركة تشبه حركة المد والجزر البحريين .

وتؤدي عمليات المد المتحركة أبدا هـــذه إلى الصحة فإذا كان شيء ما حركتها وتأثيرها في الأشخاص فالمرض هو النتيجة المؤكدة وبكلمات أخرى

أن الصحة هى الوضع الطبيعى للإنسان أن يعتمد على الحركة بدلا من العقل اتحاد فريزي مع الطبيعة فإذا قام سد ما داخل مريض فإن أفضل طريق لمعالجته هى أحداث أزمة ما تكتسح السد أمامها .

وقد أثارت هذه النظريات اهتمام راهب يسوعى يدعى البروفيسور ماكسيمليان هيهل ، الذى حدث أن طلبت منه سيدة ثرية فى فيينا أن يصنع لها مغناطيس لكى تضعه على معدتها التى كانت تعانى من بعض التقلصات وقالت أنها عابرة بالصدفة فى المدينة وقد نسيت المغناطيس الخاص بها فى منزلها وصنع هيهل المغناطيس وشفيت المرأة من التقلصات .

وتساءل هيهل . من الممكن أن يكون المغناطيس قد حرك السائل الأثيرى الذى تحدث عنه ميسمير حول الجسم ونقل هيهل هذا السؤال إلى الميسمير الذى بدأ يجرب تأثيرا المغناطيس على مرضاه ولدهشته وجد أنه يؤتى تأثيرا واضحا إذن فللجسم حركات مد وجزر .

ولكن ماحدث يبدو واضحا إلى درجة كافية لقد آمن ميسمير بأن المغناطيس إلى جانب يديه قد حركت السائل المغناطيسى الراكد داخل مرضاه وقد آمن مرضاه أيضا ولذلك فإنهم كانوا يشعرون بالراحة من الألم .

كان لميسمير السبب فى أن يعتقد بأنه هو الذى جاء بهذه الراحة ومثلما فعل الكولونيل أرنلوت بدأ يوجه مواهبه العلاجية .. المواهب العلاجية المهملة والخفية التى يمتلكها الإنسان .

وتزايدت شهرة ميسمير فجأة من خلال حادثة عارضة كان البارون هاريسكى دى هوركا مصابا بورم غضروفى ويعانى من نوع من التشنجات التى عجز الأطباء عن علاجها . وفى النهاية اقترح عليه طبيب استبد به الإرهاق وزادت سخريته أن يعرض نفسه على ميسمير مشبها بذلك دون شك إلى أنه

طالمـــا كانت متاعب البارون من نبت خياله فلا بد أن مهرجا مثل ميسمير لن يزيدها ضررا .

وذهب ميسمير إلى مزرعة البارون في روكوف وقد أحاط جسمه بعدد من المغناطيسيات القوية ، وكان يؤمن بأنه لا فرق بين مغناطيسية الجســد الحي وبين مغناطيسية المعدن فكان يقصد من كمية المغناطيسيات التي ربطها حول جسمه أن يزيد شحنة جسم هذا الذي سيستخدمه في علاج البارون .

وبدأ جلسات العلاج المغناطيسي ولكن البارون لم يستجب وإن كانت عزيمة ميسمير جعلته يصر على الاستمرار لمدة سبعة أيام وبعدها بدأ جسم البارون يستجيب لعمليات التدليك التي كان يقوم بها ميسمير وبدأ البارون يشعر بالراحة وأصبح العلاج الحديث الرئيسي لصالونات فيينا ، ولعن الأطباء زميلهم الساحر الذي زادت سخريته على شهرة مشعوذ دجال .

وصنع ميسمير من تصميمه جهازا لتوزيع الطاقة المغناطيسية مكونا من القوارير تحتوي على ماء ممغنط وحولها أعدادا كثيرة من المغناطيسيات تربط بينها حبال رفيعة من الصلب ، ثم وضع التركيبة كلها في صندوق خشبي كالوعاء الكبير ملأه ببرادة الحديد والماء وكان يستخدم إبرة معدنية لتوزيع الطاقة المغناطيسية في أرجاء الحجرة وامتد مغنطة الأشجار والنافورات في الحديقة وراح المرضى يرقدون تحت الأشجار بالعشرات وقد تماسكت أيديهم ليكونوا حلقة التوصيل للطاقة بعد استقبالها واستمرت النتائج في تحسن .

وجاء سقوط ميسمير في فيينا بسبب عازفة بيانو حسناء عمياء ، وكانت في رعاية الإمبراطورة وزعم ميسمير أنه يستطيع أن يرد إليها نظرها دون أن يتبين إنها كانت عمياء منذ مولدها بسبب تليف فطري في قرنية العينين .

ورغم ذلك فقد زعمت الفتاة بعد انتقالها بأسابيع إلى منزل الأطباء ،

وحماة الأخلاق ومن بينهم الراهب اليسوعي هيهل راحوا يتهامسون عن السبب الذي يفرض أو يتضمن العلاج قيام ميسمير بتدليك صدر الفتاة وفخذيها ، ولماذا كانت كل مريضاته من الشابات الحسان ؟! ولماذا هو يهمل زوجته العجوز المريضة ولا يعالجها ؟. وتطوع طبيب يدعى البروفيسور يارث لكي يفحص الفتاة فأعلن إنها ماتزال عمياء ... وبدأ بوليس الآداب والأخلاق الامبراطوري يستعد للتدخل في القضية .. ولكن ميسمير قرر الهرب من فيينا رغم أن بعض أصدقائه أكدوا أن حالة الفتاة في طريق التحسن ، وأنها انكست بعد هربه وتوقف العلاج .

وذهب ميسمير إلى باريس فتحول إلى نوع من الخبل العارم ... وقصده الجميع ، ومن لم يقصده كان لا بد أن يشعر بالنقص أو الضعف أو قلة الحيلة ، واكتشف قبل فرويد بقرن كامل أهمية العنصر الجنسي في الأمراض الهستيرية كان يدخل حجرة العلاج مرتدياً جلباباً حريرياً ليلكي اللون حاملا مغناطيسيا طويلا يشير به نحو المرضى ، وهو يمر وسطهم ثم يدخل الحجرة التالية ليعزف على بيانو مغنط .. ثم يشكل المرضى سلسلة متماسكة مكونة من الرجال والنساء بالتبادل ، ويضغطون على أفخاذهم ليزيدوا من قوة الطاقة المغناطيسية وسرعان ماتنتابهم التقلصات ثم ينهارون على الأرض ، ولما كانت الطاقة المغناطيسية تتداول ، وتنتقل بالأيدي ، والأفخاذ منطقة حساسة فإن الفرص متاحة لهم لتجربة مغناطيسيتهم الحيوانية من أحدهم على الآخر وكل شيء يتم باسم العلم الطبي ، ويقوم المساعدون بنقل من يزداد تأثرهم أكثر من اللازم إلى حجرات الأزمات .

وكانت هذه هي نهاية الطفرة والازدهار بالنسبة لميسمير .. وراحت مكانته كما راح حظه ينهار بالتدريج .. ومضى الناس يتفكهون به ، ويسخرون منه .

وذهب إليه طبيب بقصة مختلقة عن مرضه مرضا غريبا ، وطلب منه أن يعالجه ثم نشر الطبيب القصة كلها ، وزعم أن ميسمير كان عاجزاً حتى عن تشخيص المرض ، ولما كانت الموجة كلها ضده ، فإن أحداً لم يقل أن غالبية الأطباء يحتمل أن يقعوا فريسة نفس الخدعة .

وجاءت ماريا إلى باريس وهى عمياء البيانو ، وأقامت حفلا موسيقيا عزفت فيه على البيانو عزفاً رائعاً . . ولكن هذا العزف لم يثير من الاهتمام شيئا فقد كانت عمياء كما كانت من قبل . . ولميسمير من الشجاعة ما جعله يحضر الحفل ، واستمع إلى الهمسات والتعليقات الجارحة ، وتجاهلها وسط جمهور المستمعين الذين كانوا يعرفون قصته كلها مع تلك الحسناء ، وفشله فى علاجها .

ربما يشعر القارىء أن ميسمير لم يكن له أهمية فى تاريخ العلوم الطبية ، ولكن هذا ليس صحيحا ففى أوقات معينة يمكن أن يكون نسخة جديدة من باراسلساس ، فقد عرف أهمية الروح والخيال ، وشعر بأن قوة مؤثرة معينة ذات معنى خاص تتخلل السكون وتنتشر فيه . . حقا إنه من الممكن أن يفسر أكثر ما توصل إليه من النتائج على ضوء فهمنا للهستيريا ، والتخفيف من الكبت ، والإيحاء الذاتى ، وما إلى ذلك . ولكن الشىء الهام هو أنه أدرك أن المرض ليس شيئاً طبيعيا ، وإنما هو نوع من الحاجز يقوم فى طريق القوى الطبيعية — نوع من التجميد والاختناق العقليين . . واتجهت رغبته الغريزية إلى محاولة دفع القوى الحيوية إلى التحرك مرة ثانية من جديد فلو كان علاجه خيالا خالصا لما وصل إلى النتائج التى توصل إليها بالفعل ، ولكن لم يحسن فهم القوى التى يستخدمها حينذاك رغما من أنه قد عرف بوجودها الفعلى .

أما الاكتشاف الذى كان من المفروض أن يصل إليه ، وهو الاكتشاف الذى يعزى إليه بشكل عام الفضل فى اكتشافه فقد وقع عليه بالصدفة أحد

تلاميذه : الماركيز بير سيجور الذى كان يحاول يوما فى تخفيف آلام راعيا شابا بالتربيت المستمر على رأسه فلاحظ أن الشاب قد غرق فى النوم، وبقى الشاب نائما رغم هزه باستمرار ، وظل فاقد الوعى ، حتى صاح المركيز فيه قف ، ولدهشته هب الشاب واقفا دون أن يفتح عينيه ثم أجاب عن الأسئلة التى ألقيت عليه وأطاع حينما أمر بأن يجلس ، أو يمشى ، وحينما أوقظ لم يتذكر شيئا مما فعله قط .

وأطلق على هذه الظاهرة اسم النوم النشنجى ، وكان قد تبين أن التنويم المغناطيسى يرجع أساسا إلى عمليـة تضييق الانتباه حتى يصل العقل إلى حالة يمكن أن تسمى أحادية الفـكرة أو التركيز على فـكرة واحدة ضيقة .. وهذا يعنى القول بأن المغناطيسى هو العكس الـكامل لمـا دعوته (الملـكة مى) ، وينتج بالتالى أنه طالمـا أننا نادراً ما نـكون فى تلك الحالة من اليقظة الـكاملة حينما يكون العقل شاعراً بشـكل ما بوجود وواقعية أزمنة أخرى فإننا دائما فى حالة من الوعى تقرب من حالة النوم المغناطيسى .

* * *

السحر والرومانتيكية

فى القرن التاسع عشر

فى السنوات الأولى من مطلع القرن التاسع عشر مات رجلا يستحق أن يوصف عنـد رجال الغيب والتصوف بأنه : الفيلسوف المجهول لويس كاود دى سانت ما يشير . . ولـكن أهمية هذا الرجل فى أنه يقف بين المتصوفين التقليديين فى الشرق والغرب ، وبين النزعة التطورية الجديدة ، وتعرف فلسفته بافتة غير عادية من التفاؤل .

فالإنسان عنده بشـكل أساسى آلة وليس حشرة ، ويتشابه فـكره مع فـكر سويد نبرورج فى هذا الجو من الصحة والعافية والنور وعلى حديثه عن فـكرة أن الأرض ليست أ كثر من ذرة فى هذا الـكون الفسيح يقول :

(ربمـا كان هذا الارتباط الخاطىء بين الأفـكار هو الذى دفع بالبشر إلى الفـكرة الأ كثر خطأ ، والتى تقول بأنه ليسوا به جديرين بعناية خالقهم) .

لقد اعتقدوا عن أنفسهم أنهم يطيعون أوامر رفعتهم وقوانين حطتهم حينما أنـكروا أن الأرض والـكون بما يحتويه لا يوجدان إلا من أجل البشر ولحسابهم على أساس أن الاعتراف بمثل هذه الفـكرة لن يكون سوى نوع من الغرور ، ولـكنهم لم يكونوا خائفين من الـكسل والجبن اللذين سيكونان النتيجة الحتمية لهذا التواضع المتخاذل .

إن الابتعاد فى عصرنا عن الاعتقاد بأننا أسمى المخلوقات فى الـكون لهو السبب فى افتقادنا للشجاعة اللازمة من أجل العمل للحصول على هذه الرتبة ، وفى اعتبارنا للواجبات المترتبة عليها مجهدة إجهاداً شديداً وأن من الأفضل لنا أن نتنازل عن وضعنا السامى الفريد من أن نحاول أن نقوم بهذه الواجبات بكل نتائجها .

أين هو المرشد القائد الذى سيرشد هذه السفينة فى إبحارها وسط تلك الصخور المختبئة تحت الماء صخور الغرور والنواضع الزائف ؟

كانت حياة سانت مارتين مفعمة بالأحداث ففى الوقت الذى كان زملاؤه فى الجيش يلعبون ويرتعون انطلق هو إلى القراءة بنهـــم ووانمية ، وقرأ كتاب المعرفة عن الذات من تأليف آبادى ... وكان لهذا الـكتاب تأثيرا كبيرا على حياته وعلى عقله .

وفى سن الرابعة والعشرين فى عمره قابل الرجل الذى أثر فى حياته تأثيراً كبيراً هو (دون مارتينيه) الذى كان عضوا فى جمعية الصليب الوردى ... كان مارتينيـه شخصية شبيهة بشخصية كاجلين سترو فقد زعم الاثنان أنهما خبراء محيطين بعلوم السحر استطاعا أن يصلا فيها إلى درجـة عالية بالفعل . وقد تضمنت احتفالات جماعته تلاوة الرقى والتعاويذ بطريقة جماعة مفتاح سليمان بالإضافة إلى شبكة معقدة من الطقوس الدينيـــة المتعلقة بعلم الأرقام تختلف فى جوانب أساسية كثيرة مع ما ذكرنا .

لـكن لم تكن الجماعة تقوم بكل هذه الطقوس السحرية إلا بهدف الوصول إلى الاستنارة الصوفية النهائية المطلقة — الأمر الذى جعل دى مارتينيه يحب أن يطلق على جماعة اسم (المستنيرين) رغم أنهم لم يكونوا جماعة سياسية ، وانضم سانت مارتين إلى جماعة الـكوهينات المختارة فى النصف الثانى من عام ١٧٦٨ ، ولم تقل النتيجة عمقاً عن نتيجة انضمام كاجليو سترو إلى الماسونيين ، وأصبح سانت مارتنيه رجلا مخلصاً كل الإخـلاص لجماعته الجديدة لاهم له سواها وشعر كأنما قد أصبحت لحياته رسالة معينة .

ولـكن جوهر رسالة مارتين يكمن فى اعتقاده بأهمية الإنسان ، وقد

اقترب مما أعلنه هكسلى من أن الإنسان يقوم الآن بنفسه بإدارة عملية التطور في الكون حينما كتب يقول :

(إن وظيفة الإنسان تختلف عن وظائف الكائنات العضوية الأخرى لأن وظيفته هى إصلاح ما في الكون من فوضى) .

وتتمتع هذه الفكرة من الإصلاح بأهمية محورية في فلسفة وتفسر الأهمية التي أولاها ليسوع باعتباره المصلح . وكانت الفكرة التي سحرت سانت مارتين هي ما يحصل عليه الإنسان دائما من ومضات ساطعة الوضوح للمكانه الشبيهة فيبدو كما لو كانت تستيقظ في داخله قوى هائلة لا يعرف هو عنها شيئاً (يمتلك الإنسان جوانب ومظاهر لاحصر لها للملكات التي كانت مستقرة في العنصر الوسيط الفعال الذي أنتجه) ، ولا ينبغي أن ندرك أن هذه الجملة إنها مجرد تعبير عن فكرة وجود ملكوت الرب في داخلنا وإنما هي تعبير عن كون قوى معينة عظيمة القدرة لابد من بذل المجهود الإرادي من أجل تفجيرها وإزاحة الستار المعتم الذي يحجبها عن العقل ؟

وأراد أن يتجنب مارتين الأنظار فوقع معظم كتبه باسم الفيلسوف المجهول وأراد أن يتجنب ذلك لأنه اعتقد أنه يعيش في عصر من العنف والنزعة العقلية العدوانية إلى جانب أنه يعتقد أن كتاباته لن يستجيب لها أحد ولكنه أخطأ في هذا الاعتقاد .

فحينما توفي في الستين من عمره كانت النزعة المارتينلية قد أصبحت حركة أوربية شاملة ، واستمر في تأثيرها ونفوذها بعد موته . ولم يكن مارتين على علاقة بالحياة السياسية في عصره . . ولكنه كان صاحب تأثير هائل على ثورة أخرى تلك هي الحركة التي أطلق عليها اسم (الرومانتيكية) كانت هي الروح الجديدة التي خلها جوته ، وشيللر ، وهوفمان . . وهي التعبير الفني عن النزعة

الصوفية التى أقامها كلود دى سانت مارتين بما يكمن عمقها جميعا من تلك الومضات البراقة واللحظات التى تنفجر فيها آلة العقل لكي توحى بأنها مكمن الحياة والقوة .

كانت النزعة الرومانتيكية تقوم على أساس لحظات من النشوة .

فما هى النشوة ؟

ربما كان أقل التعريفات التى قيلت عنها إثارة الاختلاف والجدل هو انفجار مفاجىء . . ثم طوفان ماثل من الانفعالات المتصاعدة ، وحينما يجرب الإنسان النشوة يختفى من أمامه كل ماهو عادى وشائع يهتز جدلا فى مهد البهجة وتصبح الحياة فجأة حلوة حلاوة لا يمكن احتمالها . . . إنه لاينتمى ولا فى مثل تلك اللحظات حقيقة الشىء الفقير . العريان . الجائع الذى هو وعيه العادى ، وإحساسه الطبيعى .

كانت القوة الدافعة وراء هؤلاء الرومانتيكيين . . هى قوة روح السحر ، وهى الروح التطورية للجنس البشرى ، وقد كان فيخته الفيلسوف الألمانى أول من لاحظ التناقض الأساسى فى الرومانتيكية .

(لاشىء فى أن تكون حراً . . أما أن تصبح حراً فهذا شىء سماوياً) . :
فحينما تملك الحرية فإنك تتثاءب ، وتأخذ الحرية على أنها شىء مسلم به لأن إرادة الإنسان غالبا ماتكون فى حالة محايدة . ولكن حينما تصبح حرا فجأة بعد فترة طويلة من البؤس والروح تحت القيود يكون كل شى مبهجا . . . وتبدو الحياة ثرية بلا حدود .

ولكن كان ضعف الرومانتيكيون الأساسى هو إنهم لم يفكروا ، كانت قدرتهم على أن يسبحوا طافين فوق طوفان من الانفعال . أخذهم بعيدا نحو الاستبصار الداخلى الصوفى . فقد استخدم الرومانتيكيون الخيال لكي يطلقوا

آثار أنواع الإحباط الحبيسة . . يقيموا من رواياتهم العالم الذى أحبوا أن يعيشوا فيه . . كان أجريبا واراسيلياس جوابى آفاق متجولين تعساء أما الرومانتيكيون فكانوا جوابين فى عالم الخيال :

طوفت مرتحلا عبر أرض الرجال

أرض الرجال وأرض النساء أيضاً

ورأيت وسمعت أشياء مفزعة لاشبيه لها

لم يعرفها الجوالون فى الأراضى الباردة

هذا جزء من قصيدة الشاعر الأديب وليام بليك بعنوان المسافر العقلى ، ولكن هذه الصورة تشير أيضاً إلى الخطأ الأساسى لدى كل الرومانتكيين إنهم متشائمون ، وانهزاميون . . لايرون مخرجاً من القنينة الزجاجية سوى الهروب إلى عالم الخيال غير الحقيقى الذى يضعف من يكرسون له أنفسهم ، ويجعلهم غير صالحين للحياة الحقيقية وفيا هدا جوته فإنهم جميعاً لايفطنون إلى ذلك الشكل الآخر الذى تأخذه النشوة . . . الشهية المتفتحة العنيفة للمزيد من الحياة . . . ثمة حالات نفسية يبدو العالم كله فيها من الجلال بحيث يشعر الإنسان إنه يستطيع أن يشعر الارض مندفعاً كالصاروخ مكتسحاً أمامه كل عقبة تعترضه .

وهذا بشكل عام هو السبب الذى يجعلنا نرى ضرورة رفض الرومانتكيين . إنهم يفشلون فى التزام الطريق الصحيح بسبب مايفعلون به أنفسهم ويحيطون به أنفسهم من الشعور بالإشفاق على الذات . ويبدو أنه يكاد يكون قانوناً أن علينا أن نقبل طرفا من الطرفين غير المشبعين : . ولا الكافيين أو الطرف الآخر . الساحر الذى ينغمس فى الحياة أكثر من اللازم أو الرومانتيكي الذي يخالف الانغماس فيها .

ولكن الإحياء الرومانتيكي جلب معه — على الأقل إحياء سحرياً أيضاً . . . إذ كان القرن التاسع عشر قرناً صناعيا ، شديد الضوضاء . قرناً مملوءً بالقذارة ، والدخان والمجاري الرديئة . . ولكنه أيضاً كان قرن السكك الحديدية والكشوف الكبرى والمعارض العظمى في فرنسا ، وربما كان أكثر القرون في تاريخ البشر حيوية وإثارة وفي غمار جمع الثروات وبناء الإمبراطوريات دفع مالا يقل عن خمسة وتسعين بالمائة من البشرية إلى الجدار ، ومن هنا كان إحياء السحر الذي يعتبر بشكل أساسي ثورة ضد الحقيقة الواقعة الخشنة الغليظة الملمس .

وكان البلد الذي حدث فيه هذا الإحياء لأول مرة هو فرنسا . ومن الغريب تماماً أن الرجل الذي قدم الحركة الدافعة الأولى ، هو ذلك المؤرخ العظيم بلزاك . . ولهذا الرجل ميول صوفية قوية تبرز آثارها واضحة تماماً في أعماله مثل (لوى لابين) — (سيرَ فيتا) (البحث عن المطلق) ، ولكن بالنسبة لكل من لوى لابين وبالثارا كليا بطل الرواية الأخيرة ينتهي البحث المطلق بالموت لا بالانتصار .

وفي عام ١٨١٠ حينما كان بلزاك في الحادية عشرة من عمره فقط ولد في باريس الرجل الذي كان مقدرا له أن يصبح مصدر الإحياء الحديث للسحر وهو الفونس كواستانت الذي وضع كتبه تحت الاسم المستعار (اليفازليفي) وقد أعجب قسيس الأبرشية التي يتبعها بذكائه فكان هو الأداة التي ساعدت إرساله إلى كلية سانت ساليس وأصبح واستانت قسيسا ولكنه طرد من سلك الكهنوت بعد بضع سنين لأنه كان يبشر ضد تعاليم الكنيسة .

إن ماينبغي أن يتضح لنا الآن هو أن روح السحر قد تبدلت تبدلا كاملا في القرن التاسع عشر كان السحر علما بالنسبة لبارسلبيساس ولكنه بالنسبة

لفاجلين ستزد أصبح أداة لنشر دينه القائم على تجديد الإنسانية أما بالنسبة لليفى وليتون فقد أصبح ملكية أدبية رومانتيكية تحيطها سحب كثيفة من البخور .

• • •

إن فاوست عند جوته يتحول إلى السحر لأنه يقنى وينفذ صبره أزاء أنواع القصور التى تحدد مجال إنسانيته وهو يريد أن يكتشف أرجاء تلك اللحظات من الكثافة والحدة ، والقدرة على النفاذ الشبيهة بما يتميز به الإنسان المؤمن نفسه . . من هنا كان ذلك الخيال المهلك المزمن الشائع للنتشر العادى فجعل كل شىء عاديا وواضحا وراح الرومانتيكيون ينظرون بحنين مرضى إلى الوراء نحو عصر الجنيات .

ولكن هذا الاتجاه أخذ صورة جديدة ، وبدأ عصره الجديد فى أمريكا فى عام ١٨٤٨ فى منزل إحدى العائلات بمدينة نيويورك حينما أعلنت شقيقتان أنهما تستمعان إلى ضوضاء غامضة غريبة وتستطيعان بالفرقعة على بإصبعهما أن تجعلا الضوضاء تصدر من نفس المكان ثانية كما لو كانت إجابة فرقعة الأصابع ثم بدأت الفتاتان تعرفان ، فإنهما قادرتان على الشعور بوجود الأرواح أينما كانت ، وبذلك بدأ مفهوم الوساطة ، وقد تمكنا من الكشف عن مصدر تلك الأضرار فى منزلهما باكتشاف جثة رجل مقتول كانت مدفونة فى حديقة البيت وعلى الفور انتشرت الحكاية كلها فى أمريكا ثم بدأ ظهور آلاف من الوسطاء فى طول البلاد ، وقد ثبت بالطبع أن الكثيرين منهم كانوا نصابين ، ولكن ثبت أيضا أن الكثيرين كانوا أصحاب قدرات حقيقية

• • •

السحر وجنون الذئاب

تحدثنا من قبل أن النساء فى مجال السحر وعلوم الغيب يمثلن نوعاً من البشر النادر .. وفى علوم الأرقام فإن رقم ٢ هو الرقم الأنثوى الذى تمثل الرقة والامتثال والخضوع والحلاوة وهو أيضـــا رقم الشيطان والربة الهندوسية (كالى) الأم المقدسة وهى أيضا ربة العنف والدمار .

ويميـــل النساء إلى التفكير بإحساسهم بدلا من الاعتماد على الملكة المنطقية وتقدير المرأة لموقف محدد أو الشخص بعينه أقرب أن يكون أكثر دقة من تقدير الرجل ولـكنه يفتقر إلى الرؤية بعيدة المدى :

وقد يحق للمرأة أن يطرح هـذا الموضوع ببساطة بالقول بأن النساء يعانون من قصر النظر وان الرجال يعانون من طول النظر فالمرأة لا تستطيع أن ترى ما هو بعيد عنها ولا يستطيع الرجل أن يرى ما هو شديد القرب منه وينبع الربط بين المرأة والشر من الموقف الذى تحاول المرأة فيه أن تغتصب دور الرجـل حينما يطبق النطاق القصير المدى من أجل الوصول إلى هدف بعيد .

ويرسم ويليام بليك هـذا الموقف فى نبوءته المسماة (أوربا) فى هذه القصيدة نرى (لوس) ربة الشعر من الشمس والزمن ونرى زوجته انيثارلون وهى ربة القمر والمـكان ، ولـكن رغم أنهما (الرجل وزوجته) المثاليان فى الأبدية فإنهما يفشلان دائمـا فى أن يفهم أحدهما طبيعة الآخر فى مجالات الزمن ويبدو أن بليك قد اعتقد أن العقل الأنثوى قد بدأ السيطرة على أوربا بعد صلب المسيح بوقت قصير واستمر فى هـذه السيطرة طوال ثمانية عشر قرنا حتى تمـكنت الثورتان الـكبيرتان فى أمريكا وفرنسا من إقامة سلطة

الإرادة الذكرية (الأكثر بعداً عن الشخصية) والأكثر صحة ولكن حدث نتيجة لهذه السيطرة الأنثوية أن ظهرت إلى الوجود كل الجوانب الرديئة الأقل بهجة للمسيحية مثل فكرة إن الجنس خطيئة والأفكار الفنية الصبيانية عن الفضيلة والثواب فى عالم أبدى فى (منفى مجازى لم يبرز فيه الوجود أبدا) لقد خنقت قدرة الإبداع ونزعة المغامرة لأن هاجس الزمن والاستقرار المادىء .. ذلك الهاجس الأنثوى جعلهما أشياء خطيرة لا بد من تجنبها .

وقد يكون ثمة شك فى أن هـذا الموقف شر فى ذاته ولكن يولد الشر بالتأكيد . إن ثورة رجال من نوع (دي صاد) وغيره من الذين سيطرت مكبوباتهم على مكانة الإبداع والخلق ونزعات المغامرة فيهم .

إن هذه الثورة كانت رد فعل الذكرى ضد هذه الفكرة الأنثوية الخانقة عن الطيبة ولكنها كانت ثورة تماثل الفكرة المرفوضة نفسها فى التفاهة والعقم رغم أنها كانت نقيضها ورفضها . لقد أصبحت المسيحية طبقا لما يقوله بليك دينا أنثوياً وسلبيا نوعا من التعبير عن سلوك (مدبرات المنازل) القائم على الممنوعات والتحذيرات التى تبدأ دائمـــا بعبارة : (إنك لا تفعل كذا وكذا ...) .

فإذا كان صحيحــا إذا كان بليك وتراث تعلوم السحر على صواب فى نظرتهما إلى النساء فإن النتيجة ستـكون نظرة داخليـة جديدة تمـاماً إلى تاريخ الساحرات .

ولـكن لماذا نفـكر فى الساحرات على أنهم نساء ؟ .

إن الكلمة الانجليزية لترجمة الساحرات تنطبق على النساء والرجال سواء ، ولكن التصور الذهنى عن رجل يتمتع بقدرات سحرية تستدعى على الفور صورة كاهن أو عراف عجوز من نوع ميرلين ذلك الشاعر فى مجموعة

حكايات وأساطير الملك آرثر أو ربما تستدعى صورة الساحر الأفعى الدائرية الذى تحدث عنه ليتون . إن كلمة ساحرة تستثير رؤى عن نساء يمتطين عصى المكانس الطويلة ويملأن المراجل بالأعشاب وجذور النبات أو يقدمن للشيطان المأوى والدفء البذىء .

فلماذا إذن هذا الربط بين تلك الأفكار والأشعار ؟

في هذه المرحلة من التاريخ الإنسانى يهدف التطور إلى الحصول على الملكة (س) والبشر حيوانات فى جانب منهم اننا مقيدون إلى اللحظة الراهنة كالأبقار ولكننا نمتلك أيضاً قدرة معينة عامة بارزة لا يتمتع بها أى حيوان آخر فلنفكر فى تلك الفقرة من رواية ديكنز (كريسماس كارول) حيث يفكر سكروج فى نفسه حينما كان تلميذاً فى المدرسة فيتخلف عن زملائه ويبقى داخل حجرة الدرس لكي يقرأ رواية (ألف ليلة وليلة) برواياتها من المدن البعيدة وقصور حياة السلاطين وعلى بابا والسندباد وفى نفس اللحظة يتبين إلى أي مدى أخطأت حياة الطريق الصحيح .

لقد كان هدف العقل الإنسانى أن يحصل على أجنحة لكي يحلق فيفلت من مجرد اللحظة الراهنة منطلقا بعيداً إلى أزمنة وأمكنة أخرى .

فإذا حرم الأذكياء من الناس من هذه العطلة من التفاهات اليومية لاتخذت قدراتهم الخلاقة شكل النفور المتزايد المتوهج ضد الحياة التى تسجنهم وضد معاييرها الأخلاقية . ولكن ليس الخيال الانسانى وحده هو ما يشتاق إلى التمرد ويسعى إلى الانطلاق فإن الإرادة الإنسانية تحتاج إلى الرغبات التى تستفزها .

ومن الممكن أن نرى النتيجة فى الحالة المشهورة التى تجسدها (إيزوبيل جوادى) ساحرة أدرولديارن التى تررت فجأة أن تعترف فى عام ١٦٦١ فخنقت

بذلك أسطورة حافظت على قوة تأثيرها طوال قرون ويبدو انها كانت فتاة جذابة . ذات شعر أحمر . تزوجت من مزارع اسكتلندى كانت مزرعته الثانية تقع بالقرب من بلدة أووهلديارن فى مقاطعة موراشاير .

وكانت الحياة كئيبة غليظة فى المزرعة ، وظلت إيزوبيل دون اطفال وكان زوجها فلاحا خشنا محروما من الخيال ، وتزعم إيزوبيل انها قابلت رجلا فى ملابس رمادية فى منطقة خالية على سفوح التلال القريبة ، وأنه قام بتعميدها كساحرة فى نفس ذلك اليوم وأخذت فى رصد اجتماع الساحرات الشاذة .

ولقد اعترفت هذه المرأة انها كانت تعاشر الآلهة والشياطين معاشرة جنسية شاذة .

ولا يتضح من رواية المؤرخين ما حــدث لها أو لساحرات أوولديارن الأخريات اللواتى جرتهن إيزوبيل معها . يقول أحد المصادر أنها أحرقت وذر رمادها فى الريح ، ويعلق آخر أن السجلات والوثائق ناقصة وأنه من المحتمل أن تكون قد أطلق سراحها بعد الاعتراف .

ومن المحتمل بالفعل أن تكون قد أعدمت .. ولكن القصة على كل حال تحتل مركزاً رئيسيا فى تاريخ السحر بسبب ما تحتويه من تفاصيل أى بسبب خصوبة خيال إيزوبيل جرودای .

ولكن هذا لا يعنى التأكيد بأن كل أعمال السحر منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر يمكن أن تقف عند حدود الخيال ومن المعروف أن نسبة كبيرة من الناس يتمتعون بقدرات غامضة وغريبة وأن هذا كان هو الحال دائماً .

وتتراوح هذه القدرات من القدرة على قراءة الشخصية إلى القدرة على

التسبب فى أحداث غير طبيعية وتنتشر مثل هذه القدرات بشكل أكبر بين أهل القرى والريف منها بين أهل المدن .. ونحن نعرف أيضاً أنه حينما تتمكن فكرة قوية من الربط بقوة بين الإرادة والخيال فإن الواقع فى القرن الماضى أن مهاتما مصريا من التبت هو الذى أملى كتابه (كتاب القانون).

بعد أن اتصل به عن طريق زوجته .. وليس علينا أن نصدق مثل هذا الزعم فنحن نعرف كراولى كان يؤمن إيمانا قويا بالسحر إلى درجة وقوعه انفعاليا تحت سيطرة هذا الإيمان الذى تمكنت قنوات قدراته الابداعية من شق طريقها من خلاله إلى السطح ..

وهناك الكثير من القصص المشابهة تماماً عن الإلهام التى تتراوح بين نبوءات نوستراداموس إلى نبوءات من جوانا فى نهاية القرن الثامن عشر وقد تنبأت جرافسونكوت بأنها على وشك أن تضع طفلا وهى عذراء وأن طفلها هو أمير السلام ، وقد عاشت طوال الشهور التسعة التالية كل مراحل الحمل والوضع ولكنها لم تلد الطفل .

وتكشف ترجمة سترينديبرج الذاتية بعنوان (جهنم) الطريقة التى يبدو بها مثل هذا الاعتقاد قادراً على التسبب فى أحداث تؤكد حقيقة تلك القدرات وطبقا لما يقوله ويليام بليك فإن الاقتناع الراسخ بأن شيئا معينا على نحو يجعلها يصبح على ذلك النحو .. فحالما تمت إقامة النموذج الخيالى فاستثار الهواجس المسيطرة الخلاقة فإن الباقى يأتى من تلقاء نفسه .

وبذلك تبدو الصورة التى تبرز من هذه الاعترافات صورة خيالية صادرة عن فتاة قادها الإحباط والكبت إلى نصف الجنون وإلى التخيل والاختراع :

ويوحى كل هذا بتلك النظرية التى تقول أن الشيطان حقيقى هو وأتباعه من قطعان الأبالسة والساحرات والسحرة يمتلكون قوة حقيقية وأنهم بالفعل فى قبضة الشيطان وأتباعه .

وتقول النظرية الثانية التى تمكننا أن نقرأها فى كتاب دائرة معارف السحر التى وضعها روسيل روبينز أن الأمر كله لايعدو أن يكون مجرد محض للخيال وإيحاء ذاتى بالوهم .

أما الرأى الذى افترض هنا فهو أن للسحرة قدراتهم ووجودا حقيقيا لامجال للتقليل من شأنهم أما الشيطان وقدراته فليس لها شىء من ذلك ولا يمكن أن يكون مونتاجيو سامرز ذلك القسيس الرومانتيكي الشكاك على خطأ تماما حينما يقول أن غالبية السحرة يستحقون التعذيب والحرق فلا أحد يقول بذلك ولكن لاشك أن الكثيرين منهم قد اعتقدوا أنهم خدم الشيطان .

وهناك جانب آخر يجب أن اضعه فى اعتبارنا . . ففى الجماعات الصغيرة والمعزولة تستطيع الخرافات نفسها أن تخلق جواً سحرياً يمكن أن يزيد من تأثير تلك الأعمال من ذلك النوع ومن الممكن أن نرى هذا الجانب فى واحدة من قضايا انجلترا الشهيرة وهى قضية القتل بالسحر .

راح ضحية تلك القضية تشارلز والتون وهو عامل فلاحة يبلغ من العمر أربعة وسبعون عاما وجد مقتولا تحت شجرة صفصاف وقد اخترقت حلقه مذراة وانغرست أسنانها فى الأرض بعد أن نفذت من ظاهر رقبته ثم مزق جلده فوق ضلوعه على شكل صليب وترك الخطاف الحديدى الذى استخدم فى رسم الصليب على جلده مغروساً فى ضلوعه معلقاً بها .

وكان المحقق فابيان من إدارة اسكوتلانديارد لديه كل الأسباب التى دفعته إلى تقرير أن تلك القضيـة تحتاج منه أكثر من يوم بسبب صغر كثافة القرية السكانية . . وأنه لو كان للقتيل أعداء فلا بد أن القرية سوف تعرفهم وسوف يشون بهم وأخذ الفريق الذى عمل فى القضية فى استجواب أربعة آلاف شخص من أهل القرية وأرسلوا تسعة وعشرون تحريزاً للملابس والدم والشعر لمعامل

الشرطة لتحليلها دون الوصول إلى نتيجة كان الناس يرفضون المعاونة بتوتر شديد وحرص أشد وخوف ورهبة .

ويبدو أن الاستنتاج المنطق من هذه الصورة بشكل واضح فلابد أن الكثيرين من فلاحى تلك القرية كانوا يعرفون القاتل ولكنهم لسبب ما لا يبيحون بإسمه خاصة وأن تلك القرية تقع فى منطقة ريفية اشتهرت بأعمال السحر ومن أقام فيها من السحرة . . فعلى بعد ميلين من القرية وفوق هضبة صخرية مرتفعة تنتصب (صخور رولى رايت) وهى نصب قديم من المحتمل أن يكون فى مثل قدم آثار متون هينج العتيقة ولا يشك فى أنهـا كانت فى أزمنة سابقة تستخدم فى إقامة احتفالات السحرة فى أيام السبت الشهيرة والمنطقة ريفية ذات تلال تكسوها الغابات وتشقها الطرق المتوجـة عليها أكواخ قديمة شيدت عند مفارق تلك الطرق وأسماء شريرة المعانى وكان القتيل ذا سمعة سيئة فى ممارسة أعمال السحر .

ويروى المحقق فابيان الذى وضع التحقيق فى هـذا القضية يروى محادثة دارت بين الناس فى حانة القرية قرر فيها أحـد الأهالى أنه يعرف ساحرين مازالا يعيشان فى المنطقة . . . وقال آخر أنه تزوج من ساحرة ثم هجرته بعـد الزواج . . وقد شاعت شهرة الرجل نفسه بسبب حاسته السادسة فقد حدث له فى صباه أن رأى ثلاث مرات فى ثلاث ليال كلبا أسود يجرى فوق قمة (تل ميون) وفى الليلة الرابعة أصبح الكلب امرأة بلا رأس . . وفي نفس الليلة ماتت شقيقته . . . وكان يربى ضفادع كبيرة ، وكان الكثير منه فى حديقته عندما مات .

وقد رأى فابيان بنفسه كلبا أسود يجرى هابطا (تل ميدن) . . يتبعه مطاردا عن قرب عامل الزراعة . . ولكن حينما سأل فابيان عن الكلب الذى

كان قد اختنق . . . شحب وجه الرجل ، وقال متسائلا فى استنكار ودهشة ،

أى كلب ؟ .

وفى مساء ذلك اليوم صدمت سيارة الشرطة كلباً أسود وقتلته ، وفى اليوم الثالث ماتت بقرة صغيرة لسقوطها فى حفرة عميقة وكانت هى البقرة الثانية التى تموت بنفس الطريقة منذ وصول فابيان .

وما يزال لغز مقتل شالز والتون معقداً ، ولكن من الممكن القيام بنوع من التخمين حول ماحدث بالفعل إذ اعتقد الناس أن والتون ساحر وضاعفت عاداته الغريبة التى يمارسها وحده من قوة هـــذا الانطباع كان يربى ذكران الضفادع وهذه يعفردها هواية غريبة . وقد روى أحد السكان لدونالد ماك أنه كان يربط هذه الضفادع أحيانا بمحراث صغير كالدمية ويتركها لكي تسرح به فى الحقول .

وقد زعمت إيزابيل جوراس أنها ستخدمت نفس الطريقة لكي تؤدى إلى تلف المحاصيل وإفقارها . . ومن المؤكد ومن المعلومات الموجودة أن الفلاحين حصدوا محصولا فقيراً وهزيلا للغاية فى العام السابق . وقد اشتكى الكثيرون لفابيان للتحقيق فى هذه القضية خاصة وأن هناك اعتقاد فى معاملة السحرة فى تلك القرية يقول أنه إذا أمكن إسالة الدم من جسم الساحر ، أو إذا أمكن جعله ينزف فإن قوى الساحر ، أو الساحرة سوف يتلاشى ويتم بجهد وربما يكون موضع شك لو أن والتون كان ساحرا ولكن من المؤكد أن السكان المحليين قد اعتقدوا هـذا الاعتقاد أنه ساحر . . . ولكي تفهم هذه الجريمة ، وكيف يفترض أن أناسا طيبين مسالمين استطاعوا أن يندفعوا إليها فعلى المرء أن يبذل مجهودا فى التفكير فى الماضى القريب إلى شهر يناير وفبراير من عام ١٩٤٥ .

ظواهر غريبة

فى القرى البعيدة عن الطرق الرئيسية والتى تعانى من آثار وبلات خمس سنوات من الحروب قتل والتون فى الرابع عشر من شهر فبراير الذى يوافق حسب عيد القديس (فالنتين) كما يوافق أربعاء الرجاء أو الأربعاء الحزين وكانت هذه القرابين تقدم بهدف الحصول على محصولات وفيرة طيبة فمن المحتمل أن يكون والتون قد قتل وحدد لهذا الموعد من قبل وقوعه بشهور وربما تم ذلك فى الخريف السابق حيث حدد التاريخ ويبدو أنه من المؤكد إلى حد كبير أن الأهالى كانوا يعتقدون أن قرينه كان كلبا أسود لأنه حدث أن عثر على كلب أسود مشنوقا فوق تل ميدان بعد جريمة القتل بعدة أيام .

فإذا كان هناك من شعور بالندم لقتل عامل زراعى عجوز غير مؤذ فمن المحتمل أن هذا الندم قد اختفى مع تقدم الشهور من ذلك العام وكان المحصول رديئا بالفعل رغم الطقس الجيد ويورد ماك كورميل عبارة عن أحد الريفيين بقوله : (كان المفروض أن تكون المحاصيل هى أفضل ما عرفناه مع بداية الربيع ليس هناك سبب للمحاصيل الرديئة حينما تأتى المحاصيل مناقضة للطبيعة) .

وتغير الموقف إعتباراً من القرن الحادى عشر مع ظهور فرقة أو جماعة قوية تدعى الكاثارس وترجمتها المتطهرون من سلالة تعتقد أن رب العهد القديم كان شيطانا والشىء المدهش أن النزعة الكاثارتية قد انتشرت على نطاق واسع فبعد أن انتشروا فيما يبدو فى البلدان انتشروا فى أنحاء أوربا كلها .

ولا شك أن ماشاع فى القرون الوسطى من بؤس وفقر ومرض كان عاملا مساعدا على تدعيم هذا النجاح فى البلاد الثرية ترضى بدين سهل المأخذ ولكن حيث يسود الفقر يتطلب الأمر شيئاً أكثر جوداً وعتمة وهذا هو السبب

الذى جعل النزعة تلقى ماعرفه من نجاح مع اسكتلندا والذى جعل النزعة للعبودية تزدهر فى قرى كورشروك للرحلة وهنـاك شىء كامن فى التعاليم الماسونية يجعلها تتحارب مع النزعة الرومانتيكية العميقة فى الطبيعة البشرية هذا الشىء هو الإحساس بأن عالمنا هذا هو الجحيم وأن سعادة الإنسان تـكمن فى عالم آخر .

وقد كان شعار السحرة مرعبا وواسع الانتشار إلى درجة يعجز معها الخيال الإنسانى عن الإحاطة بها . إننا نجد من الصعب أن نتصور أن هتلر قد أباد ستة ملايين يهودى فى مدة تقل عن عشر سنوات كذلك فمن المستحيل تماما أن نتخيل حملة من التعذيب والقتل تدوم طوال أربعة قرون . . من الحق أن عمليات إعدام السحرة كانت تدور فى مجال أضيق من مجالات الجرائم النازية . ولـكن لابد أن نتذكر أيضا أن كل ساحر كان يتم تعذيبه بمفرده .

ويقول روصيل هوب بشعور من المهانة الأخلاقية .

(إن سجل السحر مرعب ملىء بالقسوة الوحشية لقد تمكن الانحطاط من خنق كل رقة أو طيبة وتقنعت أقـدر الانفعالات بقناع الدين وأجبر عقل الإنسان الذكى على أن يتسامح مع أعمال وحشية لابد أن مخلوقات الياهو التى تخيلها سويفت وهى مخلوقات تتميز بالقسوة والغلظة والخسة رغم أشكالهم الإنسانية فأصبحوا مضرب المثل فى الأدب الفرنسى للوضاعة والحقارة .

ولم تشهد الإنسانية أبداً مثل هذا الخطأ يستمر طوال هذه المدة ، ولـكننا نعرف أن نقرأ إثنتى عشرة صحيفة أوجدها من كتابة (دائرة معارف السحر) نشعر بأن تلك الـكلمات تخطىء بميلها نحو الاعتدال .

ولا يمكن أن يكون هنـــاك دوافع لبشاعات ترتـكب على مثل هذا النطاق فقد كان الدافع سياسيا فى جانب من جوانبه فقد خضعت البلاد أولا

لسيطرة بروتستانتية ثم تلتها السيطرة الكاثوليكية وحينما كانت الكنيسة تريد معاقبة جماعة من السكان البروتستانت فإنها كانت ترسل قضاة التفتيش من الرهبان الدومينكان .

وأدت عدوى السيطرة الكاثوليكية إلى مذابح السحرة فى مناطق الراين لانه وإيرلندا والمجر فقد كانت هذه الطريقة التى اتبعتها الكنيسة فى الانتقام من البروتستانت بل إن نفس الطريقة كانت قابلة لأن يستخدمها أميرة وبارون وسيلة من الرعايا المتمردين طريقة مأمونة أن تؤدى إلى مزيد من التمرد .

وانتشر الحديث عن سبت الساحرات والأبالسة والتعذيب ورائحة اللحم البشرية المحترق أصبح السحر هاجسا مسيطرا مروعا قاتم اللون ولابد مايساويه ويعادله فى أيامنا هذه .. هى الجريمة الجنسية التى تتبعها على الدوام .

أولا : جرائم تقليدية للجريمة الأصلية وثانيها اعترافات يدلى بها بلهاء أو معتوهون فقد ارتكبت بعـد جريمة اليزابيث شورت فى هوليود ست جرائم قتـل أخرى مشابهة فى منطقة لوس انجلوس وقدمت إلى الشرطة اعترافات تسعة وعشرين شخصا يقرون ارتكابهم للجريمة الأولى .

ذلك أن الطريقة المرعبة التى ارتكبت بها الجريمة الأولى لقد علقت الضحية من قدميها وعذبت ثم شطر جسـدها بالطول إلى شطرين جعلتها موضوعا رئيسيا فى الصفحات الأولى ولابد أن الرجال الذين يعيشون فى عزلة كاملة ويتأملون الصحف والساعات الطويلة فى مساكنهم المزدحمة قد قرروا فى النهاية أن القيام بمثل هذا العمل قد يستحق المخاطرة وبنفس هـذا الشكل فلا بد أن نسوة يعشن فى وحـدة ويمتلكهن السحر مثل إوابيل جورادى ويعشن حيـاة ضيقة خالية من الراحة قد شعرن أن الكتيبات الرهيبة عن الاتصال الجنسى بالأبالسة هى أشياء مرعبة مثيرة للخيال : ولما كان الاعتقاد

بأن الهواء مزدحم للذين لايدركهم البصر شائعاً فإن مثل هؤلاء النساء لم يمر عليهن وقت طويل قبل أن يقتنعن بأن الشيطان قد عرف رغباتهن الخفية ولاشك أن حلما جنسيا يمكن أن يؤكد هذا الاقتناع .

واكتسح جنون اصطياد السحرة وجنون السحر أوربا فى موجات متتالية قامت بعد كل موجة منها فترة من الهدوء . وكانت هناك فترات أصبحت فيها أنواع العقاب دموية إلى درجة قامت ضدها فيها ثورات تلقائية لإيقافها . ففى بداية القرن السادس عشر كاد هذا الجنون المزدوج يبلغ إحدى ذراه الخطيرة وبوجه خاص فى ألمانيا حيث يبدو أن أكثر مظاهره ساديه وقسوة كانت تحدث باستمرار .

إن القراءة الطويلة لعدد كبير من الروايات حول محاكات السحرة مثلما كتب من قبل لابد أن تؤدى إلى الإحساس بشىء من الجنون وتؤدى الروايات عن التعذيب بالحد إلى أن يتساءل إن كان البشر يمكن أن يفتدوا أنفسهم فى مقابل كل قديس أنتجه الجنس البشرى فيما هو واضح فإنه قادر على بلوغ أحط درجات القسوة والعنف .

أما السخافات الخالية تماما من أى عقل والتى أرغم المتهمون على الاعتراف بارتكابها فتضيف نغمة نشازاً من أى عقل ومن الكوميديا المضحكة إلى المأساة الحزينة ومع هذا فمن الغريب تماما أن يكون الإحساس النهائى هو الإحساس بالشفقة شفقة بالمتهمين ومن وجهوا إليهم الاتهام معاً . لم يخلق العقل البشرى أبداً لكي يعيش فى حصار داخل مساحة ضيقة ولكن حينما وقع فى الفخ الضيق فإنه يصبح تافها وفاسداً وشريراً .

ولم تكن المأساة الحقيقية فى سالوميك عام ١٦٤٥ هى أنه هوبكنيل تمكن من شنق نحو مائة شخص وإنما هي أن البشر كانوا قد انحطوا معنوياً وحيوياً

لدرجة أنهم أصبحوا على استعداد للقبول بشنق هؤلاء الناس فقد كانت الجماعات الريفية قد أصبحت كالبرك الآسنة العفنة التي لابد أن تنمو فيها طفيليات التعصب والجهل والقسوة .

وطوال خمسة قرون ، أو أكثر قليلا كانت الروح الإنسانية محرومة من ذلك الفيتامين الأساسي . . . وهو نوع من الفيتامين كانت الكنيسة قد ظلت قادرة على توفيره رغم إنها لم توفره إلا بكميات ضئيلة .

إن الإنسان لا يمتلك فحسب مجرد قدرته على الشعور بالآخرين ، وعلى الانصراف والتحول بعيداً عما تتميز به ذاته المنفردة من ضيق محصور إلى العالم الأعظم رحابة الذي يحيط به . . وإنما هو يمتلك شهية عارمة ، ورغبة ليس لها حدود في أن يفعل ذلك ، وإني لأرى جنون السحر كنتيجة مباشرة لهذا النقص الشديد في ذلك الفيتامين ، وحينما شرع التيار الصاخب العريض للثقافة الرومانتيكية في إشباع هذه الشهية أصبح السحر فجأة شيئاً ينتمي إلى الماضي البعيد .

وقد قام الكاتب الياباني أكوتوا جارا في قصة التنين بتوضيح الهدف الذي أسعى إليه فهناك كاهن يريد أن ينتقم من ديرمين . . فالرهبان يسخرون دائماً من أنفه الأحمر . . ولذلك فإنه يقيم على شاطىء بركة صغيرة من الدير ، وقد كتب على لوحة صغيرة (في الثالث من مارس سيخرج تنين من هذه البركة) . . وكان للوحة ، وما كتب عليها تأثير كبير فقد انتشر النبأ ، وفي الثالث من مارس كانت هناك حشود ضخمة تنتظر خروج التنين من البركة ويشعر الرهبان بحرج شديد فهم يعرفون حينما يمر الوقت دون أن يبدو التنين لأنظار الناس فإنهم هم أول من سيوجه إليهم اللوم . . وتتوالى ساعات النهار وتمتد حشود المنتظرين أميالا حول البحيرة ، ويبدأ القسيس في الندم على فكاهته العابثة وبالتدريج يتزايد تأثره بقوة جو الانتظار القوي الشائع حوله

فيجد نفسه يحدق بتلهف حقيقي إلى سطح البركة الساكن . . وفجأة تظهر السحب الكثيفة في السماء ، وتنفجر عاصفة هائلة ، وفي وسط الرعد والبرق يبرز من قلب البركة شكل التنين يحمله دخان كثيف ويصعد كالومض إلى السماء ، ويراه كل الحاضرين ، وحينما يعترف الكاهن فيما بعد إنه هو الذى وضع اللوحة ، وكتب عليها ماكتب لا يصدقه أحد .

إن أبرز ماتقدمه هذه القصة أهمية حصر مايتعلق بالتوقع القوى للتلهف . والانتظار اليقينى الكثيف من جانب الحشود . . . هذا التوقع الذى يؤثر حتى فى الكاهن الذي كان قد رسم بنفسه اللوحة التى أعلنت موعد ظهور التنين ، ومع هـذا فإن الضغط التيليباثى (المنتقل من بعد) من جانب آلاف المؤمنين برغم غرائزه فى النهاية على أن تستجيب مع مشاعر هذه الآلاف ليس هناك انقسام الذات على نفسها أن الضغط التليبائى ليشبه خبطات الأقدام المنتظمة التى شققت جدران أريحا وهدمتها . . فى البداية تظهر السحب فى السماء الصحو ثم تهب العاصفة الرمز المرئى لاطلاق التوتر الحبيس إن شيئا ما على وشك أن يحدث . . إن وصف التنين بأنه هلوسة جماعية لابد أن يؤدى إلى إخطار الهدف كله إنما هو ظهور رؤية جماعية تجسيد تلقائى لقوى اللاوعى مثله مثل كل السحر بدون استثناء .

إن القدرة على التواصل الجماعى لإحداث الأشياء عن بعد هى قدرة معروفة لدى غالبية الشعوب البدائية ... وقد أخبرنى « فيجاس مارسون » فى مناسبات عديدة كيف رأى ساحراً من ليبيريا وهو يستنزل المطر من سماء صافية ليس فيها سحابة واحدة .

وقد روى لى جارى مارتين وبلانى الذى وصفت قدراته العجيبة فى مجال العرافة فى ملحق خاص من كتابى (راسبوتين) روى لى حادثة لاتقل غرابة . فقد أكد ساحر فى نيجيريا لجماعة من المستكشفين البيض أن السيل الجارف

الذى كان يتدفق من السماء منذ عدة أيام سوف يتوقف لمدة ساعتين عندما تبدأ حفلة معينة كانت ستقام لتكريم الجماعة وبعد توقف المطر بالفعل حالما بدأت الحفلة ثم عاد من جديد بنفس عنفه الأول بعد انتهائها .

وفى نفس الملحق رويت بالتفصيل القصة العجيبة التى وقعت فى المنشار الكهربائى التابع لنفس الشركة التى أقامت الحفل المذكور سابقا فقد حدث أن طارت دجاجة فسقطت داخل المنشار ، وأعلن العمال الزنوج أن إله الحديد يريد استرضاءه ببعض القرابين ، ورفض مستر ديلانى إقامة الاحتفال الشعائرى المطلوب لأنه كان سيتضمن ذبح كلب صغير أسود اللون ، وبعد يومين سقطت دجاجة أخرى داخل المنشار ، وبعد وقت قصير كان من الضروري أن توقف الآلة وتفك أجزاؤها الخارجية لإجراء بعض الإصلاحات ورغم أن الكهرباء كانت مفصولة من الموتور فقد دارت فجأة وجرحت يد المدير جرحاً عميقاً أمضى المهندسون عدة ساعات فى فحص الآلة والموتور ثم أعلنوا أنه كان من المستحيل أن تدير الآلة نفسها بهذا الشكل وأخيراً انحرف نصل المنشار الفولاذى فقتله على الفور . وفى النهاية وافق مستر ديلانى على إقامة الاحتفال المطلوب والتضحية بالكلب فكفت هذه الحوادث عن الوقوع .

فإذا صرفنا النظر عن فكرة أن وقوع مثل ذلك هو من قبيل المصادفة لاتضح أن هناك احتمالين للتفسير فإما أن الطبيب الساحر نفسه كان قادراً على التسبب فى هذه الحوادث بواسطة نوع من الحركة النفسية الحيوية ، أو مايعرف باسم (العين الشريرة) ، وأما الخوف الذى اجتاح جماعة العمال كان هو السبب فى تلك الحوادث .

وقد استبعد المستر ديلانى أن يكون الطبيب الساحر هو المسئول وقال إنه كان رجلا عجوزاً طيباً رقيقا . أما الفرضية الثانية فمن المؤكد أنها تتناسب مع ما كنا نقوله بدرجة كبيرة فقد فسر أكثر الناس شيئا بنفس الفزع ، ولكن

فى مجالات أضيق إحساس عصبي متوتر بأن شيئاً ما يسير بشكل خاطىء . .
ويتلو هذا الإحساس كارثة صغيرة .

ومن المحتمل أن تكون أفضل طريقة للتوصل إلى فهم ما ظاهرة السحرة الأوروبيين هى دراسة روايات شهود العيان عن السحر الأفريقى المعاصر لنا . .
ويقدم كتاب (شاهد على السحر) من تأليف رايت بعض الأمثلة العجيبة . .
إنه يصف (رقصة الرعد) فى أبومى غربى أفريقيا كمثال على الارتباط الغريب الذى يبدو قائماً بين الأعمال البدائية التى يقوم بها هؤلاء الناس ، وبين قوى الطبيعة نفسها . . فقد رفض أحـــد هؤلاء المواطنين الطوال القامة تصاحبه أناشيد معقدة . وهو يقذف فى الهواء بعصا الرقص الطويلة .

(كان اليوم صحوا صافيا حينما بدأت الرقصة ، ولـكنى رفعت بصرى فجأة إلى أعلى فرأيت السماء يغشاها الظلام بالسحب الـكثيفة ومع ذلك فقد قال الأمير لرايت : (إنهـا لن تمطر . . لأننا لن نسمح بنزول المطر دون رقصة المطر) . . . ولم تمطر السماء بالفعل .

ومرة أخرى يبدو لنا جديراً بالملاحظة أن نقول أن الـكاتب رايت شعر بنفسه يشارك فى الهوس الاجتماعي الذى أدت إليه الرقصة وحينما انتهت الرقصة صفت السماء مرة أخرى .

ويصف رايت رقصة الفهد التى ربما كان تفسيرها أقل صعوبة ، فقد راحت فتاة جميلة طويلة القامة من المواطنين بالرقص على أصوات الثيران وأكد مرافق رايت الأفريقى استطاع أن يرى بعض الفهود أما رايت فلم يستطع أن يرى حولها سوى بعض الظلام ، ولـكن بدا أن المواطنين كانوا يتابعون بعيونهم الفهود غير المرئية وحينئذ وفى قمة الاحتفال برزت ثلاثة فهود كبيرة تخطر قادمة من الأدغال .. عبرت الساحة الواسعة ثم دخلت الأدغال مرة أخرى من الناحية المقابلة وكان بين فكي أحدهم طائر ميت . ويقول رايت :

(لو أنى فرقت فى الثبات من خلال عملية تنويم مغناطيسى جماعية إذن فإنها عملية تمت بطريقة جيدة لأنى لم أشعر بخلاف هـذا إلا بأنى عاقل تماماً وفى حالة طبيعية) .

ولـكن ليست هناك حاجة إلى التفكير فيما حـدث على أساس التنويم المغناطيسى أن الحيوانات تلقائية بطبيعتها وليس هناك ماهو أكثر احتمالا من أن تأتى أسرة من الفهود الحقيقية لتلقى نظرة لتكتشف إن كانت الفهود المتخيلة قد جاءت لـكي تغزو منطقتها أم أن الأهالى يمارسون لعبتهم مرة أخرى وقد أوضح رئيس القبيلة لرايت أنهم قد استحضروا الرعد لـكي يسروا عن أنفسهم .

إن قراءة رواية (ثلاثة وجوه لحواء) من تأليف وكايكي سيتمكنون من إدراك هذه النقطة دون صعوبة ، ويصف الـكتاب كيف حدث إن امرأة متزوجة حسنة السلوك هادئة تماما قـد وقعت تماما عن سيطرة ذات أخرى صاخبة جنسية الميول فارغة العقل تحب الاستمتاع بحياتها .

إن هـــذا الوضع ليبدو أقل إثارة للحيرة مما هو بالفعل . . إننا جميعا نعرف الحالات التي يصبح فيها بعض الناس مختلفين اختلافا كليا حينما يسكرون ولـكننا إذ نقرأ الـكتاب يزداد أمامنا وضوح أن (وجهى حواء) كانا فى الحقيقة شخصين مختلفين اختلافا كاملا إنها كانت ستعامل فى القرن الخامس عشر على يد القسيسين المتخصصين فى طرد الأرواح . . وربما على يد جلاد التعذيب التابع لمحكمة التفتيش ومنذ تمكنت حواء فى النهاية أن تتوصل إلى شخصية متسقة ومتكاملة وحدث وجهيها فإننا نستطيع أن نتقبل أن حواء البيضاء وحواء السوداء لم تكونا سوى جانبين لشخصيتها الواحدة ولـكن العقل لايستطيع أن يدرك هذا إننا لانستطيع سوى أن نتقبل الظاهرة بشكل ذهنى ويدرك المرء فجأة بوضوح حدود الوعى ولـكنه بالتالى يكون أقل استعداداً لتقدم بتفسيرات موفقة بشكل ظاهري لما حدث للسيدة اليذور زوجون .

والقصة النموذجية من قصص مصاصى الدماء هى تلك التى حكاها أوجستين كالميت فى كتابه (تاريخ الأشباح) وهى كالتالى :

(فى عشرينات القرن الثامن عشر كانت الإمبراطورية النمساوية تستمتع بفترات سلام بعد سنوات من الحروب المتقطعة ضد الأتراك وكانت عملية بناء الجيوش تجرى على مهل ، وبتدبير فى الجنوب الغربى ووجه الأمر إلى جندى شاب بأن يسكن فى قرية هايدام على الحدود النمساوية المجرية .

وذات مساء لحظة تناول العشاء وبينما كان الجندى يحتسى النبيذ مع مضيفه وابنه الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما فتح الباب ودخـــل رجل عجوز فجلس على المائدة وملأ الذعر قلب الجميع وانحنى العجوز إلى الأمام ولمس الفلاح الأب على كتفه ثم انصرف خارجا .

وفى الصباح عثر على الفلاح الأب ميتاً فى فراشه وقال الإبن الجندى أن الرجل العجوز كان هو جده الذى مات منذ عشر سنوات .

وكان من الطبيعى أن هابنر راح يروى القصة لزملائه الجنود فى فصيلته وبالتالى وصلت القصة إلى الكولونيل الذى قرر أن تحتوى تحقيقا فيها لأنها كانت قد انتشرت بذعر بين الجنود وأمر الكولونيل دى كار الذى يرأس قائد إحدى الفصائل إجراء التحقيق وأن يحصل على بعض الشهادات الموثقة فى القرية من كل أعضاء عائلة الفلاح الميت وكان الدليل مقنعا بالدرجة أن كاد يرأس أمر بأن تحفر مقبرة الرجل العجوز واكتشفت أن الجسد كان فى حالة جيدة تماما كما لو كان قد دفن لتوه وأمر كارد يرأس أن تفصل رأسه عن جسده .

وأبلغت البعثة بحالات أخرى مشابهة عن رجل عاد ثلاث مرات منذ موته قبل ثلاثين عاما . . وحاول أن يمتص الدم من بعض أفراد عائلته وتم فتح مقابر كل هؤلاء ومصاصى الدماء ووجدوا جميعا فى نفس الحالة الجيدة التى وجـدوا عليها الرجل الأول وأكد القرويون أن أحـدهم كان خطيرا للغاية حتى أنهم لن يقنعوا إلا إذا أوجد الكونت الجثة ،

وسمع الإمبراطور تشارلز السادس عن تلك الأحداث فأرسل بعثة ثانية للتحقيق فأكدت قصة البعثة الثانية وفى عام ١٥٣٠ أملى كارديراس القصة لأحد الموظفين فى جامعة فريبورج ولابد أن كاليت قد رأى هذه الشهادة خلال السنوات الخمس التالية طالما أنه يقول أن تلك الأحداث قد وقعت منذ خمسة عشر سنة) ويزعم مرثا جوسلارز أن مخطوطة الشهادة تلك مازالت موجودة حتى الآن .

وتبدو القصة بما فيها من ظروف وملابسات محبوكة بما فيها الكفاية رغم أن هذا ليس ضمانا بصدقها . إننى لم أتمكن من العثور على اسم تلك القرية لا على الخريطة ولا فى كتب دائرة معارف ولكن هذا لا يثبت شيئاً طالما أن القرى تتغير أسماؤها إذا ما تغيرت الحدود سواء كانت القصة صادقة أم لا وسامرز يشير إليها باعتبارها واحدة من أفضل حالات مص الدماء توثيقا بأنها تمثل كل الملامح النموذجية التقليدية فى قصته عن هذا الموضوع . الميت الذى تجول ليلا والذى لا يمكن القضاء عليه إلا بإخراجه أو فصل جسده عن الرقبة وأحيانا يدق وتد أو سيخ حديدى فى قلبه والهجمات التى يشنها على الأحياء الذين يقال أنهم يتحولون إلى مصاصين للدماء بعد موتهم .

وتشير أورنيلا فولتا إلى قصة من هذا النوع أن جثة القديسة تيريزا من أفيلا قد ظلت دون أن تتحلل فى قبرها لمدة طويلة من الزمن تقدر بحوالى ١٧٨ سنة .

ويبدو أن وباء مص الدماء انتشر فى الفترة من ١٧٣٠ إلى ١٧٣٥ وقد بدأ فى تلك القرية المسماه ماديوجنا بالقرب من بلجراد على يد جندى شاب لخطيبته أن مصاصا للدماء قد هاجمه ليلا فى اليونان وهى دولة تشتهر بأساطير مصاصى الدماء ولكنه تمكن من معرفة مقبرته واستطاع أن يقضى عليه الأمر الذى كان ينبغى أن يؤدى إلى إنهاء اللعنة المسيطرة على الميت وعلى من هاجمه معا . . ومع ذلك فقد مات الجندى ثم شوهد يتجول حول القرية بعد هبوط الظلام

وبعد عشرة أسابيع عقب أن زعم عدد كبير من الناس أنهم رأوه أو حلموا به ثم شعروا بضعف مفاجىء غريب يتملكهم فى الصباح بعد الاستيقاظ من النوم ، قام اثنان من جراحى الجيش باستخراج جثة ذلك الجندى وكانت آثار الدم ماتزال عالقة بفمها وتم تغطية الجثه بالثوم الذى يفترض أنه يقوم بمهمة الحماية من مصاصى الدماء وغرس وتد طويل فى قلبها ثم أعيد دفنها .

ولابد من الاعتراف بأن سامرز لايقدم أي دليل مقنع على صحة مايقول الأمر الذى لايمكن أن يفتح جمعية البحوث النفسية عبر كتابه المكون من جزءين كبيرين ولاشك أن هـذا يرجع إلى فضوله بشأن تلك الأشياء كان فضولا يقظا ولكنه ظل سطحيا دون عمق لم يكن قادراً على النفاذ إلى ما يكمن وراءه من معرفة وعلم .

وقد نشرت صحيفة الديلى إكسبريس فى شهر يونيو ١٩٧٠ مقالا تدل على ان تلك الأسطورة اسطورة مصاص الدماء لاتزال قائمة بين الناس ولا تزال حتى ذلك الزمن المتقـدم والمتحضر الذى لايمكن ان يخضع فيه العقل البشري لمثل تلك الخرافات فقد ادانت محكمة فى لندن شابا فى الرابعة والعشرين من عمره يدعى آلان فارو لدخوله مقبرة مايجيت لأسباب غير مشروعة وقد القى القبض عليه داخل المقبرة وهو يحمل وتدا خشبيا وصليبا كبيرا من الحديد وقال انه دخل المقبرة لأنه يعتقـد بوجود كائن غير طبيعى يختنق فى تلك المقابر ولابد من القضاء عليه بأن يغرس فى قلبه الوتد الخشبي وقد أدلى لمستر مانشستر رئيس الجمعية البريطانية لعلوم الغيب الصحيفة بحديث أكد فيه أنه يعتقد بوجود مصاص الدماء فى مقبرة هاريجيا وقد أكد كثير من شهود العيان من سكان المنطقة ومن العابرين تقول أنهم شاهدوا شيء هائل الحجم يتجول بالقرب من البوابة الشمالية للمقبرة .

كان الاعتقاد الشائع حتى عام ١٩٠٣ أن السحر قد انتهى فى إنجلترا بحل جماعة الفجر الذهبي فى منتصف الثلاثينات .

ويقول فرانسيس كينج أن السنوات الأخيرة شهدت حركة إحياء جمعية الفجر الذهبي وطقوسها ولكن من الصعب الآن العثور على كتاب ريجاردى ذى المجلدات الأربعة فإذا أمكن الحصول عليه فإن ثمنه يزيد على ثمانين جنيها استرلينيا ولكن كتابا ثانيا عن التعاليم الداخلية السرية لجماعة الفجر الذهبي قد صدر أخيراً فى إنجلترا عام ١٩١٩ وأصدره الناشر سيبورمان وهو كتاب الفجر الذهبي وتعاليمه السحرية .

ويقول كينج أن جمعيات السحرة الجديدة تضم عادة خريجى الجامعة الجدد الذين يتخرجون من الشبان ويزعم إثنان من قادة هذه الجمعيات أنهما تجسيدان جديدان لأليستر كراوى وتطلع على نفس اسم الصخرة المكعبة ويبدو أنها أقرب إلى السحر أولى منها إلى جماعة الفجر الذهبي وقد أشار كينج إلى فقرات مطولة اقتبسها من مجلة مونوليت الذى يضيئه القمر وهى المجلة التى تصدرها الجمعية وكان على صواب فيما استخلصه من هذه الفقرات عن النجاح الاستعراضى الذى تحققه احتفالات الجمعية العامة وفى رأى كينج أن أعضاء الصخرة المكعبة ينبغى اعتبارهم طلبة عاديين يتحملون المشاق المختلفة لدراسة علوم الغيب .

وخلاصة القول أنه ينبغى علينا أن ننظر إلى تلك الجماعات الأخيرة نظرة جدية تماما . . فلأسباب لانفهمها حتى الآن تؤدى بعض هذه الطقوس بالعمل إلى نتائج معينة على الأقل حينما يقوم بهما الشخص الصحيح ولا بد أن يعنى هذا هو أن هناك قوانين معينة تتحكم فى هذه الظاهرة . وفى القرون السالفة لم يكن ثمة فضول يتطلع إلى معرفة تلك القوانين لأن الناس كانوا يفترضون أن الشيطان وعصابته هم من يقفون وراء ما يحدث من ظواهر ولكن حدث أن بزغ عصر العلم فى وقت معين وحينئذ اختفى السحر .

والآن . . وحينما تآكل الإيمان بالعلم وتلاشى ويرى السحر حركة إحيائه وبعثه . . إن التوقيت على الأقل توقيت ممتاز لظهوره وبعثه من جديد .

نظرات خاطفة وأخيرة

لقد اعترفت جميع النزعات الغيبية بوجود تلك القوة الخفية الحيوية التى لم يتعرف عليها ولم يصـــل إليها مطلقا مانسميه نحن بالعلم التقليدى الجامد. وأطلق عليها العـالم المعروف ميسمير إسم المغناطيسية الحيوانية أما السيدة ماري بيكر فقد اعتقدت أن هذه القوة هى (سر العظمة).

وقد ظهر فى ألمانيا كتاب ضخم يسمى بحوث سيكلوجية حول المغناطيسية وعلاقتها بالقوة الحيوية.. وقـد كتب فى أول صفحاته (من خلال نطف جراح يعمل فى مستشفى بفيينا تعرفت فى مارس عام ١٨٤٤ على إحـدى مريضاته وهى ابنة أحـد جامعى الضرائب وهى امرأة شابة تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها كانت تعانى من آلام حادة فى رأسها لمدة تزيد على الثمانية أعوام، ثم تنتابها تلك النوبات من الصرع الحاد ثم ظهرت عليها كل كثافة الحواس المجيدة حتى أنها كانت لاتستطيع أن تتحمل أشعة الشمس ولاضوء الشمعة

وسمحت تلك الفتاة لأبيها أن يجرى عليها أولى التجارب التمهيدية وطلبت منه أن يوضع فى مواجهة الفتاة فى منتصف الليل أكبر مغناطيس موجود الآن فى العالم وهو شكل حدوة الحصان فرأت تسع طبقات قامت على النقاط ورفع نحو تسعين رطلا من الحديد وتم لها بالفعل ما أرادت.

وفى الصباح التالى أبلغت أن الفتاة شعرت بوجود ضوء متميز مستمر طوال تشغيل ذلك المغناطيس إلى جوارها وكان الضوء النارى مساويا فى حجمه لـكل من قطبى المغناطيس وقريبا من الفولاذ الذى كان هذا الضوء يتدفق منه ثم بدأ أن الضوء يشكل شيئا كالبخار النارى وكان هـذا الشكل محاطاً بنوع من الآلة من خيوط الأشعة.

وعثر رايستنباخ بعد هذا على أربع فتيات أخريات مصابات بالنيوريثانيا

(وهو نوع من أمراض التوتر العصبي) وقد رأين جميعاً نفس الضوء ورأته بعضهن يتخذ أشكالا أخرى مثل الشفق القطبي

ومع هذا بالرغم من كتاب رايشنباخ هذا فى بحوث المغناطيسية قد تناساه العالم من وقت طويل ، وأن المكتبات إذا عرضته فإنها تضعه تحت قائمة كتب فى علم الكهرباء فانه يظل كتابا مقتما ولا يمكن نسيانه فهل يمكن أن يكون كل شيء على صواب ؟ .

فمثلا أن الهندوس يؤمنون بقوة يدعونها (كوندالين) يحاول فلاسفة وممارسى اليوجا أن يسيطروا عليها وهو يهبط على طول النخاع الشوكى وتتحول من مركز إلى مركز فى الجسم وكثيراً ما تظهر فى صور الأشخاص المنحوتة على جدران المعابد فى الهند وسيلان حالات شبحية خارجة ممتدة من الجسد وتصميمات الألوان تذكرنا إلى حد غريب بالتصميمات التى وضعها رايشنباخ عن ألوان الطيف الخارج من أجساد الأشخاص الذين أجرى عليهم تجاربه .

ويقول باراسياس (إن القوة الحيوية ليست حبيسة داخل الإنسان وإنما هى تشع حوله مثل مجال مضيء . . . وفى تلك الإشعاعات شبه الطبيعية قد يلتقح خيال الإنسان نتائج صحية أو مريضة) .

وفى عام ١٩٣٩ ظهر العالم فرويدى بارز رايش فأثار زملاءه وأثار غضبهم وسخطهم عليه بأنه اكتشف نوعا جديدا من الطاقة لم يكن معروفا عند زملائه علماء الطبيعة ولا عند الأطباء . . الطاقة الحيوية التى تنظم صحة المخلوقات الحية وتبلغ حالته نوعا كبيراً من الغرابة حتى أنها تستحق أن نذكر عنها شيئاً آخر فهى تذكرنا برايشنباخ من نواح عديدة .

كان أكثر مفاهيم فرويدى أهمية هو مفهوم (روح الشخصية) المقومة الشبيهة بصدفة السلحفاة التى يخلقها المصابيون لأنفسهم ليخففوا ضعفهم لأنفسهم ليخففوا ضعفهم الداخلى وقلقهم والتى يمكن أن تعبر عن وجودها حتى

فى شكل التصلت العضلى أو الشلل ورأى رايش أن وظيفة المعالج النفسى هى أن يحطم ذلك الدرع . . ولكنه انطلق فى التفسير والدراسة أكثر حتى وصل فى منتصف عام ٢٩ على تفسير آخر هو الطاقة لأرجونية وقال عنها :

— (إن الأرجون طاقة مؤثرة بشكل عملى ومن الممكن رؤيتها وقياسها وذات طبيعة كونية) قال ذلك فى كتابه تحليل الشخصية إنه يقول :

(إن الفلسفة الحديثة من أجل أن تفسر العالم كانت مرغمة على أن تعترف بعامل فعال وسيط وكونى لا يمكن التفكير فيه وقد استطاعت أن تبرهن على حضوره الدائم) .

ويعانى البشر من فكرة خاطئة تقول أن الجسد والعقل يسيران فى طريقين متوازيين دون أن يؤثر احدهما فى الآخر تأثيراً حقيقياً ولكن أكثرية الناس من بين من يعرفون النمو الجنسى المبكر إنما يحققون هذا لأنهم مشغولون إنشغالا كثيفا بالموضوع وهذا الانشغال يتراكم فى كل مرة مثلما تتراكم الجهود المبذولة — ليتعلم الفتى ركوب الدراجة لأول مرة حتى تحدث الطفرة ذات يوم وفى هذه الحالة فإن المقصود هى القدرة على ممارسة القدرة الجسدية .

وهذا هو مايثير السؤال الشامل الآتى :

ماهى القوى الأخرى التى يمكننا أن ننميها إذا مابذلنا ذلك المجهود القوى ؟.

هناك بالتأكيد من حولنا مئات القصص سواء أكانت منها القصص القديمة أو الجديدة المعاصرة لنا تدور حول ما تمتع به بعض الأشخاص من قدرات تتلخص كلها فى إمكانية السيطرة الإرادية على الجسد أو على الوجود الطبيعى للجسم وعلى قوانينه الفيزيقية ودفع الجسد إلى القيام بأعمال خارقة أو تواضع الناس على وصفها بذلك باعتبارها تخرق قوانين الطبيعة المعروفة — بل وبإمكانهم أن يقولوا مثل هذه الأعمال بالنسبة للمواد و ظواهر طبيعية خارج الجسم البشرى بحيث يلوح أن الإنسان سيطر على هذه المواد أو على تلك الظواهر

بمحض إرادته وعن طريق تركيز تيار الإرادة على الشيء لكي يتم إخضاعه .

لا قد يكون كل ذلك من الأمور التي يمكن أن يتصورها الإنسان فإننا قد نحس ، وقد لا نحس بالميل إلى تقبلها ولكنها لا تتصارع بأي شكل مع معرفتنا بطرائق سير العالم وكيفية تحركه ، ويمكننا أن نقول بنفس الطريقة أنه لو كان بوسع دانتي أن يطل على القرن العشرين لكان جديراً بأن يظن أن الراديو والتلفزيون شيئان غريبان للغاية . . ولكن وجودهما ما كان ليتناقض مع كل ما كان يعرفه بالفعل عن الكون ، وليس هنا ما يؤيد أو يدحض علمياً مسألة الجسد الأثيري رغم أن هناك كثير من الأدلة على وجود القدرة على التكهن بالمستقبل والانتقال في الزمن وهي أدلة توحي بأنها تشير إلى تلك المسألة .

وفي هذه الحالة كيف يمكن أن يحلم الإنسان بالمستقبل ؟ .

الجواب الشائع على هذا السؤال يقول : إن أي شيء يمكن أن يحدث فلنتخيل جماعة من النحل تتطاير حول الزهور في الحديقة ، ولا توجد آلة حاسبة في العالم تستطيع أن تتنبأ بوضع أو مكان نحلة معينة بعد عشرين ثانية فقط لأن هذا الوضع يعتمد على حركات الآلاف الأخرى من النحل وعلى عشرات العوامل الأخرى وأكثرها عوامل عارضة غير مرئية .

فإذا كان التنبؤ بالمستقبل ممكناً لدلنا على أن هذا الرأي زائف ، وغير سليم من افتراضيته أساساً ، ولكن لا شك أن أكثر المؤمنين بعلوم الغيب سخفاً وجنوناً لا بد سوف يتردد قبل أن يؤكد أنه ليس هناك ما يسمى بالصدفة ، لقد أكد جوودييف أن حياة معظم الناس إنها صدفة كلها .

وفي كتاب الإنسان والزمن يذكر بريستل أحلامه التنبؤية وكان من نتيجة تكرار تلك الأحلام التنبؤية أنه عكف على نظريات وأنه حول الزمن يدرسها وهي نظريات أدت إلى حدوث قدر عظيم من الاستثارة في الثلاثينات ويصف دان كيف تحير إزاء دقة التنبؤات التي رآها في أحلامه ثم عاد في ذلك

الكتاب الذى صدر باسم تداخلات فسرد عدداً كبيراً من هذه الحالات التى وقعت له شخصياً .

كان البروفيسير دان رجلا ذكيا وكان مهندسا متخصصا فى علوم الطيران وتركزت هوايته الاهتمام بعلوم الطبيعة والرياضيات وهكذا حاول تشييد نظرية تتناسب مع نظرية إينشتين (النسبية) عن الزمن وقد اقتنعت النتائج التى توصل إليها فى ذلك الوقت الكثيرين من الناس ولكنها فقدت الكثير من الأرضية التى قد اكتسبتها منذ ذلك الحين ويمكننا أن نلخص ما يقوله بشكل عام :

إذا كان الزمن شيئاً يجرى إلى الأمام أو يتقدم سائراً إذن فلابد أن يكون ثمة نوع آخر من الزمن الذى تستخدمه فى قياس سرعة الزمن الأول ثم لابد أن يكون هناك نوع ثالث من الزمن الذى نستخدمه فى قياس سرعة الزمن الثانى . ومع ذلك فإن هذا التأكيد المحير ليس هاماً حقاً بالنسبة لفرضيته الأساسية التى تقول بأن البشر أيضاً مستويات عديدة . . هناك (أنا) الذى يحيا ويعانى . . وهنا (أنا) آخر ليس بوجود تلك (الأنا) الأولى ، ويصبح واضحا حينما أتحدث عن نفسى .

ويقول دان إنه من المحتمل أن يكون هناك عدد لانهاية له وسلسلة لانهاية لها من (الأنات) . . وأن هذه (الأنا) الثانية البعيدة هى ماتوجد فى الزمن الثانى وهى القادرة على أن تنظر إلى الأمام ، وإلى الوراء فى الزمن .

ولكي يفسر دان هذا التأكيد الغريب فإنه يطرح إفتراضاً آخر .

فلنفترض أن كل ما يحدث لى فى خلال حياتى يتجسد بالخارج فى سلسلة من الصور مثل (الفيلم الملون) يبدأ بميلادى وينتهى بموتى فاذا مضيت حياتى بشكل كئيب فستكون لتلك الحيــاة خاصيــة رتيبة مملة واحدة . . .
وأنا فى الحقيقة (أنتبه) لمجموعة بعينها من الأشياء ، وأتجاهل أشياء أخرى ،

وعلى ذلك فهناك (أنا) الأولى الذى ينساه عبر الحياة رائيا الأشياء فحسب . وهناك (أنا) الثانى يتوجه انتباهه إلى بعض الأشياء التي أراها ، ولا يوجه انتباهه إلى أشياء أخرى مما أرى .

ويطلق (دان) على هذا للراقب الآخر اسم العقل . . . ومن الطبيعى أن يكون للعقل مجال ضيق للاختيار بين ما يركز عليه ويقول دان إنه قد يقوم حينئذاك بشغل ماليه من وقت بإلقاء النظرات الفاحصة على الماضى أو على المستقبل .

وهو يقرر فى النهاية أن هنـاك (عقلا كونيا) تـكون العقول الفردية جوانب صغيرة منه ، وقد يحق لنا أن نـكف عن متابعتة عند هـذه النقطة الصدفية العيفية لا علاقة لها بالمناقشة الحالية .

ويأتى بريستلى فيتخذ من (دان) نقطة انطلاق له على أساس أنه يمتلك عدد من الافتراحات النفاذة إلا يرفض فـكرة دان عن وجود عدد لانهائى من (النفوس) . ويشير إلى أن كل ما نحن بحاجة إليه منها لايزيد عن ثلاث فهناك (أنا) الذى يرقب الأشياء فى فتور ولامبالاة .

إنه (الأنا) الذى يوجد حينما أحدق من نافذة القطار نصف نائم لاأقل . . أو أكثر من تسجيل المناظر العابرة فإذا ماجذبت أجزاء نفسى المبعثرة وتماسكت وشرعت فى التفـكير فيما أراه إذا كنت مثلا أعبر خلال منظر يثير اهتمامى فرحت أبحث عن شىء معين إذن فأنا (أنا) آخر سيبرز إلى الوجود إنه (الأنا) الذى يحكم على الأشياء ويميز فيما بينها ثم هنا (أنا) آخر يقوم بمراقبة الإثنين الأولين ذلك أنى إذا كنت قادراً على ملاحظة (أنا) الثانى فلابد أن يكون هناك (أنا) ثالث للقيام بهذه المهمة .

أما بالنسبة للزمن نفسه كان بريستلى يقول بأنه يبدو أن ثمة ثلاثة أنواع مختلفة من الزمن وهنـاك الزمن العادى الذى يمضى بينما أقوم بواجباتى العادية

وهناك الزمن الذى أدركه بوعى بوجوده فى لحظات الراحة والتأمل مثلا الزمن الذي خبره توينبي حينما صار واعيا فجأة بالتاريخ كله ثم هنـاك نوع ثالث من الزمن الذى يبـدو أننى قادر على السيطرة عليه فى لحظات التركيز والـكثافة العظيمين أنه الزمن الذى أخبره حينما أكون خلاقا مبدعا بشكل شامل عميق .

أما بالنسبة للزمن الثالث فانه يمضى لـكي يتحدث عن السرعة الهائلة التى أنجز بها كتابة أربع من أنجح مسرحياته وأكثرها صعوبة ويعلق قائلا أنه إذ ينظر إلى هذه التجربة القديمة فانه تسفر بما يشعر به رجل يراقب نفسه وهو يجرى بسرعة هائلة عبر حقل ألغام وهو يميل إلى الاعتقاد بأنه العقل اللاواعى النوع به من الزمن وأن هـذا النوع هو النوع المتعلق بذلك النوع الخاص البالغ السرعة من الإبداع والقدرة على الخلق .

ربما كان من الممكن إذن أن نعترف بوجود نوعين من الوعى وعى أحادى ووعى مزدوج . ففى مواجهة خطر أو حصار يكون الهدف الأساسى هو المحافظة على الذات ، ولاشك أن أكثر الناس شخصية أكثر من اللازم أنهم يتعلقون كثيراً ويهتمون كثيراً بأمراضهم ومتاعبهم وما يعانون منه وحينما يحدث هذا الضيق الرؤية وينحصر مجالا وهـــذا هو ما أعنيه بالتعبير عن الوعى اللامادي . . فإنى إذ جلست فى حجرة مزدحمة بالأشياء يسيطر على الضجر وتملأنى الـكآبة أكون منحصراً فى واقع ضيق ومحصور ، الواقع الذى يحيط بى - فاذا طرقت على النافذة قطرات المطر فان البهجة المفاجئة التى تغمرنى ستكون نابعة من التذكر المفاجىء لوجود واقع آخر (هناك بالخارج) وهذا هو الوعى المزدوج وهذا هو مايحدث لفاوست حينما يسمع أجراس عيد الفصح الإحساس المبهج بأن : آجل يوجد شيء آخر أننا موجودون عادة داخل شرك الغرفة المزدحمة التى تضمها الذاتية ولـكن حينما يبـدأ الوعى المزدوج فاننى أستطيع أن إتنفس بعمق أتحقق حينذاك من الحقيقة الهائلة الآهية القائلة بأن

نفسى أيضاً يمكن أن تختنق بنفس السهولة التى يمكن أن يختنق بهـا الجسد . أنها قد تحدث بسبب نقص الأكسجين أما نجاتها من الاختناق متشبه فى تأثيرها النشوة الجنسية بالصورة التى وصفها د . ه لورانس على سبيل المثال .

وتبـدو التجارب المختلفة التى وصفت فيما سبق كما لو كانت نوعا من الفصول كما كانت قفزات مفاجئة لحامة فى طيرانها لايستطيع البشر أن يفعلوا شيئا للسيطرة عليها .

إن شيلى يوجه حديثه إلى روح الجمال ثم يسأل .

لماذا لا تنطلقين بعيداً وتتركين حالتنا ووضعنا .

هذا الإناء المعتم الواسع من الدموع ، خاليا ومهجورا ؟ .

ولا شك أن هذه أكثر حالات الوجود الإنسانى جوهرية فلماذا هى كذلك لماذا تتبخر وتتلاشى أنواع يقيننا وما تبلغه من نشوى وما تحققه من كثافة بمثل هذه السهولة فنشعر باحساس كالصداع الذى تخلقه الخمر بعـد اليقظة . يقول علم النفس القائم على تعاليم هوسرل أن المعالجة الصحيحة لدراسة المشكلة هو فحصها بطريقة تشبه طريقة العين العملية التى يبحث بهـا الميكانيكي عن سبب تعطل السيارة وعند هذه النقطة فسأل كيف ؟ وهو سؤال لايمكن الإجابة عليه ولا استطيع إلا أن نزعم أن قوة الحياة قد بدأت غزوها للمادة بأن قسمت نفسها بشكل ما إلى وحدات متعددة شعرت كل منها بأنها منفصلة عن باقى الـكون . ويجيب تشترون على سؤال (لماذا) قائلا :

(حتى يحصل كل شىء يطيع القانون على مجد الفوضوى وعزلته وحتى يمكن لـكل رجل يقاتل من أجل النظام أن يكون فى مثل شجاعته وفضل من يدس القنبلة فى أساس النظام) .

هذا يعنى ببساطة أنه بدون العزوبة لما تمكنت الحيـاة من أن تستجمع نفس القوة اليائسة العظيمة أن إنسان الحشد هو مجرد جزء من حشد كبير ،

إنسان ضعيف متخاذل ، والناس الذين يحتاجون إلى الناس هم أكثر الناس غبار في العالم وهكذا يبدو التناقض الأساسي الكامن في الطبيعة الإنسانية تناقضا موروثا و نظريا في قوة الحيـاة نفسها . . فبدون التحدى أو الأزمة تستسهل هذه القوة الأمور وتنحط إلى مستوي المتوسط والعادية وقد كان على كل ما في الأرض من حياة حتى الآن أن تنساق أو أن تندفع إلى الأمام مثلما كان على العبد قديما يضربوا بالسياط لـكي يندفعوا إلى القتال أنها لم تمتلك أبداً هدفا وضيعا إيجابيا لم يكن لها سوي الهدف السلبي البقاء على قيد الحياة وتجنب الألم .

ويبدو أن كوننا قائم على الأساس على مبـدأ الفردية حيث تصبح كل وحدة من وحدات الحياة مثل الواحة المنعزلة ولبس علينا إلا أن تدرك الفردية المتميزة تتجاوز الجسد المادى و تسمو عليه وهذا يعنى أن هذا الجسد مثله مثل الموت هو أداء الحياة وليس نتيجة عارضة لها وهذا من أجل أن ندرك أن المنطاق يقف في صف وجود نوع ما من (الحياة بعد الموت) .

إن النظرية التى طرحتها هنا تحل التناقض فالشاعر على حق فى أن يكون غير واثق بشأن كل مايتعلق بعوامل أخرى تأتى باعتبارها حلا لمشا كل هذا العالم . فاذا كان تفكيره صحيحاً فليس المقصود من العالم الآخر أن يكون حلا .

إننا نقف فى خطر القتال الأمامى أما القائم فهو فى مركز القيادة عند المؤخرة وليست (العوالم الأخري) التى توجد بيننا و بين مركز القيادة سوى وحدات معاونة ومركز لتموين المقدمة وليست سوى مستوى من الوجود أكثر سمواً . ربما كانت هناك حرية أكثر فى تلك المستويات وإمكانية لرؤية أكثر اتباعا ووعى أكثر شمولا — ولـكن ليس هناك فرصة أقل للإنجاز الفعلى .

أما إمكانية الإنجاز الفعلى فتمكن هنـا حيث نحن نعيش . . أننـا نرى الإجابة على الوجود المادى فى ظل لحظات الحدة والـكثافة العظيمة . . وسوف تصبح الحياة وحدة حينما تقوم تلك السيطرة بتحقيق ذلك فلا يكون ثمة تمايز بين عالم وآخر ولا وحدة أخري .

ألا يوحى هذا بأن ماحدث فجأة فى القرن التاسع عشر ؟ وبين هذا العام لقد كان التاسع عشر ولأول مرة فى التاريخ هو ظهور عصر الرومانتيكية وكف الإنسان عن التفكير فى نفسه بوصفه عبدا لغيره ورأى نفسه أنه يمكن أن يصبح (إلها) على الأرض محتملا أو كما لو كان قادرا على أن يكون إلها وقد كانت كل صيحات التمرد ضد الله من دى ساد إلى مانفريد إلى قطاع الطرق عند شيلر إلى فاوست عند جوته إلى عباقرة هوفمان المجانين هى التعبيرات المختلفة عن هذه الروح الجديدة حيث كانت هذه هى اللحظة المناسبة الصحيحة وكان الإنسان يشرع ويهم فى فهم نفسه .

إننى لا أعتبر نفسى كاشفا لعالم الغموض والسحر لأننى أكثر إهتماماً بطرق وقواعد عمل الوعى اليومى العادى وفى الماضى كانت ميزة الإنسان الرئيسية هى استعداده وميله للهزيمة وحتى عمالقة القرن التاسع عشر كانوا ميالين إلى الاعتقاد بأن الجندية ملجأ صالح من تفاهة الواقع اليومى ولكن الجواب أنها يكمن فى فهم طرق وقواعد عمل الوعى . . فاذا ماتحقق فهمها لأمكن توجيهها نحو تقبل المزيد من الحقيقة وتتطلب هذه العملية التركيز والدقة وهما الفضيلتان المميزتان لصانع الساعات الماهر .

هكذا نعود إلى ما أكدناه فى الفصل الأول . .

يكمن مستقبل الإنسان فى غرس الملكة س ورعايتها .

رقم الإيداع ٤١٤٧ / ١٩٧٩